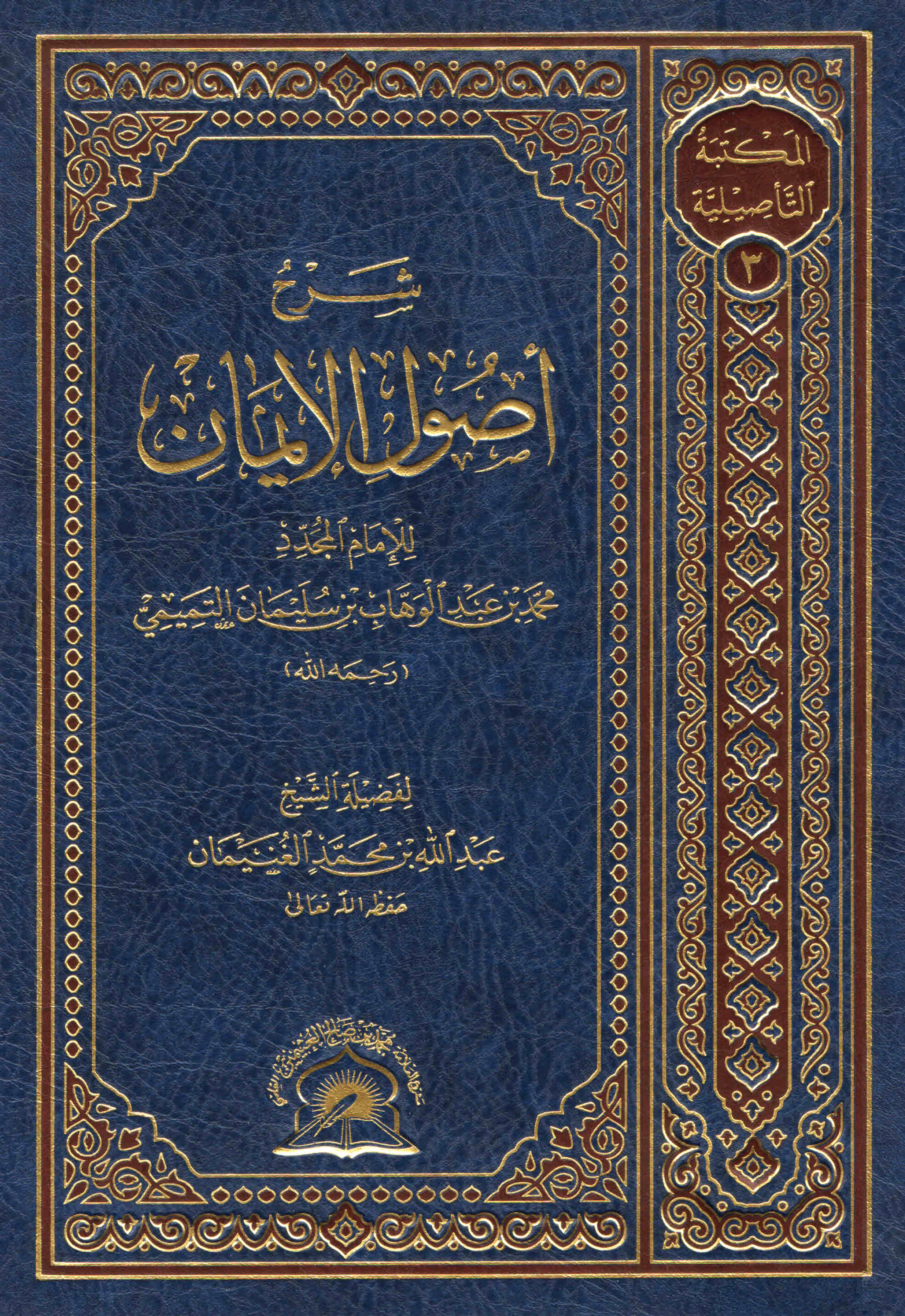

المكتبة التأصيلية
٣
شرح
أصول الإيمان
للإمام المجدد
محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي
(رحمه الله)
لفضيلة الشيخ
عبد الله بن محمد الغنيمان
حفظه الله تعالى


شرح
أصول الإيمان

الطَّبْعَة الثَّانِيَة

١٤٤٣هـ - ٢٠٢٢م

ردمك : ٩-١٨٩٢-٠-٩٩٢١-٩٧٨





مشروع العلامة
محمد بن صالح العثيمين
العلمي
دولة الكويت

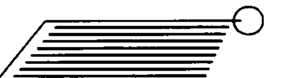
الموزع الرسمي





rakaezkw.com rakaez.kw@gmail.com
@dar_rakaezkw t.me/rakaezkw
+٩٦٥ ٥٠٦٧٤٥٣٣


بسم الله الرحمن الرحيم



مقدمة الناشر

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسلام على المبعوث رحمةً للعالمين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين.

أما بعد:

فيسرُّ مشروع العلامة محمد بن صالح العثيمين العلمي بدولة الكويت أن يقدم لطلبة العلم الكرام **الإصدار الثالث** من «المكتبة التأصيلية»، وهو بعنوان «شرح أصول الإيمان» للإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ، المتوفى سنة (١٢٠٦هـ).

حيث قام فضيلةُ الشيخ العلامة **عبد الله بن محمد الغنيمان** ـ حفظه الله ـ بالشرح والتعليق على أحاديث هذا الكتاب المختصر من ضمن دروس الدورة العلمية الثامنة، والتي عُقِدتْ في مسجد فهد الزبن بمنطقة «بيان» بعد صلاة الفجر، وذلك بتاريخ ٤ ـ ٧ من شهر رجب سنة ١٤٣٠هـ، الموافق ٢٧ ـ ٣٠/٦/٢٠٠٩م.

وكان المنهجُ العامُّ المتبعُ في إخراج هذا الكتاب ما يلي:

١ ـ تفريغ الدروس الصوتية إلى مكتوبة، ثم مقابلة النصِّ المكتوب على المسموع مرةً أخرى.

٢ ـ صياغة النصِّ وتهذيبه، وربطُ المتن بالشرح مع تمييز المتن بلون مختلف.

٣ ـ خدمةُ النصِّ، وذلك بعزو الآيات القرآنية إلى مواضعها في المصحف، والتخريج المختصر للأحاديث المرفوعة، وبيان غريب الألفاظ، وتوثيق الأقوال وعزوها إلى مصادرها.

٤ ـ تدقيق النصّ من الناحية اللغوية والإملائية، وضبطُ علامات الترقيم، وضبط ما يُشكل من الألفاظ.

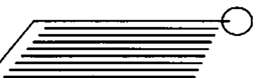
وبعد ذلك تكرَّم الشيخ ـ حفظه الله ـ بمراجعة الكتاب، وتعديل ما يلزم تعديله، وإضافة ما يحتاج إلى إضافة وتوضيح، ثم أذِن بطباعته، فجزاه الله خيراً، وشكر سعيه، وبارك في عمُره ووقته، وأجزل له المثوبة.

وختاماً نسأل الله تعالى أن يجعلَ هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، ونشكر كلَّ مَن أسهم في إخراج هذا العمل، وأن يَعمَّ نفعه للإسلام والمسلمين، والحمد لله ربِّ العالمين.

مشروع العلامة
محمد بن صالح العثيمين
العلمي
دولة الكويت

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على نبينا محمد
وبعد سبق أن ألقيت دروساً في دورة الشيخ محمد
بن عثيمين رحمه الله وقد أذنت للقائمين عليها
في طباعة تلك الدروس وفوضت إليهم التصرف
فيها والله ولي الجميع بالتوفيق وصلى الله وسلم على
نبينا. قاله وكتبه عبد الله بن محمد الغنيمان في ٢/١٢/١٤٢٨هـ



مقدمة الشارح

الحمد لله رب العالمين، نحمده ونستعينه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحابته وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد:

فإن من الكتب النافعة ما كتبه شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ولا سيما في أصول الدين وما يجب على العباد لربهم من العبادة وما يضاد ذلك أو يذهب بكماله، حيث سعادة الدارين تتوقف على ذلك.

وقد انتفع بما كتبه مَن شاء الله أن ينفع، ومنها كتابه «أصول الإيمان»، واقتضى الحال أن أعلق عليه تعليقاً مقتضباً موجزاً في إحدى دورات محمد بن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في دولة الكويت، أسأل الله تعالى أن ينفع به كما نفع بأصله.

أما المؤلف فهو شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ إمام من أئمة المسلمين، أنقذ الله ـ جل وعلا ـ به أهل نجد وغيرهم من الشرك الذي كانوا واقعين فيه، فهو من ورثة الرسل، ومن رحمة الله ـ جل وعلا ـ للأمة.

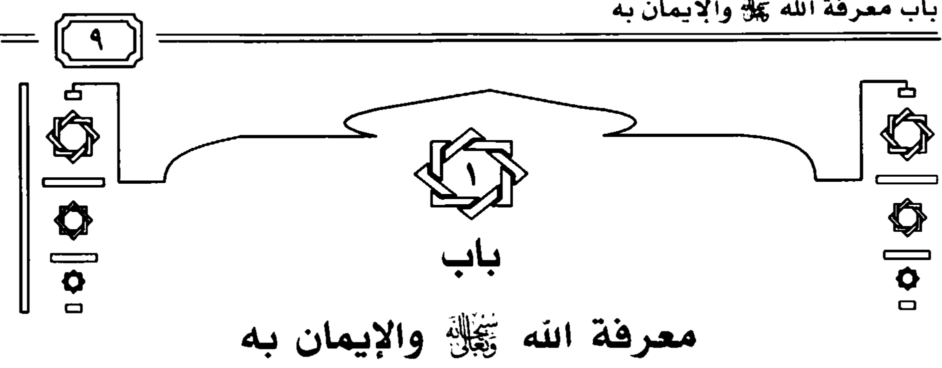
ومعلوم أن الناس قسمان: قسمٌ يريد الحق ويتبعه، وقسم يعادي الحق ويُبغضه، ولهذا انقسم الناس أمام دعوته هذا التقسيم، كما هي سُنَّة الله ـ جل وعلا ـ في خلقه؛ لأن الله خلقهم للاختلاف؛ أي: هذا مؤمن وهذا كافر، فلا بد أن يتميز أحدهما عن الآخر، فيكون هذا المؤمن مع جند الله وفي سبيل الله، والكافر مع جند الشيطان وفي سبيل الشيطان، فلا يجوز أن يصطلح الفريقان، فإن وقع اصطلاح بين الفريقين؛ فسدت الأرض وفسد كل شيء.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَـٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَـٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنفال].

فالمقصود: أنه لا يزال كثير من الناس يبغض الشيخ ويكرهه وينفر عنه، ويرى أن دعوته باطلة، مع أن الأمر قد وضح وبان.

وللشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ مؤلفات عدة، وكل مؤلفاته أصول، ومنها هذا الكتيب، وهذا عبارة عن نصوص نبوية، لكنه جعل لها عناوين تدل على مقصوده.





باب
معرفة الله سبحانه وتعالى والإيمان به

الشرح

بدأ هذا الكتاب بقوله: «**باب معرفة الله ـ جل وعلا ـ والإيمان به**»؛ لأن هذا أول ما يجب على العبد، وقد اختلف الناس في هذه المسألة ـ كما هو معلوم لطالب العلم ـ، ومن العجائب أن يأتي من يزعم أنه متبع للحق فيقول: «أول ما يجب على المكلف النظر العقلي»، ثم يأتي فريق آخر يزعم أنه أدق نظراً منه فيقول: «بل أول ما يجب على العبد الشك؛ لأن الشك يدعو إلى النظر»، وهذه من العجائب؛ لأن الله ـ جل وعلا ـ قص علينا قصص الرسل الذين أرسلهم بالواجب الذي يجب على العباد، وأخبرنا أن كل رسول بدأ أمته بقوله: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩]، ولم يأتِ في سيرة الأنبياء وقصصهم أنهم قالوا: انظروا إلى الكون، انظروا إلى المخلوقات، انظروا إلى أنفسكم، انظروا إلى كذا وكذا حتى يهديكم ذلك إلى معرفة الخالق ـ جل وعلا ـ ثم تؤمنون به، مع أن هذا أمر فطر الله ﷻ عليه خلقه، ولهذا قالت الرسل: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [إبراهيم: ١٠]؛ لأن هذا أمر واضح، ولذلك كثرت أدلته.

والمقصود بمعرفة الله: المعرفةُ الخاصة، وليست المعرفة العامة التي يشترك فيها الخلق كلهم، والمعرفة الخاصة هي التي تكون بأسمائه وصفاته، وكذلك بأفعاله ومخلوقاته، فالله تعرف إلى عباده بهذا؛ لأن الله تعالى غيبٌ لا يُشاهد، وإنما مشاهدته ـ كما جاءت النصوص ـ تكون للمؤمنين يوم القيامة، وهذه المشاهدة أيضاً يرون وجهه إلا أنهم لا يحيطون به.

ثم كذلك تكون معرفته ـ جل وعلا ـ بأفعاله التي تُشاهد، سواء آياته الخلقية والأُفقية التي تتجدد، وكذلك آياته النفسية، وكل هذا أمره واضح، ولهذا يقول ـ جل وعلا ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [البقرة]، ليس فيهم أحد يشك أن الله هو الذي خلقهم وخلق من قبلهم، فإذا علموا أنه هو الذي خلقهم وخلق لهم ما ينتفعون به؛ وجب عليهم أن يعبدوه، فصار هذا من الأمور الواضحة.

ثم قال الله: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ﴾ [البقرة: ٢٢] فبدأ بأكبر المخلوقات التي تُشاهد وهي السماوات والأرض، ثم قال: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ﴾ [البقرة: ٢٢] فكل هذا واضح جلي، عليك أن تعتبر، ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]؛ أي: تعلمون أن الله ـ جل وعلا ـ هو الذي خلقكم وخلق من قبلكم، وهو الذي جعل لكم الأرض على هذه الصفة حتى تتمكنوا من الانتفاع بها والسير عليها وحرثها، وكذلك جعل لكم ما فوقكم من المخلوقات التي أطلق عليها السماء، فهذه أمور مشاهدة، وهي داعية إلى عبادة الله ـ جل وعلا ـ.

ثم إنّ الله ﷻ لا مثل له ولا ند فيقاس عليه، فهو تعالى لا يُشاهد، وليس له مثيلٌ فيُقاس عليه، فإذاً لا بد أن يكون الاستدلال عليه بأفعاله وبأوصافه التي تَعَرّف بها إلى عباده، وهذا مراد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: **«معرفة الله والإيمان به»**؛ يعني: أن المعرفة تسبق الإيمان، فيجب أن تعرف ثم تؤمن.

والمقصود بالإيمان ثمرة العلم والعمل به؛ يعني: الإيمان الخاص، وليس الإيمان الذي يكون مشتَركاً بين كثير من الناس، كما قال الله ـ جل وعلا ـ: ﴿وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف]، فهذا الإيمان الذي ذكره عن المشركين هو الأول الذي عرفوا الله بمخلوقاته وتصرفاته، وهذا لا ينفع وحده، بل لا بد أن ينضم إليه العبادة، والإيمان بالرسل، والإقرار بما جاؤوا به، ومتابعتهم، وهذا مقصوده **بقوله: «الإيمان به»**.

فإذاً الإيمان هنا فُسِّر بالتوحيد، وبالإخلاص في العمل، وهذا هو الذي جاءت به الرسل، وهو الذي ينفع، وليس الإيمان مثلاً بكوننا نستدل

بالمخلوقات والأمور الحادثة من السحاب والمطر والرياح وطلوع الشمس وغروبها ونحو ذلك، فإن هذا وسيلة وداعٍ إلى الأمر الآخر، وهو التوحيد، والإخلاص في العمل. أما وحده؛ فإنه لا يُجدي شيئاً، وهذا لم ينكره أحد من الخلق؛ يعني: الأول الذي هو مشاهدة المخلوقات، والإيمان بأن خالقها هو الله القادر على كل شي ـ تعالى وتقدس ـ.

ولوضوح هذا الأمر وجلائه صار الوقوع في الشرك جريمة مهدِرة للعقل وللفطرة وللشرع، ولهذا لا يُقبل عذر أي معتذر في هذا؛ لأنه أهدر عقله، وأهدر فطرته، وجانب ما أجمعت عليه رسل الله، وجاءت به من عند الله تعالى، وليس لأحد في ذلك عذر بأن يقول: أنا سرت خلف الناس، أو لم ينبهني أحد على ذلك؛ لأن هذا أمر واضح جلي، من التراب إلى العرش كله أدلة على انحراف الشرك وبطلانه، ولهذا جعل الله الشرك أكبر الكبائر، وأخبر ـ جل وعلا ـ أنه من مات عليه؛ فإنه من حطب جهنم، وأن الجنة محرمة عليه.



﴿١﴾ عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: قال الله تعالى: **«أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري؛ تركته وشركه»** رواه مسلم[1].

الشرح

ثم ذكر حديث أبي هريرة ﷺ ليدل بذلك على وجوب الإيمان الخاص لله وحده، وإخلاصه له.

وهذا الحديث من الأحاديث القدسية، وهي التي تنسب إلى الله قولاً ومعنىً، وهذا هو الصحيح، فهي قول الله لفظاً ومعنى، رواها رسول الله ﷺ عن ربه، فالله أوحاه إليه، ولا يُقال: إن هذا التعريف يدخل فيه القرآن؛ لأن القرآن يفارق هذا بأمور كثيرة، فالقرآن تُعبدنا بتلاوته، ولا تصح الصلاة إلا به، وهو معجز بلفظه ومعناه، وهناك أمور كثيرة يُفارق فيها القرآن الحديث القدسي.

وأما من عرف الحديث القدسي بأن معناه من الله ولفظه من الرسول؛ فيُقال له: ما الفرق بين الحديث القدسي والحديث النبوي؟

لا فرق بينهما على هذا التعريف؛ لأن الله ـ جل وعلا ـ يقول: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم]، فكل ما نطق به الرسول ﷺ فهو وحي، والوحي معناه من الله، وإن عبر الرسول ﷺ عن هذا المعنى بألفاظه.

وفي هذا الحديث دليل لأهل السُّنَّة في رد بدعة الأشعرية وضلالهم في صفة الكلام، فالله يقول ويتكلم كلاماً يُسمع منه، وهذا معلومٌ عقلاً وفطرةً، وكذلك اتباعاً للرسل، فالقول لا يكون إلا بالحروف المنطوق بها، أما أن يكون القول هو المعنى القائم بالنفس؛ فهذا ضلال، وهذا خلاف الفطرة،

---

(١) «صحيح مسلم» (٢٩٨٥).

وخلاف اللغة، وخلاف ما جاءت به الرسل.

وقوله: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك» أغنى أفعل تفضيل؛ أي: أن الله غني وكريم، فإذا وُجِد عمل فيه شرك؛ فإنه لا يقبله، فلا بد أن يكون العمل صافياً خالصاً له، ليس فيه أي شِرْكة، ولهذا أُخذ من ذلك أن من شروط قبول العمل تصفيته وتخليصه من الشوائب، فيكون لله وحده فقط، كما أُضيف إلى هذا أن يكون العمل على وفق ما جاء به الرسول ﷺ؛ لأننا عبيد، والعبيد لا بد أن يكونوا ممتثلين أمر سيدهم متبعين له، وهذا أيضاً يدلنا على أن العبد مكلف بكل تصرف يتصرفه، فلا بد أن يكون على وفق أمر الله ـ جل وعلا ـ.

وقوله: «تركته» الضمير هنا إما أن يعود للعامل؛ يعني: تركتُ العامل وعمله، أو يعود إلى العمل نفسه فيكون الضمير للثاني.

قوله: «وشركه»؛ يعني: وشريكه، تركتُه للشريك، وكلا المعنيين صحيح.



﴿٢﴾ وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات فقال: «**إن الله لا ينام، ولا ينبغي أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يُرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه**» رواه مسلم(١).

الشَّرْح

قوله: «**قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات**» مقصوده أنه قام وتكلم في مقام من مقاماته بهذه الكلمات، وكان ﷺ إذا تكلم؛ تكلم بكلام فصيح سهل مُيسر، كل سامع يحفظه، ولا يكثر الكلام، إذا تكلم بالكلمة رددها ثلاثاً حتى تُحفظ عنه، وقد عُرِف عن صحابته قوة حفظهم ومعرفتهم، ولهذا ما كانوا يكتبون، بل نُهوا عن الكتابة(٢)، وكانوا يحفظون كلّ ما سمعوا من رسول الله ﷺ.

وهذه الكلمات هي من وصف الله ـ جل وعلا ـ، وهي من موجبات الإيمان به على هذا النحو.

قوله: «**قام فينا رسول الله ﷺ**»؛ يعني: تكلم بهذا الكلام معلماً وداعياً إلى معرفة الله ـ جل وعلا ـ بذلك.

قوله: «**إن الله لا ينام**» هذا مما يجب أن نعلمه ونعرفه؛ لأن النوم أخو الموت، فهو نقص، فيؤخذ من هذا أن الله له الكمال المطلق في ذاته وأفعاله، وكذلك في حقه الذي يجب أن يكون خالصاً له، لا يشاركه فيه أحد، وكذلك لا يشاركه أحدٌ من الخلق لا في ذاته، ولا في أوصافه، ولا في أسمائه، ولا في حقه الذي أوجبه على خلقه، وهذا مما يجب أن يُعلَم تمام العلم.

---

(١) «صحيح مسلم» (١٧٩).

(٢) كما جاء في الحديث: «**لا تكتبوا عني شيئاً إلا القرآن، ومن كتب عني شيئاً غير القرآن فليمحه**» أخرجه مسلم (٣٠٠٤). وهذا في أول الأمر؛ خشيةَ أن يختلط الحديث بالقرآن، ثم جاء الإذن بالكتابة.

قوله: «**وما ينبغي**» هذه كلمة تأتي للأمور الممتنعة في الشرع كثيراً، كقوله: ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾﴾ [مريم]، فهذا ممتنع، كذلك هنا النوم ممتنع على الله؛ لكمال حياته، فهو الحي القيوم ـ تعالى وتقدس ـ فله الحياة الكاملة من جميع الوجوه.

وقد سُئل رسول الله ﷺ: أينام أهل الجنة؟ فقال: «**النوم أخو الموت، وأهل الجنة لا ينامون**»(١)، فأهل الجنة كَمُلَتْ حياتهم الخَلْقية، فأعطاهم الله ـ جل وعلا ـ إياها، ولا يمكن أن يكون معطي الكمال فاقداً له، فهذا مستحيل في العقل، ولهذا الجاهل لا يُعطي إلا جهلاً، ولا يعطي علماً. فعلى كل مسلم أن يعلم أن الله لا يتطرق إليه النوم.

وقد نفى ربنا ـ جل وعلا ـ عن نفسه مبادئ النوم، فقال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فالسِّنة هي بداية النوم وهو النعاس، ونفاها الله عن نفسه لكمال حياته ـ تعالى وتقدس ـ.

والكلمة الثانية قوله: «**يخفض القسط ويرفعه**» القسط هنا المقصود به العدل والحق، فمن اتبع العدل الذي هو الحق الذي جاءت به الرسل رفعه، ومن جانبه خفضه، كما قال الله ـ جل وعلا ـ: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيۡسَ لِوَقۡعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٞ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾﴾ [الواقعة]، ترفع أهل الطاعة والإيمان، وتخفض أهل الكفر والعصيان.

قال ـ جل وعلا ـ في الإنسان: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾﴾ [التين]، رده أسفل سافلين في الحياة الدنيا، وفي القبر، وفي الآخرة:

أما في الآخرة فظاهر، فإنه يكون في جهنم، وهي ﴿أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ﴾.

وأما في الدنيا فتصبح أخلاقه أخلاق الكلاب، أخلاق البهائم، وهو

---

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٩١٩)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤٧٤٥)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٧/ ٩٠)، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٠٨٧).

ينتقل من سفل إلى أسفل منه، إلى أن يستقر في جهنم، هكذا يكون جزاء من ترك الإيمان بالله، ومتابعة أمره الذي أرسل به رسله، فأمره وشرعه وجزاؤه عدل وقسط، فهو لا يفعل إلا العدل ـ تعالى وتقدس ـ، وهذا يعطينا أن الله كامل بنفسه، وكامل بفعله.

وأما الكلمة الثالثة فهي: «**يُرفَع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل**»، وهذا لتمام علمه وكماله، ولكن رفع الأعمال يكون للأمور الواقعة.

وهذا يفسره الحديث الذي في «الصحيحين»: «**يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر**»(١). وهؤلاء الذين يتعاقبون فينا لرفع العمل يسجلون أعمالنا ثم يرفعونها، وهذا التسجيل يُسجل حتى يتبين للإنسان أنه الذي يُقابل به ويجزى به هو الحق، وهو القسط.

ولهذا يظهر يوم القيامة، فكل واحد يُعطى صحيفة تشتمل على كل ما عمله قولاً وفعلاً، ويُقال له: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء]، ويقول المجرم: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف: ٤٩].

ثم الكلمة الرابعة: «**حجابه النور**»، وهذا ينكره الأشعرية وأهل الكلام، وهذا يجب أن نؤمن به، أن الله احتجب بالنور عن خلقه، ولهذا **قال**: «**لو كشفه**»؛ يعني: كشف الحجاب وأزاله «**لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه**» وهذه الكلمة الخامسة، والسُبُحات هي بهاؤه وجماله ونوره الذي يكون لوجهه ـ تعالى وتقدس ـ.

وقد جاء في أحاديث الرسول ﷺ التي يخبر بها عن ربه أنه سمى ربه نوراً، والله ـ جل وعلا ـ يقول: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥]، فالنور من أسمائه ـ تعالى وتقدس ـ، ولهذا قال: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر: ٦٩]، وهذا إذا جاء للفصل بين عباده، وقد أنكر هذا الاسم كثيرٌ من

---

(١) أخرجه البخاري (٥٣٠)، ومسلم (٢١٠)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الناس، وإنكارهم إياه منكر يجب أن يرد عليهم، وهذا من معرفة الله ـ جل وعلا ـ الذي تعرف بها إلى عباده من طريق رسوله ﷺ[١].



(١) اختلف أهل العلم في اسم النور، هل هو من أسماء الله تعالى أم ليس من أسمائه؟ وممن يرى أنه من أسمائه: الإمام ابن القيم. ويرى علماء اللجنة الدائمة، والشيخ ابن باز، والبراك، وبكر أبو زيد؛ أنه ليس من أسماء الله تعالى.

٣ وعن أبي هريرة ﷺ مرفوعاً: «**يمين الله ملأى لا تَغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض؟ فإنه لم يَغِضْ ما في يمينه، والقسط بيده الأخرى يرفع ويخفض**» أخرجاه[١].

الشَّرْح

في هذا الحديث أيضاً تعريف لربنا ـ جل وعلا ـ بما يذكره لنا رسولنا ﷺ من أوصاف ربنا ﷻ، فكأن المؤلف يقول: يجب أن تكون معرفتنا لربنا بالنصوص من كتاب الله ـ جل وعلا ـ ومن سُنَّة نبيه ﷺ؛ لأن ربنا ـ جل وعلا ـ غيبٌ، لا نطلع عليه فنشاهده، وليس له مثيل فيُقاس عليه، فالطريق لمعرفته خاصة، أما المعرفة التي تكون بأفعاله فهي معرفةٌ مشتَركة بين الخلق كلهم لا تكفي في الإيمان، هذا مقصود المؤلف بذكره هذه الأحاديث.

قوله: «**يمين الله ملأى**»؛ يعني: يده اليمين، وهذا يدلنا على أن لله يدين، حيث بدأ باليمين والأخرى تُسمى «شمالاً»، فقد ثبت في «صحيح مسلم» عن النبي ﷺ أنه قال: «**يطوي الله ﷻ السماوات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يطوي الأرضين بشماله**»[٢]، فأخبر أن الأخرى شمال.

أما الأحاديث التي جاء فيها: «**كلتا يَدَيْ ربي يمين**»[٣]، و«**كلتا يديه يمين**»[٤]؛ فقد غلط في هذا بعض الناس الذين ما عرفوا قدر الله ـ نسأل الله العافية ـ، فتصوروا أن المعنى: كلتا يَدَيْ ربنا من جانب واحد، وهو جانب اليمين، وهذا نقص لا يجوز أن يُعتقد، واعتقاده اعتقاد باطل، وإنما معنى

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٠٧)، ومسلم (٩٩٣).

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٨٨)، من حديث عبد الله بن عمر ﷺ.

(٣) أخرجه الترمذي (٣٣٦٨)، من حديث أبي هريرة ﷺ، وصححه الألباني في «سنن الترمذي» (٣٣٦٨).

(٤) أخرجه مسلم (١٨٢٧)، من حديث عبد الله بن عمرو ﷺ.

«كلتا يَدَيْ ربي يمين» أنها كاملة تامة، لا يلحقها نقصٌ ولا عيب، ليست كيد المخلوق الشمال التي تكون أنقص من اليمين غالباً، ولكن خوطبنا بما نفهم.

ولهذا لما ذكر الله ـ جل وعلا ـ الرسولَ ﷺ وأنه امتثل أمر الله لا يزيد على ما أمره الله تعالى به ولا يَنْقُصُ عنه شيئاً؛ قال: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾﴾ [الحاقة]؛ لأننا نعرف من أنفسنا أن اليمين أقوى من الشمال، فخوطبنا بالشيء الذي نعرفه ونعلمه، وليس معنى ذلك أن يدَ ربي ـ تعالى وتقدس ـ الأخرى ناقصة، بل كلتاهما كاملة تامة لا يلحقهما نقصٌ ولا عيب.

فالمقصود من هذا: أن نؤمن بأن لربنا يدين حقيقيتين، يأخذ بهما ويبسطهما، ويتصرف بهما كيف يشاء، ولليدين أصابع كما سيأتي، فهو يضع السماوات على إصبَع، والأرَضين على إصبَع، والجبال على إصبَع، والثرى والشجر على إصبَع، وسائر الخلق على إصبَع، ثم يهزهن[(١)].

وفي حديث آخر يقول الله تعالى: «**أنا الملك، أين الملوك؟ أين الجبارون المتكبرون؟**»[(٢)]، يُظهر عظمته ـ جل وعلا ـ أمام الخلق الضعفاء المساكين الذين رفعوا رؤوسهم في الدنيا وتكبروا على عباد الله، وزعموا أنهم يملكون ويتصرفون، فإذا كان يوم القيامة صاروا أصغر من الذر يطؤهم الناس بأقدامهم؛ لأن الجزاء من جنس العمل، ولا يظلم ربك أحداً.

فالمقصود بهذا الحديث: إثبات يَدَيْ ربنا ـ تعالى وتقدس ـ إثباتاً على ظاهر النص كما أخبرنا رسولنا ﷺ، فللّه الكمال المطلق ـ جل وعلا ـ فيما يتصف به، وفيما يجب له ـ تعالى وتقدس ـ.

وقوله: «**ملأى**»؛ يعني: أن الخير كله بيده ـ تعالى وتقدس ـ، وهذا كَثُر ذكره في كتاب الله.

وقوله: «**لا يغيضها نفقة**»؛ يعني: لا يَنْقُص ما في يده نفقةٌ، ثم بيَّن كثرة

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٨٦)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٨٨)، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

الإنفاق **بقوله**: «**سحاء**» والسَّحُّ: هو كثرة العطاء، «**الليل والنهار**» ظرف للعطاء يعني يعطي من يشاء من خلقه، فيرزقهم ويصح أبدانهم، وفيهم من يرزقه الإيمان والهدى ويكلؤهم بالليل والنهار، مع أن أكثرهم كفرة، ومع ذلك يعطيهم الصحة والرزق، وما يعيشون به ويتنعمون به في الدنيا وهم يتقوَّوْن بذلك بالعصيان له، وذلك لحلمه، ولكونه لا يفوته شيء ـ تعالى وتقدس ـ، فمرجعهم إليه، ثم الله ـ جل وعلا ـ يقول: ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ [المجادلة: ٨]؛ يعني: كافية في عذابهم.

أما الدنيا فهي تمر كأنْ لم تكن وتنتهي بسرعة، ولهذا ما جعلها الله ـ جل وعلا ـ محلاً لعذاب أعدائه، وإنما جعل عذابهم يوم القيامة حيث لا ينقطع ولا يُخفف، ولهذا يحدث من الكفرة الظلم الواضح والتعدي على عباد الله من القتل وانتهاك الأعراض وإفساد الديار الشيء الذي لا يُشك أنه من أعظم الفساد في الأرض، ومع ذلك يُتركون يعيشون مع الناس ويموتون مع الناس، وهذا لا يمكن أن يستمر، ولهذا: العقلاء من عباد الله استدلوا بهذا على أنه لا بد لهذا الخلق من معاد وحياة أخرى يُعادون ويجازَوْن بأعمالهم؛ لأنه لا يمكن أن يكون المفسد يعيش ثم يُترك بلا حساب، ولا بد أن يلقى جزاءه، أما أن يعيش ويموت كما يموت المصلح ولا يحدث له شيء بعد ذلك، فهذا مستحيل ممتنع في شرع الله وحكمه.

ولهذا يقول ـ جل وعلا ـ: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝١ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣﴾، هذه أقسام يُقْسِم بها ـ جل وعلا ـ، ثم بعد ذلك يقول: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ۝٤﴾؛ يعني: لُعنوا ﴿النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝٨ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٩﴾ [البروج].

أصحاب الأخدود هم الذين خدوا الأخدود وأضرموه نيراناً، ثم ألقوا المؤمنين فيه، وقد وضعوا كراسي يتفرجون على حريق المؤمنين، والمؤمنون ليس لهم ذنب إلا أنهم قالوا: «ربنا الله» ثم عاش هؤلاء مثل ما يعيش الناس وماتوا مع الناس، وما نزلت عليهم صواعق، ولا نزلت عليهم نيران، فهل

يُترك الأمر هكذا؟ كلا، لا بد أن تكون حسبهم النار، يُحرَقون فيها كما أحرقوا المؤمنين، ولكن حرقٌ ليس كهذا الحريق، هذا ينتهي بالموت، يصبح لا يحس بشيء، والموت كل حي سيذوقه، بخلاف الآخرة حياةٌ بلا موت وعذاب بلا انقطاع ، قال الله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾ [آل عمران].

والمقصود: أن نفقة الله ـ جل وعلا ـ على عباده التي أخبر بها الرسول ﷺ تشمل الطائع والعاصي، وأنها دائمة منذ خلق الله الخلق، وهي مستمرة.

ثم في الحديث إثبات اليدين لله، فيجب أن نؤمن بهما على ظاهرهما وأنهما كاملتان، وأن تأويل هذا النص يُعد من التحريف، فمن يقول: يد الله نعمته، أو قوته، أو قدرته، أو ما أشبه ذلك، فقد حرَّف كلام الله وكلام رسوله وألحد فيه، فهل يصح أن نقول: إن الله ليس له إلا نعمتان أو نعمة واحدة؟ فنفس التأويل يبطل هذا التأويل، ولهذا **قال**: «**لا تغيضها نفقة**» فلو قُصِد ما أوّلوه لما قال ذلك.

وقوله: «**سحاء**» يصح أن تكون «**سحاءٌ**» منونة، و«**الليل والنهار**» بالنصب، ظرف زمان، ويصح أن تكون «**سحاءُ**» غير منونة، فتكون مضافة إلى الليل، «**سحاءُ الليلِ والنهار**»، وعلى كلا الوجهين فـ«**سحاءُ**» بالرفع خبر آخر للمبتدأ «**يمين**»، ويجوز أن نقول: سحاءَ بالنصب على أنها حال، فأخبر أنها كثيرة العطاء، وأن عطاءه يكون بالليل والنهار.

وقوله: «**أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض**» السماوات والأرض هي أول المخلوقات التي نعرفها نحن ونشاهدها وأُخبرنا بها، وقبل ذلك لا نشك أن الله خلق خلقاً لا نعلمه، فإنه تعالى لم يزل يفعل ما يريد، لكن عقولنا قاصرة، وقد علمنا من كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ أن ربنا ـ جل وعلا ـ ليس له مبدأ، هو أولٌ بلا بداية، أما السماوات والأرض فلهما مبدأ، خُلقتا بعد أن كانتا عدماً، وهكذا غيرهما، فقبل خلق السماوات والأرض ربنا يخلق

ويرزق، ولكن هذا شيء لا ندركه ولا أُخبرنا به، فنَكِلُ علمه إلى ربنا.

إلا أنه يجب علينا أن نعتقد أن الله ما كان معطلاً عن الفعل ثم صار يفعل بعد أن لم يكن يفعل، وهذه المسألة التي يسمونها «مسألة التسلسل»، وقد ضل فيها كثيرٌ من الناس، وكثيرٌ منهم لم تستوعبها عقولهم، ولهذا أنكروها،وتصورُ العبد ضعيفٌ، وإلا فبالنظر إلى كمال الله ـ جل وعلا ـ ليس بصعب، بل هو سهل، والله هو الكامل في أفعاله وفي ذاته ـ تعالى وتقدس ـ، ولا يجوز لمسلم أن يعتقد أن الله ـ جل وعلا ـ قبل خلق السماوات وقبل خلق هذه المخلوقات كان لا يخلق أو لا يفعل، وهذا يُعبر عنه بالتعطيل، هذا نقص، بل يجب أن نقول: إن الله فعالٌ لما يريد دائماً وأبداً، فإذا أراد أن يفعل شيئاً فعله ـ تعالى وتقدس ـ، وإلا إذا نظرنا إلى العقل؛ ما الذي جعله يفعل بعد أن لم يكن يفعل؟ هذا لا يمكن عقلاً وفطرةً، فالمقصود: أن الرسول ﷺ قيد العطاء بالشيء الذي نعرفه.

قال: «أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض فإنه لم يَغِض»؛ يعني: لم ينقص **«ما في يمينه»**.

ثم قال: «والقسط بيده الأخرى» القسط هو العدل، **«بيده الأخرى» فهنا** جعل اليد اليمنى فيها العطاء، واليد الأخرى فيها الخفض والرفع وهو العدل، فتبين أن لله يدين حقيقيتين يجب الإيمان بهما على خلاف ما يعتقده أهل الباطل من الأشاعرة وأئمتهم من المعتزلة والجهمية وغيرهم من أهل الانحراف والضلال.

ودل الحديث على وجوب معرفة الله بصفاته وأفعاله، وأن الرسول ﷺ عرّف أمته بربهم بما أوحاه الله إليه من أسمائه وصفاته وما يشاهدونه من آثار ذلك.



﴿٤﴾ وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: رأى رسول الله ﷺ شاتين ينتطحان فقال: «**أتدري فيم تنتطحان يا أبا ذر**»؟ قلت لا، قال: «**لكن الله يدري وسيحكم بينهما**» رواه أحمد[1].

الشَّرْحُ

في هذا الحديث العبارة بالشيء الذي يُفهَم؛ يعني: أن الرسول ﷺ كان يعلمنا بما نفهمه وتدركه فهومنا، وهذا دليلٌ على أن النصوص يُقصد بها ظاهرها، ولا يجوز أن يكون النص يُقصد به أمرٌ باطن لا يعرفه ولا يدركه إلا الخاصة، ولهذا قال لأبي ذر: «**أتدري فيم تنتطحان**»، يعني: هاتين الشاتين، «**لكن الله يدري وسيحكم بينهما**»، الدراية هي العلم، ويجب أن تُفسر بهذا، والأمر في هذا واضح، فمعنى ذلك أن الله لا يخفى عليه شيء، وأنه سيحكم بين خلقه حتى بين البهائم؛ لأن بعضها قوي وبعضها ضعيف، وبعضها له سلاح وبعضها ليس لها سلاح، الشاتان إحداهما لها قرون والأخرى جلحاء لا قرون لها، فإذا انتطحتا غلبت صاحبة القرون الأخرى؛ لأن القرون تشبه السلاح، فهذا الغَلَب لا يبقى، ولا بد أن يُعدل بينهما في هذا، فكيف بحال العقلاء؟ كيف بحال المكلفين؟ إذا كان العدل يقع بين البهائم التي لم تُكلف ولا عقول لها، فمن باب أولى أن يُجزى العقلاء بأعمالهم، ويعاقبون على أفعالهم.

فالمقصود هنا ليس العلم فقط، وإنما المقصود بالحديث ثلاثة أمور:

الأول: إثبات علم الله المحيط بكل شيء.

الثاني: إثبات عدل الله ـ جل وعلا ـ بين خلقه، ولكنه قد يخفى على بعض الناس.

الثالث: إثبات المعاد والجزاء.

وهذه الأمور الثلاثة واضحة من هذا الحديث.

---

(١) «مسند أحمد» (٢١٤٣٨)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٤٨٠).

٥ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾ [النساء: ٥٨]، ويضع إبهامه على أذنه والتي تليها على عينه. رواه أبو داود، وابن حبان، وابن أبي حاتم(١).

الشرح

قوله: «يضع إبهامه على أذنه والتي تليها»؛ يعني: تلي الإبهام **«على عينه»** وهذا فعله ﷺ ليعلمنا أن هذا أمرٌ حق على ظاهره؛ يعني: تحقيق الصفة على أنها صفة حقيقية، ومثل هذا لا يقبله أهل الباطل أصلاً(٢)، وينفرون من سماعه، فماذا يصنعون؟ يردون الحديث!! هل هذا علاج؟ الواجب أن تُعالج قلوبهم وأفكارهم، وإلا فالنصوص يجب أن تُحترم وتُعظم، وكلام رسوله ﷺ حق ويدل على الحق، ولم يشك الصحابة رضي الله عنهم أن الرسول ﷺ أراد إثبات السمع والبصر لله تعالى على ما يظهر من النص.

أما القدح في السند؛ فغير مقبول؛ لأنه ثابت بنقل الثقات وأيده كلام الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾ [النساء]، فيه إثبات السمع لله - جل وعلا - على ظاهره، والبصر كذلك على ظاهره.

والسمع هو إدراك المسموعات، والبصر إدراك المرئيات. وقد أخبرنا النبي ﷺ عن ربه أن له عينين فقال: **«إن ربكم ليس بأعور»**(٣)، وقد جاءت النصوص تثبت ذلك، فالقرآن جاء بأفصح قول، وخاطب العرب بلغتهم، ففهموا ما خوطبوا به، ومن لغة العرب أن المثنى إذا أضيف إلى ياء المتكلم فإنه يكون مفرداً كما قال تعالى: ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾ [طه].

---

(١) «سنن أبي داود» (٤٧٣٠)، «صحيح ابن حبان» (٢٦٥)، «تفسير ابن أبي حاتم» (٥٥٦١)، وصحح إسناده الألباني في «سنن أبي داود» (٤٧٢٨).

(٢) قال أبو داود: «وهذا رد على الجهمية» «السنن» (٤/ ٣٧٣).

(٣) أخرجه البخاري (٦٧١٢)، ومسلم (٢٩٣٣)، من حديث أنس رضي الله عنه.

أما إذا أضيف إلى ضمير الجمع؛ فإن اللغة الفصحى أنه يُجمع «بأعيننا» ولهذا قال ـ جل وعلا ـ: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: ٤] والإنسان ليس له إلا قلب واحد، ومع ذلك جمعهما وهما مثنى.

فقوله ﷺ وفعله في هذا الحديث؛ ليبين لنا أن صفات ربنا ـ السمع والبصر ـ على ظاهرها، وليس في هذا تشبيه كما يتصوره من يتصوره؛ لأن المقصود تحقيق الصفة، وأنها على ظاهرها، وليس معنى ذلك أن سمع الله وبصر الله كسمع المخلوق ـ تعالى الله وتقدس ـ، ولهذا يقول ـ جل وعلا ـ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]؛ يعني: لا يحملكم كونكم تتصفون بالسمع والبصر على أن تعتقدوا أن سمع الله ـ جل وعلا ـ كأسماعكم وأبصاركم، فإن الله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ لا في ذاته، ولا في أوصافه.

وهذه قاعدة يجب أن تُبنى عليها كل النصوص، فالله ليس له مثيل ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: ٢٢]، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص]، وهذه عقيدة أهل الحق الذين تلقوا العقائد من الوحي، ومثل ذلك قوله ﷺ: «**إنكم سترون ربكم، كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته**»[1]، هذا تحقيق للرؤية بالوضوح والجلاء، وليس فيه تشبيه.



(١) أخرجه البخاري (٥٢٩)، ومسلم (٦٣٣)، من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه.

﴿٦﴾ وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله: لا يعلم ما في غد إلا الله، ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم متى يأتي المطر أحد إلا الله، ولا تدري نفس بأي أرض تموت إلا الله، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله ـ تبارك وتعالى ـ**»[1].

الشرح

قوله: «**مفاتيح الغيب خمسٌ**» كأن الغيب له خزائن، وهذه الخزائن لها أبواب مغلقة، ومعلوم أن الخزينة إذا أُغلقت؛ فإنه لا يُعلم ما في داخلها حتى تُفتح وتُشاهد، فهذا تمثيل لنا وتقريب لذلك.

قوله: «**مفاتيح**» وتأتي «**مفاتح**»، وهي خمس:

الأول: ما يأتي بعد يومك هذا، بل بعد ساعتك، ما تدري ماذا سيحدث لك، والله يعلم كل شيء، في المستقبل والماضي، فلا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، قال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام].

الثاني: علم ما في الأرحام؛ يعني: المخلوقات التي تلد، سواء من العقلاء أو غيرهم، فلا يعلمها إلا الله، وهذا عبارة عن النفوس والمخلوقات، والناتج الذي ينتج عن ذلك، فعلم ذلك كله إلى الله، ولا يُعترض بوجود الآلات الحديثة وكونهم يعرفون ما في بطن المرأة وما أشبه ذلك؛ فهذه معرفة محدودة ولا تنقض ما أخبر الله تعالى به أنه لا يعلم ما في الأرحام إلا هو؛ لأنه لا يدري عن هذا الذي في الرحم هل هو مؤمن أو كافر؟ مستقيم أو لا؟ يعيش أو لا يعيش؟ أو إن كان خلقه كاملاً أو غير كامل؟ أو غير ذلك،

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٢٠).

فالمعرفة إنما تكون لمبدأ الشيء، فلا ينقض هذا قول الرسول ﷺ.

ومن ذلك ما نسمع في أخبار الإذاعة وغيرها، فهم يخبرون عن الطقس، وهذه أمور متوقعة مبنية على أجهزة مرصودة، ولهذا تخطئ كثيراً فيختلف عن الواقع، وهذا لا ينتقض بأن ما في الغد لا يعلمه إلا الله.

الثالث: «**ولا يعلم متى يأتي المطر إلا الله**» هذه الأمور ذكرت؛ لأن لها مقدمات ولها أسباب تشاهد، ومع هذا فالنتائج لا يعلمها إلا الله، فالحمل معروف إذا وقع عرف، ولكن نتائجه لا يعلمها إلا الله، والمطر له مقدمات: سحاب ورياح، ومع ذلك لا يدري هل يحدث أو لا يحدث؟ فأمره عند الله.

الرابع: «**ولا تدري نفسٌ بأي أرض تموت**» مع أن الغالب المعروف عند الناس أن الإنسان يموت في بلده الذي عاش فيه، ومع هذا لا يقطع أحد بأنه سيموت في بلده؛ لأن الموت يأتي فجأة، ويأتي له أسباب، وقد تكون هناك أسباب تدعو الإنسان إلى أن يذهب إلى مكان يموت فيه، وهذا أمرٌ مشاهد، والآن كثر مثل هذا، يخرج الإنسان من بيته صحيحاً سليماً ثم يأتي خبره بأنه مات في مكان كذا وكذا، وهذا مثال فقط وإلا فالأمر واضح في هذا.

الخامس: «**ولا يعلم متى تقوم الساعة أحد إلا الله**» وهذا عبارة عن أمور الآخرة، والمقصود بالساعة النفخ في الصور الذي هو نهاية الدنيا، مع أن لها علاماتٍ قد ذكرها الرسول ﷺ، ولكن مع هذه العلامات وقت مجيئها قد أخبرنا ربنا أنها لا تجيء إلا بغتة[1]، تبغت الناس، ثم هذا يدلنا على أن الغيب ـ كما قال العلماء ـ ينقسم إلى قسمين:

الأول: **غيبٌ مطلق**، وهذا لا يعلمه أحد إلا رب العالمين، وهو سبحانه عالِم الغيب، كما أنه عالم الشهادة؛ أي: المشاهد، هذا من صفاته ـ تعالى وتقدس ـ.

الثاني: **غيبٌ نسبي**؛ يعني: أنه يكون غيبٌ لمن غاب عنه، ومن شاهده

---

(١) كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً﴾ [الأنعام: ٣١]، ﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةًۖ فَقَدۡ جَآءَ أَشۡرَاطُهَا﴾ [محمد: ١٨]، وغيرها من الآيات.

لا يكون غيباً عنده، هذا الذي فيه كلام الناس الكثير.

ثم هذا يدلنا على أن المنجمين والحادسين والمنجمين الكاذبين على الله ـ جل وعلا ـ وعلى خلقه في ضلال عميق، فالذين يزعمون أنهم يعرفون مستقبل الإنسان بالنظر إلى طالعه أو بالنظر إلى الخطوط التي في كفه وما أشبه ذلك؛ ويسمونه قراءة الكف، والعجب أنهم يقولون: إن قراءة فنجان القهوة ممكن أن تطلعه على الغيب ويعرف المستقبل، وكل هذا كذبٌ على رب العالمين، وتدجيل على الناس، وتحايل على أكل أموالهم بالباطل، والواجب أن يُكذبوا ولا يُصدقوا في شيء من ذلك.

فمقصود الحديث: بيان أن الغيب من خصائص الله، وأن مدّعيه كاذب، وأنه يجب أن يُكذَّب، أما المقدمات والأشياء التي جعلها الله سُنَّة؛ فهذه ليست دليلاً على معرفة ما وراءها.



﴿٧﴾ وعن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«للهُ أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة، فانفلتت منه، وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها، وقد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك؛ إذ هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها، فقال من شدة الفرح: اللَّهُمَّ أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح»** أخرجاه[1].

الشَّرْح

هذا الحديث فيه إثبات الفرح لله ـ جل وعلا ـ، وهو صفة من صفاته، والفرح معلوم لنا في أنفسنا، ولكن صفة الله لا يجوز أن نتصورها كما نتصور ما في أنفسنا، فالقاعده هنا التي قررها أهل السُّنَّة بناءً على النصوص أن الله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] لا في ذاته ولا في أوصافه، أما كوننا نعرف مثلاً اليد والغضب والرضا والفرح وما أشبه ذلك؛ فهذا الذي نعرفه شيء محدود، ولو لم يكن عندنا هذه المعرفة؛ لما فهمنا ولما خوطبنا به، وإنما خوطبنا بالشيء الذي نعرفه، مع بيان أن الله ـ جل وعلا ـ له خصائص لا يشابَه فيها، ولكن هذا واسطة للمعرفة، فالفرح معلوم لنا، فالإنسان يفرح بالشيء الذي يسره وينعمه؛ يعني: يكسب لك النعيم والسعاده فهذا تفرح به، فهو أحياناً يأتي فجأة، وأحياناً يأتي مبنياً على أمور تحصل أو لا تحصل.

ويقابل الفرح الحزن والأسف، وهذا منفيٌّ عن الله ـ جل وعلا ـ، وإلا لو كان فرح الله مثل فرحنا لصار أيضاً له مقابل كالذي يكون لنا، تعالى الله وتقدس عن ذلك، ففرح الله ـ جل وعلا ـ يجب أن نعتقد كماله لله كما نعتقد في السمع والبصر والعلم والقدرة وغير ذلك.

وهذا أيضاً يدلنا على رحمة الله ـ جل وعلا ـ، وعلى إحسانه إلى خلقه،

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٤٧)، ولم أجده مخرجاً في «صحيح البخاري».

وإلا فهو الغني بذاته عن خلقه كلِّهم، فلو أطاعوه طاعةً كاملة منذ ولدوا إلى أن يموتوا ولم يعصوه طرفة عين؛ لما زاد ذلك في ملك الله شيئاً، ولو كانوا بالعكس عصاةً فجرةً كفرةً كلهم على أفجر قلب رجل واحد منذ خُلقوا إلى أن يفنوا؛ لما ضر الله ذلك شيئاً.

وإنما خلق خلقه ليبتليهم ويتبين من يستحق الكرامة فيكرمه، ومن يستحق الإهانة والعذاب فيهينه ويعذبه، وإن كان يعلم ذلك قبل وجودهم، ولكنه - جل وعلا - رتب جزاءه على الأفعال التي تقع منهم فعلاً، وهذا سيأتي إن شاء الله، ويأتي ذكر مشكلة بعض أهل البدع، وأن الإشكال فيه من أجل القواعد التي لم تُبن على علم، وأن هذه الإشكالات تدل على قصور العلم، أما لو علموا لزالت هذه الإشكالات نهائياً؛ لأن أمرها بالنسبة لله - جل وعلا - لا إشكال فيها، وإنما الإشكال في العقول فقط؛ لقصور فيها عن معرفة الحق.

ففرح الله - جل وعلا - يدل على إحسانه وكرمه - تعالى وتقدس -، ففيه رحمته التي يرحم بها خلقه، وهذا غاية ما يمكن أن نتصوره من الفرح، لكون الإنسان فقد أسباب حياته، وإذا فُقدت الأسباب فُقدتِ الحياة، فمثلاً إذا فقدت ما يوصلك إلى بلدك وأنت في صحراء واسعه مترامية الأطراف، لا ماء فيها ولا طعام، ولا ما يحمل الإنسان إلى ما يوصله إلى ما فيه حياته، فهذا من أسباب الموت الظاهرة، فهذا الرجل فقد راحلته التي عليها طعامه وشرابه وما يتمتع به، فطلبها لعله يجدها فأيس منها، فأيقن بالموت وجاء تحت الشجرة، وقال: أموت تحت هذه الشجرة، فبينما هو كذلك إذا بالراحلة فوق رأسه، فالفرح في مثل هذا أشد ما يمكن أن يتصور، ولهذا أخطأ بالكلام من شده الفرح **فقال: «اللَّهُمَّ أنت عبدي وأنا ربك»**.

يقول: «لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه» من هذا الفاقد لحياته فوجدها بعد الإياس منها.

والمقصود هنا: إثبات فرح الله - جل وعلا -، وفرحه من باب الكمال والإكرام والإحسان، وليس من باب الحاجة إلى الخلق - تعالى الله وتقدس -، أما نحن ففرحنا من باب الحاجة، فالأمر الذي نحتاج إليه ونتنعم به نفرح به،

أما فرح ربنا ـ جل وعلا ـ فهو من باب الكرم والجود والإحسان، وهو ـ جل وعلا ـ كامل من جميع الوجوه، لا يلحقه أي نقص.

وهذا لا يثبته أهل البدع من الأشاعرة وغيرهم، ومن أثبته سموه مشبهاً، فهم ينكرون هذه الصفة أشد الإنكار، وسوف يعلمون الحق مع مَنْ عندما يبعثر ما في القبور، ويحصل ما في الصدور.



٨ وعن أبي موسى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«إن الله يبسطُ يدَه بالليل ليتوب مُسيءُ النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها»** رواه مسلم[1].



هذا فيه الإيضاح بأن اليد حقيقية، وأن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، ومعنى البسط: أن الله يطلب ذلك منا، وأنها إذا وقعت التوبة من العبد فإن الله يقبلها ـ جل وعلا ـ.

والتوبة هي الرجوع إلى الله، فالبسط يقابله القبض الذي مضى ذكره.

فإذاً اليد موصوفة بالقبض والبسط، كما أنها موصوفة بالأخذ والفعل، وموصوفة أيضاً بقبول الشيء وتربيته كما يأتي، وكل هذا يريد المؤلف أن يبين أن هذا أمرٌ على ظاهره، ويجب أن نعتقده كما أخبرنا رسول الله ﷺ.

❁ ❁ ❁

(١) «صحيح مسلم» (٢٧٥٩).

﴿٩﴾ ولهما[1] عن عمر رضي الله عنه قال: قدم على رسول الله ﷺ بسبي هوازن فإذا امرأة من السبي تسعى، إذ وجدت صبياً في السبي، فأخذته فألزقته ببطنها فأرضعته، فقال النبي ﷺ: **«أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار»**؟ قلنا: لا والله. فقال: **«الله أرحم بعباده من هذه بولدها»**.

الشَّرْح

هذا الحديث فيه إثبات رحمة الله - جل وعلا -، وفيه التمثيل بالشيء الذي نعرفه ونُحِسّ به؛ لأن هذا يدلنا على أن خطاب الرسول ﷺ على ظاهره، ويجب أن يُقبل كما خاطب عباد الله به، وقد قبله الصحابة كما خاطبهم الرسول ﷺ، ولو أن إنساناً أعطي مقدرةً على الاطلاع على الكتب التي فيها أحاديث الرسول ﷺ وأخباره، وبحث أشد البحث، ولم يترك شيئاً مما يُروى عن الرسول حتى الأحاديث الضعيفة؛ فإنه لا يستطيع أن يجد نصاً بتوقف الصحابة في هذا، وقالوا: كيف يفرح؟ كيف يرحم؟ كيف يغضب؟ كيف كذا وكذا؟ وهذا يدلنا على أنهم قبلوا ذلك على ظاهره، إذ لو كان عندهم شك أو تردد؛ لسألوا، فقد سألوا كما أخبرنا ربنا - جل وعلا - عن أشياء لا تصل إلى هذا، ولا إلى معشار ذلك، سألوا عن المحيض، سألوا عن الأهلة، سألوا عن اليتامى، سألوا عن النفقة، سألوا عن أشياء ذكرها الله - جل وعلا -، ولم يأتِ أنهم سألوا كيف استوى؟ كيف ينزل؟ كيف يسمع؟ كيف يفرح؟ لم يأت ولا حرف واحد من هذا، بل جاء خلاف ذلك، جاء في «السنن» أن الرسول ﷺ قال: **«ضحك ربنا من قنوط عباده وقرب غيره»** فقام رجل من الأعراب وقال: يا رسول الله أوَيضحك ربنا؟ قال: **«نعم»**، قال: لن نعدم من رب يضحك خيراً[2]؛ يعني: أنه استدل بالضحك على الرضا وأنه يعطينا، فأقره الرسول ﷺ على ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٩٩) ومسلم (٢٧٥٤).

(٢) أخرجه ابن ماجه (١٨١)، من حديث أبي رزين، وحسنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٨١٠).

فالذين ينكرون مثل هذه الصفات، ويعتمدون على عقولهم القاصرة، وعلى مذهبهم الذي تلقوه عن أئمتهم، وانحرفوا في هذا الباب؛ ثم هم يحاولون في النصوص إما رداً أو تأويلاً باطلاً، وإن كان كثيرٌ منهم - لا سيما الأشاعرة - يقول: الواجب في مثل هذا أنك إما تُؤوّل أو تفوض! عجباً لهم!! فحال النصوص عندهم إما الرد أو الإعراض، وعدم الفهم؛ لأن التفويض معناه: أن تعمي قلبك وفكرك عن هذا النص، فلا تفكر فيه، فالله تعالى لم يخاطبنا بشيء لا نفهمه.

أما التأويل فمعناه أن التكلم في هذا الحديث باطل في ظاهره، ويجب أن يكون على خلاف ذلك، فالأمران شرٌّ، فعلى كل حال؛ رسولنا ﷺ رسول الهدى، قد جاء بالهدى، فيجب أن نتلقى الهدى من كلامه وقوله وإرشاداته، وقد أخبرنا عن ربنا أنه يُحبّ، وهذا جاء كثيراً في كتاب الله، مع أن هذا هو أصل الإيمان، فالإيمان هو التّأله، والتأله هو الحب الخاص الذي يكون لله - جل وعلا -، فحب الله من العباد هو ذلهم وخضوعهم واستكانتهم لربهم وانقيادهم له، خاضعين ذالين محبين له الحب الخاص به، والإشراك فيه شرك أكبر، أما بالنسبة لربنا - جل وعلا -؛ فله الكمال من كل وجه، كمالٌ في ذاته، وكمال في صفاته وأفعاله.

ثم لو قلنا من باب الجدل: إن هناك رجلين، أحدهما: يحب ويفرح، والآخر: لا يحب ولا يفرح، فالأكمل الأول الذي يحب ويفرح، فهل يمكن أن يكون للمخلوق كمالٌ يفقده الرب - جل وعلا -؟! مع أننا لا نحتاج لمثل هذا؛ لأننا مؤمنون بما قاله ربنا - جل وعلا -، وبما قاله الرسول ﷺ، وأن هذا خاصٌّ بالله - جل وعلا - ففرح الله وضحكه ومحبته أمور خاصة به، والشيء الذي يقابل هذه الأوصاف من المخلوق خاص بالمخلوق، فالمحبة إذا جاءت مضافة للمخلوق فهي خاصة به، والله لا يشاركه فيها، وإذا أُضيفت إلى ربنا فإنها تكون خاصة به، والمخلوق لا يشاركه فيها، وإذا كان هذا فلا إشكال في ذلك.

وأما تفسير الرحمة بالميل أو الرقة ونحو ذلك؛ فهذا من تشبيه رحمة الله برحمة المخلوق، وهو ضلال مبين.

﴿١٠﴾ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لما خلق الله الخلق كتب في كتاب، فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي غلبت غضبي**» رواه البخاري[(١)].

الشرح

في هذا الحديث أن الله يكتب، وهذا يجب أن يكون على ظاهره، وقد جاءت النصوص بأن الله باشر أشياء بيده: فخلق آدم بيده مباشرةً، وغرس جنة عدن بيده، وكتب التوراة لموسى بيده، وفي هذا الحديث **قال**: «**كتب**»، وإذا جاء في غير هذه النصوص مضافاً إلى الله ـ جل وعلا ـ؛ فإنه يجب علينا أن نثبته.

قال: «**لما خلق الله الخلق كتب في كتاب، فهو عنده فوق العرش**»، وفي رواية البخاري: «**وهو وَضْعٌ عنده على العرش**»[(٢)].

قوله: «**إن رحمتي غلبت غضبي**»، وفي رواية «**سبقت غضبي**»[(٣)]، فهذا فيه إثبات الكتابة لله ـ جل وعلا ـ، وإثبات العلم. ثم الكتابة ليست كالكتابة التي تحدث لنا خشية النسيان، أو خشية أن يفوت شيء، فالله لا ينسى ولا يفوته شيء، وإنما الكتابة لحكمة أرادها الله ـ جل وعلا ـ، وهو أيضاً كتبها على نفسه، أخبرنا أن هذه الكتابة ستطبق على خلقه.

وكلمة «**عنده**» تدل على المكان، وهذا لا يثبته أهل الباطل، ينفرون منه، ويقولون: إن الله لا مكان له، ويقولون: كان الله ولا مكان، وهو الآن على ما كان عليه قبل خلق المكان!!

وكان الجويني إمام هؤلاء، ويلقب بـ «إمام الحرمين»؛ لأنه جاور في مكة، وجاور في المدينة، وكان يوضع له كرسي في مسجد الرسول ﷺ يتكلم في الباطل، وفي تقرير العقائد الباطلة، فجاء إلى هذه المسألة فقال: «كان الله

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٧٤)، ومسلم (٢٧٥١).
(٢) أخرجها البخاري (٦٩٦٩).
(٣) أخرجها البخاري (٧٠١٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ولا مكان، وهو الآن على ما كان عليه قبل خلق المكان»، وكان عنده رجل من أهل السُّنَّة، فقال: دعني من هذا، ولكن أخبرني عن شيء أجده في نفسي، وتجده أنت، وكل من قال: «يا الله» يجد دافعاً يدفعه أنه يطلب ربه من فوق، ولا يلتفت يميناً ولا شمالاً، فكيف أدفع هذه الضرورة حتى أصدق كلامك؟! فوضع يده على رأسه، وصار يبكي، فقال: «حيرني الرجل»[(١)]. عجباً! يتعلم ويعلّم ستين سنة، ثم يتحير من كلمة! وهذا يدل على أن الأساس فاسد.

فالمقصود: أن كلمة «**عنده**» تدل على المكان، والله ـ جل وعلا ـ فوق العرش، وهو عالٍ على خلقه، وليس معنا في نفوسنا، ولا في الأرض، ولا في الأماكن التي لا يكرمون الله عنها ـ تعالى الله وتقدس ـ، ويجعلونه في أجوافهم وفي المراحيض وفي كل مكان والعياذ بالله!

وقول الجويني: «كان الله» إما في كل مكان، أو لا وجود له، أو في الخيال فقط، **فالمقصود:** أن هذا باطل، والعجب أن هذا الرجل حدثت له حادثه يتعجب العاقل منها، ولكن العاقل يجب أنه يخضع لله، ويعلم أن القلوب بيد الله يصرفها كيف يشاء، فيهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وهؤلاء لهم عقول وأفهام ربما أكبر من عقولنا وأفهامنا، وأفهامهم أتم من أفهامنا، ولكن ما هُدوا إلى السبيل، فالهداية تطلب من الله.

قصة عجيبة وقعت له، وهي أنه أضافه في بلده أحد أصدقائه المقربين، فأراد أن يكرمه، فما وجد مالاً، فبينما هو في الدرس عُرضت هذه المسألة فقال: عندي فيها نص يبين الحق، ولكن لا أخبركم به حتى تأتوني بجائزة أعطيها صديقي هذا، ففرح تلامذته وأتوا له بما يريد، فقال: إن الرسول ﷺ يقول: «**لا تفضلوني على يونس بن متى**». ولفظ الحديث: «**من قال: أنا أفضل من يونس بن متى؛ فقد كذب**»[(٢)]. فقال: يونس بن متى التقمه الحوت فكان

---

(١) انظر: «سير أعلام النبلاء» للذهبي (١٨/ ٤٧٤، ٤٧٧)، «طبقات الشافعية» للسبكي (٥/ ١٩٠). قال الألباني: «وإسناد هذه القصة صحيح مسلسل بالحفاظ». انظر: «مختصر العلو» ص٢٧٧.

في قعر البحر في ظلمات: ظلمة الليل، وظلمة البحر، وظلمة بطن الحوت، ومحمد ﷺ كان عند سدرة المنتهى، فقال: «**لا تفضلوني**»؛ لأن كلاهما بالنسبة إلى الله في القرب سواء، فهذا يدل على أن الذي في أسفل مثل الذي في أعلى بالنسبة إلى الله.

هذا وجه الاستدلال، وهذا استدلال عجيب، فكيف تُترك هذه النصوص الواضحة؛ كقول الله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك: ١٦]، وقول الله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه]، ونحو ذلك كثير، ثم تأخذ الشيء الخفي الذي يحتاج إلى كد الذهن مع أن الذي بُني عليه باطل.

فالمقصود: أن قوله: «**عنده**» يدل على علو الله تعالى، ولهذا **قال:** «**فوق العرش**» فالله ـ جل وعلا ـ مستوٍ على عرشه، ففيه إثبات علوه على خلقه ـ جل وعلا ـ، وهؤلاء يقولون: «لا يجوز هذا»، مع أنه هو الذي أخبرنا أنه على عرشه مستوٍ عليه ـ تعالى وتقدس ـ.

قوله: «**إن رحمتي غلبت غضبي**» الرحمة صفة من صفات الله ـ جل وعلا ـ، وكذلك الغضب صفة له، ولكن الغضب يتعلق بالمشيئة، والرحمة تتعلق بالذات، والغضب فعل، والرحمة صفة، وكلاهما يطلق عليه «صفة». وهذا من خصائص الله التي لا يشاركه فيها المخلوق.

والمقصود بذلك إثبات الرحمة وإثبات الغضب لله تعالى، وإثبات العرش، والعرش مخلوق، والله ـ جل وعلا ـ خلَقَه، وجعله سقف المخلوقات كلها واستوى عليه، والاستواء هو الاستقرار والعلو على الشيء من غير حاجة الله ـ جل وعلا ـ له.

والعرش في اللغة هو الكرسي الذي يجلس عليه الملك، كما قال تعالى في قصة الهدهد: ﴿وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ﴾ [النمل: ٢٣]؛ يعني: كرسي تجلس عليه، وهذا معروف في لغة العرب.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٣٢٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿١١﴾ ولهما عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**جعل الله الرحمة مئة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءً، وأنزل في الأرض جزءً واحداً، فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه**»(١).

﴿١٢﴾ ولمسلم معناه من حديث سلمان، وفيه: «**كل رحمة طِباقُ ما بين السماء والأرض، فإذا كان يوم القيامة كملها بهذه الرحمة**»(٢).

الشَّرْحُ

هذا الحديث يدلنا على أن الرحمة تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: رحمة مخلوقة، وهي التي يتراحم بها الناس، وتكون صفة لهم، بل يتراحم بها الخلق كلهم.

القسم الثاني: رحمة غير مخلوقة، وهي صفة من صفات الله ـ جل وعلا ـ.

ولهذا **قال**: «**جعل الله الرحمة**»؛ يعني: خلق الرحمة، فهذه الرحمة المخلوقة التي خلقها الله تبارك وتعالى.

وقد قال الله ـ جل وعلا ـ: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [آل عمران]، فسمى الجنة رحمة؛ يعني: أثر الشيء يُطلق على الشيء المذكور فيه. فالجنة أثر رحمة الله ـ جل وعلا ـ، وكذلك الرحمة الموجوده في الخلق أثر رحمة الله.

فإثبات الرحمة لله من باب اللازم، فإذا أوجد هذا الشيء في خلقه فله الرحمة، فإذا كان يوم القيامة أضافها إلى المئة؛ رحم بها الناس؛ يعني: أنه ـ جل وعلا ـ تتضاعف رحمته يوم القيامة فيَرحم بها الناس.

وهذا من أحاديث الرجاء التي لا يجوز الاغترار بها وترك العمل ؛ لأن

(١) أخرجه البخاري (٥٦٥٤)، ومسلم (٢٧٥٢).

(٢) جزء من حديث أخرجه مسلم (٢٧٥٣).

الشيطان قد يغرُّ الإنسان، ويقول له: «رحمة الله واسعة، وقد وسعت كل شيء»، فلا مانع من إقدامه على المعاصي وترك الواجبات، فالإنسان يجب أن يكون واثقاً برحمة الله، ولكن لا يجوز أن يتجرأ على ترك الواجب أو يتجرأ على فعل المحرم، فإن هذا قد يكون سبباً لهلاكه، فالله رحمته واسعة، ولكنه إذا غضب وسخط أخذ، وأخذه أليم شديد.

ولهذا لما عصى أبونا آدم معصية واحدة؛ أخرجه الله من الجنة وأنزله، مع أنه من أكرم الخلق على الله، فقد خلقه بيده، وأسكنه جنته، وأسجد له ملائكته، ولكن بسبب معصية واحدة وقع له هذا.

فيجب على الإنسان أن يكون دائماً على حذر من الشيطان لئلا يغره، ثم كذلك لا يجوز له أن ييأس ويغلق الباب أمامه، ويقول: «أنا كثير الذنوب!! أتوب ثم أعود!! وأعاهد ثم أغدر!! فلا فائدة!!» بل يجب أن يكون تائباً دائماً، ولو وقع منه الذنب في اليوم عدة مرات؛ فإنه يتوب ويستغفر، ويسأل ربّه الثبات على التوبة، فإن عاد عاد إلى التوبة، وهكذا إلى أن يموت، فرحمة الله واسعة.

فالمقصود من الحديث أن الرحمة تنقسم إلى قسمين:

الأول: رحمة مضافة إلى الله، وهي صفة من صفاته ﷻ.

الثاني: رحمة من آثار رحمة الله وهي مخلوقة، وهي التي جُزِّئتْ هذه الأجزاء، وذُكر أنها وُضِعَتْ بين الخلق، فبهذه الرحمة «**ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه**»؛ يعني: ترفع رجلها ويدها، وتعطف عليه بهذه الرحمة التي جعلها الله ـ جل وعلا ـ في المخلوقات، وهي من آثار رحمة الله.

وسيأتي أن النار من آثار غضبه، والجنة من آثار رحمته، ولهذا قال للنار: «**أنتِ عذابي أعذب بك من أشاء**». وقال للجنة: «**أنتِ رحمتي أرحم بك من أشاء**»[1]. ومعلوم أن الجنة والنار مخلوقتان، وليستا صفةً لله ﷻ، وهذا مثله.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٥٦٩)، ومسلم (٢٨٤٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

١٣ وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الكافر إذا عمل حسنة أُطعم بها طعمة في الدنيا، وأما المؤمن؛ فإن الله يدخر له حسناته في الآخرة، ويُعْقِبه رزقاً في الدنيا على طاعته»** رواه مسلم[١].

الشرح

المقصود بهذا الحديث: إثبات الجزاء في الدنيا والآخرة، وأن الله يجازي عباده، وأنه رقيبٌ عليهم، وأنه عالم بكل شيء.

وفيه تقسيم الناس إلى مؤمن وكافر، وفيه أن الله حَكَمٌ عدلٌ، فإذا عمل الكافر عملاً فيه إحسان إلى الخلق أو فيه خير، فإنه يُعطى جزاءه في الدنيا، وهذا بمشيئة الله؛ لأن الآخرة لا تنفع ولا يستفيد منها إلا المؤمن فقط، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾ [النساء]، فقوله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ جملة حالية؛ أي في حال عمله يكون مؤمناً، أما في غير ذلك فلا يجدي شيئاً. فالكافر يُطعم بحسناته التي يعملها ويبتغي بها وجه الله في الدنيا، كأن يُعطى ولداً أو رزقاً أو عافيةً وصحةً، فيجزى بذلك، وهذا من عدل الله وفضله ـ جل وعلا ـ، وهو يتعلق بمشيئته، فإذا شاء فعل ذلك، وإذا لم يشَأ لم يفعل ذلك.

أما المؤمن فحالته كلها خير بشرط أن يكون مؤمناً متبعاً لأمر الله ـ جل وعلا ـ، فهو على خير دائماً، إن أصابته سراء فشكر كان خيراً له وجُزيَ على ذلك، وإن أصابته ضراء فصبر كان خيراً له، وما يُدَّخر له في الآخرة أفضل.



(١) «صحيح مسلم» (٢٨٠٨).

﴿١٤﴾ وله عنه مرفوعاً: «**إن الله لَيرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، ويشربَ الشَّرْبَة فيحمَدَه عليها**»[١].



هذا فيه إثبات الرضى لله ـ جل وعلا ـ، وقد كثرت النصوص فيه، والرضى يقابله الغضب والسخط، وكلاهما يثبت لله ـ جل وعلا ـ، وكلاهما يدل على الكمال، ولا يجوز تأويله ولا رده، بل يجب أن نؤمن به كما أخبرنا ربنا وأخبرنا رسولنا ﷺ بذلك.

❁ ❁ ❁

(١) أخرجه مسلم (٢٧٣٤).

﴿١٥﴾ وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أطَّتِ السماء، وحُقّ لها أن تَئِطَّ، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وفيه ملك ساجد لله تعالى، ولو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً، ولَبَكَيْتم كثيراً، وما تلذذتم بالنساء على الفرش، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله تعالى**» رواه الترمذي، وقال: حديث حسن[1].

الشَّرْح

قوله: «**أطت السماء**» المقصود بذلك أن يبين كثرةَ الملائكة الذين يتعبدون له، ويبيّن إحاطةَ علم الله بكل شيء، ويبين خلقه لكل شيء ـ تعالى وتقدس ـ، وأنه ـ جل وعلا ـ أعدَّ لعباده جزاءهم الذي لو يطلعون عليه ويعلمون شيئاً مثل ما علمه الرسول ﷺ لفسدتْ حياتهم، ولما فرحوا ولا تلذذوا، ولصاروا يبكون دائماً، ولكن مِنْ رحمة الله ـ جل وعلا ـ أن جعل لهم الآمال، وأخفى عنهم الشيء الذي يكدر حياتهم، ويكدر صفو عيشهم.

ووصف الملائكة بذلك؛ لأنهم يعلمون ما لا نعلم، ويطلعون على ما لا نطلع.

وقوله: «**أطّت**» الأطيط: هو صوت الرحل من الحِمْل الثقيل، وهو في الإبل التي تحمل، وفي السابق لا توجد حمولة أكبر من الإبل، فيوضع عليها الرحل، وهو في الغالب يُتخذ من الخشب، حتى لا تتأثر ظهورها بما يُحمل عليها، ويُتخذ على طريقة خاصة، وتعتمد على جنبي البعير ولا تكون على ظهره؛ لئلا تثقله، ولئلا يحدث في ظهره الاحتكاك فيفسد، فالرحل يوضع على هذا، ثم إذا وضع عليه الحمل صار له صريرٌ مِنْ ثِقَل الحمل، والصرير هو الأطيط، **فقوله**: «**أطت السماء**»؛ يعني: أنها أُثْقِلَتْ وصار لها صوت من ثقل الحمل الذي عليها، وهذا لكثرة الملائكة.

---

(١) «جامع الترمذي» (٢٣١٢)، وحسنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٧٢٢).

ولهذا قال: «**ما فيها موضع أربع أصابع إلا وفيه ملك ساجد لله تعالى**» معنى ذلك: أن الملائكة كثيرون، فيجب أن نؤمن بهم، ولهذا جُعل الإيمان بالملائكة من أصول الإيمان، والإيمان بهم يكون على ضوء الخبر الذي جاءنا من ربنا ـ جل وعلا ـ ومن رسولنا ﷺ.

فهو يقول لنا: إن من الإيمان بالله الإيمانُ بجزائه، والإيمان بالجنة والنار، والإيمان بصفاته وأسمائه، والإيمان بالملائكة وأنهم كثيرون، وكذلك يخبرنا بالشيء الذي يجب أن نمتثله ونعمل به، وهو أن الله ـ جل وعلا ـ عذابه شديد وأليم، ويجب أن نحذره، ولهذا قال: «**لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً**» وتتكدر حياتكم، ولا تتلذذون بأكل ولا بشهوة مع نسائكم.

فمن رحمة الله ـ جل وعلا ـ أنه أخفى عنا ما أخفاه، ولكننا نعلمه بالجملة، أما الحقائق فسوف تُشاهد يومَ القيامة، وإذا شوهدت فإن الناس يخضعون ويذلون ويستكينون لله، ويقولون: ربنا ارجعنا نعمل صالحاً، ولكن لا يمكن.



﴿١٦﴾ ولمسلم عن جندب مرفوعاً: «**قال رجل: والله لا يغفر الله لفلان فقال الله ﷻ: من ذا الذي يتألى عليّ أن لا أغفر لفلان؟! إني قد غفرتُ له، وأحبطتُ عملك**»[1].

الشَّرْحُ

يجب أن يكون المؤمن على حذر من أن يحكم على الله في شيء، بل يجب أن يكون متبعاً لأمر الله ولدينه، ويكون خاضعاً خائفاً من الله ـ جل وعلا ـ. أما أن يحكم على الله أنه يعمل هذا الشيء ويفعله، فهذا يُسمى «التَأَلِّي على الله»، والتألي يُطلق على الحلف. ولهذا قال: «**والله لا يغفر الله لفلان**».

وجاء في «السنن»[2]: «**كان رجلان في بني إسرائيل متواخيَيْن، فكان أحدهما يذنب، والآخر مجتهد في العبادة، فكان لا يزال المجتهد يرى الآخر على الذنب، فيقول: أَقْصِرْ. فوجده يوماً على ذنب، فقال له: أقصر. فقال: خلني وربي، أبُعِثْتَ عليَّ رقيباً؟ فقال: والله لا يغفر الله لك، أو لا يدخلك الله الجنة. فقبض أرواحهما، فاجتمعا عند رب العالمين، فقال لهذا المجتهد: أكنت بي عالماً؟ أو كنت على ما في يدي قادراً؟ وقال للمذنب: اذهب، فادخل الجنة برحمتي. وقال للآخر: اذهبوا به إلى النار**». قال أبو هريرة: والذي نفسي بيده تكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته.

وهذا يدلنا على وجوب التحفظ، فالإنسان يجب أن يحفظ لسانه؛ لأنه قد يقع في كلمة تكون سبباً في هلاكه. ومن ذلك التألي على الله، كأن يقول: إن الله سيفعل كذا أو لا يفعل كذا. ومن ذلك الحُكم على عباد الله، كأن يحكم على فلان أنه كافر أو أنه في النار أو ما أشبه ذلك، فكل هذه أمور خطرة، ولا يجوز أن يُقدم عليها عاقل فضلاً عن مؤمن؛ لأن هذا أمره إلى الله،

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٢١).

(٢) «سنن أبي داود» (٤٩٠٣)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٤٥٥).

فهو الذي يحكم.

وأما إذا ثبتت الأمور الشرعية؛ فيجب أن نقول بها، ولكن المصيبة أن أكثر الناس لا يفقه الأمور الشرعية، ويأخذ الأمور على عِلَّاتها، وقد يحملها على فهمه هو ويطبقها على الناس، وهذه من المصائب التي يلاقيها الناس اليوم، وأكبر من ذلك أن كثيراً من السامعين يستمع ثم يبني هذا الذي سمعه على فهمه، ثم ينشر فيقول: إنَّ فلاناً يقول كذا، وإنّ فلاناً يحكم بكذا وكذا، هذه أمور كلها يجب على المسلم أن يتثبت فيها، ولا يحكم إلا بالشيء الذي ليس عنده فيه إشكال وليس عنده فيه أي تردد مما دلت عليه النصوص.

ولهذا يذكر أهل السُّنَّة في العقائد أنه لا يجوز أن يُنزل أحدٌ في الجنة أو النار إلا ما أخبر الله عنه فقط، يقولون: ولا نُنْزِل أحداً في جنة ولا نار؛ يعني: معيناً من أهل القبلة، إلا ما أخبر الله ورسوله ﷺ عنهم وأنزلهم الجنة والنار؛ لأن الأمر إلى الله ـ جل وعلا ـ، وهو الذي يحكم بين خلقه، وقد يكون الإنسان يعمل أعمالاً ظاهرها حسن وباطنها يعلمه الله، وقد تكون بالعكس، وقد يُختم للإنسان بأمر سيئ، وقد يختم له بأمر خَيِّر، فكل ذلك مما يوكل إلى ربنا ـ جل وعلا ـ، ولا يجوز لنا أن نحكم على ربنا بشيء.



﴿١٧﴾ وله عن أبي هريرة مرفوعاً: **«لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد»**(١).

الشَّرْحُ

هذا الحديث فيه بيان الرجاء والخوف، فيجب أن يكون المؤمن راجياً خائفاً، وهما يتعادلان، وبعض العلماء يقول: إذا كان في صحة فينبغي أن يكون الخوف مقدماً، وإذا كان في مرض؛ فينبغي أن يكون الرجاء مقدماً وراجحاً على الخوف، وهذا أخذاً من بعض النصوص، كقوله ﷺ: **«لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه ﷻ»**(٢). وقوله في الحديث القدسي: **«أنا عند ظن عبدي بي»**(٣) فإذا ظن خيراً وجده، وإذا ظن شراً وجده، ولكن الخوف لا يجوز أن يتعدى حدّه، فالخوف الواجب هو الذي يمنع الإنسان من ترك الواجب أو فعل المحرم فقط، فإن تعدى هذا فإنه مذموم؛ ويكون قنوطاً.

وكذلك الرجاء لا يجوز أن يتعدى الحد الشرعي، وحدُّه أن تحسن الظن بربك وأن تعمل الإحسان، وأنك لا تتهور وتترك أمر الله ـ جل وعلا ـ اعتماداً على ذلك، ولهذا أخبر الله ـ جل وعلا ـ أن رحمته قريبٌ من المحسنين كما قال: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]، والإحسان هو القيام بالأمر.

فعلى كل حال؛ الخوف والرجاء من أركان العمل الذي يعمله الإنسان، فيرجو رحمة الله ـ جل وعلا ـ، ويعلم أن جزاءه لا يضيع، وسوف يجزي عبده العامل أكثر مما يستحق؛ لأن الحسنة بعشر أمثالها إلى ما يعلمه الله، وكذلك يخاف من عقاب الله فعقابه أليم، أسأل الله ـ جل وعلا ـ أن يحمينا من المخالفات.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٥٥).
(٢) أخرجه مسلم (٢٨٧٧)، من حديث جابر بن عبد الله ﵄.
(٣) أخرجه البخاري (٧٠٦٦)، ومسلم (٢٦٧٥)، من حديث أبي هريرة ﵁.

والقنوط هو شدة اليأس، ولهذا قال: **«لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد»**؛ لأن الله أخبر أن رحمته وسعت كل شيء، ولكن عذابه شديد، فإنه يوم القيامة يغضب غضباً ما غضب قبله مثله، ولا يغضب بعده مثله، لذلك يبقى الناس خمسين ألف سنة قياماً على أقدامهم، فهل يستطيع أحد أن يبقى هذا البقاء؟ خمسون ألف سنة وهم قيام على أقدامهم بلا جلوس! ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ [المطففين]، ويعرقون والشمس على رؤوسهم، ولا ظل ولا أكل ولا شرب، فكيف يحييون؟ خُلقوا خلقاً لا يقبل الموت، يقبل العذاب أو النعيم، وهذا ليس على كل أحد، فالمتقي لله لا خوفٌ عليه ولا يحزن.

لكن هذا العرق والنصب يكون على سائر العصاة والكافرين، هكذا يمر عليهم هذا الأمر.

ثم بعد ذلك تنصب الموازين وتتطاير الصحف، والنار محيطة بهم من جميع الجهات يشاهدونها، ولا يمكن العبور إلا من فوقها، فيوضع الصراط، وهو متحرك مضطرب، فكيف يعبر من فوق النار؟ فلا عبور إلا بالعمل، فإذا كان الإنسان مستقيماً على صراط الله الذي أنزله للعمل في هذه الدنيا، واستقام على ذلك عبر وإلا سقط، فكلُّ هذه أمور يجب أن نتصورها وأن نخافها، وأن نعمل لها؛ لأننا سنعيشها.

وقبل هذا كله القبر، وهو ليس فناءً يُدفن الإنسان ويُنسى، ولكنه حياة برزخية الله أعلم بها، وفيها نعيم وعذاب، وقد يكون نعيمه أبلغ من هذه الدنيا، فكل هذه الأمور يجب أن نعرفها.

ولهذا يشتد جزع أهل الحق في هذا، ويشتد بكاؤهم وعويلهم، فتجد أحدهم كأنه مصاب بأعظم مصيبة، تشاهده وهو يبكي، مع أنه يقوم الليل ويصوم النهار، وإذا قيل له قال: والله لو توعدني ربي أن يسجنني في الحمام لحُقَّ لي أن أبكي، فكيف إذا توعدني أني إذا عصيته يسجنني في جهنم؟!

فالاحتياط والحزم أن يحتاط العبد لنفسه ويعمل ولا يُهمل، حتى إذا حضر الموت قال: يا ليت ويا ليت؛ لأنه لا تؤخر نفسٌ عن أجلها. فالإنسان له أجل محدود لا بد أن ينتهي به، فكل هذه أمور يجب أن نتصورها، ولكن رحمة الله واسعة، يجب أن تكون ثقة العبد بربه أعظم من ثقته بعمله.



﴿١٨﴾ وللبخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«الجنة أقرب إلى أحدكم من شِراك نعله، والنار مثل ذلك»**[١].

الشرح

هذا الحديث يوجب لنا الخوف، فالجنة قريبة والنار قريبة، فكيف الحيلة؟

الحيلة أن يتعلق الإنسان بربه، ويسأله الثبات والاستقامة مع إحسان القول والعمل؛ لأن غايته الموت، فإذا مات فإما أن يكون في الجنة أو في النار.

وقد سبق حديث الرجل الذي تكلم بكلمة فصارت سبباً لدخوله النار، وهي كلمة واحدة، فيجب أن يكون الإنسان خائفاً؛ لأن الجنة قريبة والنار قريبة.

قوله: **«شراك نعله»** هو السير الذي يكون فوق القدم سواء في الإصبع، أو من فوق عرش القدم، وهذا ملاصق للبدن، فمعنى ذلك أن الجنة والنار مثل هذا كما أخبر الرسول ﷺ، فهو عبارة عن قرب الموت، فيجب أن يكون العبد مستعداً لذلك، نسأل الله ـ جل وعلا ـ التوفيق والاستعداد لهذا، والله المستعان.



---

(١) أخرجه البخاري (٦١٢٣).

١٩ وعن أبي هريرة ﷺ مرفوعاً: **«أن امرأة بَغِيّاً رأت كلباً في يوم حار يُطيف ببئر قد أدلَعَ لسانه من العطش، فنزعت له موقها فسقته فغُفِرَ لها به»**[(١)].

الشرح

هذا الحديث فيه الدلالة على قرب الجنة وقرب النار.

قوله: «**امرأة بغياً**»؛ أي: اعتادت واستمرت على الزنا، نسأل الله العافية.

قوله: «**رأت كلباً في يوم حار يطيف ببئر**»؛ يعني: فيها ماء وهو ظمآن لا يستطيع أن يشرب، وقد يُلقي بنفسه، والمرأة ليس معها إلا «**موقها**» أي: خفها الذي تلبسه، فنزعته وأخرجت الماء به فسقت الكلب رحمةً له، فرحمها الله ـ جل وعلا ـ بذلك.

ومعنى هذا أن الإنسان إذا رحم البهيمة فإنه يؤجر على هذا، وقد يكون هذا سبباً لمغفرة ذنوبه، وهو عمل يسير غُفر لها بسببه العمل الكبير وهو الزنا.

وفيه سعة رحمة الله ـ جل وعلا ـ وكرمه وجوده، فالإنسان الذي ارتكب الذنوب لا يجوز له أن يحدوه ذلك إلى الابتعاد عن ربه ـ جل وعلا ـ، بل يجب أن يثق بربه ويقبل عليه ويسأله، ويعمل الأعمال التي تكون سبباً لغفران الذنوب.

وهذا من أحاديث الرجاء التي توجب للعبد أن يكون راجياً خائفاً من ربه.



(١) أخرجه البخاري (٣٢٨٠)، ومسلم (٢٢٤٥).

﴿٢٠﴾ وقال: **«دخلت النارَ امرأةٌ في هرة لها حبستها، لا هي أطعمتها، ولا أرسلتها تأكل من خشاش الأرض»**.

قال الزهري: لئلا يتكل أحد ولا ييأس. أخرجاه(١).

الشرح

هذا الحديث يدل على أمرين:

الأول: أن هذه المرأة ليست كافرة، إذ لو كانت كافرة لصار سبب دخولها الكفر، وهو أعظم من قتل هذه الهرة.

والثاني: أن الإنسان يُختم له بعمله الذي يعمل عليه فيكون خاتمته على ذلك، وهذه حبست هذه الهرة وماتت على ذلك بدون توبة، فصار ذلك سبباً لدخولها النار.

وقوله: «**دخلت النار**» مجرد الدخول لا يدل على البقاء الدائم إلا إذا كان الإنسان كافراً؛ لأن الكفر هو الذي يخلد صاحبه في النار، أما سائر المعاصي ـ دون الكفر ـ؛ فإنه يدخل النار ويطهر بها ثم يخرج منها، ولا يخلد فيها، وهذا ثبت في الأحاديث الصحيحة.

وأخبر ﷺ أنه شاهدها، في النار، فقال: **«فإذا امرأة تخدشها هرة»**(٢).

فيجب أن يكون العبد دائماً خائفاً من الأعمال التي يعملها لئلا يُعاقب بها، فيستغفر ربه ويتوب، كما أنه لا يجوز له أن ييأس.

ويدل الحديث كذلك على وجود النار الآن، خلافاً لمن زعم أنها لا توجد إلا يوم القيامة.

* * *

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٤٠)، ومسلم (٢٦١٩).

(٢) أخرجه البخاري (٢٢٣٥)، من حديث أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما، وبنحوه مسلم (٩٠٤)، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

﴿٢١﴾ وعنه مرفوعاً: **«عجب ربنا من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل»** رواه أحمد، والبخاري[١].



في هذا الحديث إثبات صفة العَجَب لله ـ جل وعلا ـ، والعَجَب من الأمور التي تخالف العادة، فإذا خرجت عن العادة صارت عجباً، والله ـ جل وعلا ـ تعجبه بعض الأشياء، فالعَجَب صفةٌ يجب أن نُثبتها لربنا ـ جل وعلا ـ، وهي صفة كمال، وكل صفات ربنا ـ تعالى وتقدس ـ صفاتُ كمالٍ.

وقوله: «يقادون بالسلاسل»؛ يعني: أنهم يُرغمون على الدخول في الإسلام، وهذا في أول الأمر؛ يعني: يقاتلون ثم يدخلون بالقوة، وهذا معنى القَوْد بالسلاسل، ويكونون كارهين أول الأمر، ثم ينقادون أخيراً.

❊ ❊ ❊

(١) «مسند أحمد» (٨٠١٣)، «صحيح البخاري» (٢٨٤٨).

﴿٢٢﴾ وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما أحدٌ أصبرَ على أذىً سمعه من الله، يدَّعون له الولد، ثم يعافيهِم ويرزقُهم**» رواه البخاري(١).

الشرح

في هذا الحديث فوائد، منها: إثبات الصبر لله، وإثبات السمع لله ـ جل وعلا ـ، وإثبات أنه يلحقه الأذى من بني آدم، فالإنسان يمكن أن يؤذي ربه، لكنه لا يضره، والفرق بين الأذى والضر: أن الأذى للأمور الخفيفة التي لا تؤثر، كالكلام الذي يسمع وما أشبه ذلك، لذلك أخبر الله ـ جل وعلا ـ أن الذين يؤذون الله ورسوله ملعونون، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ۝٥٧﴾ [الأحزاب]، فالأذى يقع من العبد لله ـ جل وعلا ـ. وكذلك الأعمال التي تُغضب ربنا ـ جل وعلا ـ كثير منها تؤذي.

فالله ـ جل وعلا ـ يتأذى من بعض عباده، ولكنهم لا يضرونه، فالضرر يكون للأمر البليغ، وهذا معروف في لغة العرب، فيقال: «هذا يضر» للشيء البليغ، ويقال: «هذا مؤذٍ»؛ يعني: شيئاً خفيفاً.

يقول الأصمعي: شاهدتُ امرأة أعرابية في الصحراء، فقلت: كيف حالتكم؟ ألا يضركم البرد والحر؟ فقالت: لا يستويان. قلت: كيف؟ قالت: الحر أذى، والبرد ضر؛ لأن البرد يهلك ويقتل، أما الحر فهو يؤذي فقط(٢).

فالمقصود: أن هذا في اللغة معروف، فالأذى للشيء الخفيف الذي لا يؤثر، والضر للشيء الذي يؤثر، والله لا يضره شيء، ولكنه يتأذى بكلام الكفار وكلام السابين له، وكذلك الذين لا يصفونه بما يصف به نفسه، فإنهم يؤذونه ـ تعالى الله وتقدس ـ.

---

(١) «صحيح البخاري» (٦٩٤٣).

(٢) انظر: «لطائف المعارف» (ص٣٣١).

وقد توعد الذين يؤذونه بأنه يلعنهم، واللعن هو الطرد والإبعاد من رحمته ـ تعالى وتقدس ـ.

قوله: «**أصبر**» فيه إثبات الصبر، فالله صبور، وقد جاء ذلك في أسمائه، ولذلك **قال**: «**ما أحد أصبرَ على أذىً سمعه من الله**»، ففيه إثبات الانفراد والوحدانية له ـ جل وعلا ـ، فهو واحدٌ أحد، فردٌ صمدٌ، ليس له والدٌ ولا ولد، فهو أولٌ بلا بداية، كما أنه آخر بلا نهاية، ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣].

قوله: «**يدعون**» يجوز بإسكان الدال «يدْعون»، ويجوز بالتشديد «يدّعون»، وكلاهما صحيح. «**يدعون**»؛ أي: الجهلة والظلمة والكفرة والذين ينسبون له الولد.

قال: «**ثم يعافيهم ويرزقهم**» مع هذا الأذى يرزقهم؛ لأن الولد نقص، والولد يُتخذ للإرث والمعاونة، فكل إنسان يطلب الولد ليكون وارثاً له ومعاوناً له ومساعداً، ويكون له في هذه الحياة مؤنساً، وهذا يدل على الحاجة إليه، أما الله ـ جل وعلا ـ فهو غنيٌّ بذاته لا يحتاج إلى شيء ـ تعالى وتقدس ـ.

وإن النقص من صفات المخلوق وهو متفاوت، ولهذا فالرجل الذي يُولد له أكمل من الرجل الذي لا يولد له.

فالحديث يدل على أمور:

أولاً: أن الله ـ جل وعلا ـ صبور ويوصف بالصبر، كما وصفه الرسول ﷺ.

ثانياً: أن الله يسمع كل ما يحدث من خلقه ويتكلمون به، لا يفوته شيءٌ من ذلك.

ثالثاً: أن الأذى يقع لله ـ جل وعلا ـ من بعض خلقه في وصفه بما يتقدس ويتعالى عنه.

رابعاً: أنه يجب أن يوصف الله ـ جل وعلا ـ بالكمال المطلق، والطريقة في هذا أن نصفه بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله.

خامساً: حلم الله وسعة إفضاله على عباده، حيث إنهم يفعلون هذه الأفعال السيئة، ثم هو - جل وعلا - يرزقهم ويعافيهم، ويمتعهم بأنواع النعم فضلاً منه.



﴿٢٣﴾ وله عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله - تبارك وتعالى - إذا أحبَّ عبداً نادى: يا جبريل، إن الله يحب فلاناً فأحبه. فيحبه جبريل، ثم ينادي جبريل في السماء: إن الله يحب فلاناً فأحبوه. فيحبه أهل السماء، ويوضع له القبول في الأرض»**[1].

الشرح

في هذا الحديث فوائد:

أولاً: إثبات الكلام والنداء لله ﷻ، والنداء من أبلغ الدلائل على إثبات كلام الله - جل وعلا -؛ لأن النداء يكون بالصوت للبعيد، ولهذا وُضع له حروف خاصة: «الياء، الهاء» التي تدل على مد الصوت.

ثانياً: إثبات الحب لله - جل وعلا -.

ثالثاً: التمييز بين الخلق، فبعضهم يحبه، وبعضهم يُبغضه.

رابعاً: أنه بمجرد ما يُخبر الله - جل وعلا - جبريل أنه يحب فلاناً، فيحب جبريل الذي يكون مُحَبّاً لله.

خامساً: أن الحب يجب أن يكون تبعاً لمحبة الله ولأمر الله - جل وعلا -.

سادساً: أن هذا يوضع له القبول في الأرض بدون ظهور أعماله للناس، فتجد إنساناً محبوباً مقبولاً عند الناس، وإن كانوا لا يدرون عنه بشيء، فهذا من علامات حبِّ الله - جل وعلا - له، أما إذا كان هذا الحب من أجل المنافع والمصالح؛ فهذا ليس دليلاً على محبة الله؛ لأن هذا قد يكون من الصالحين، قد ويكون من الطالحين.



(١) أخرجه البخاري (٣٠٣٧).

﴿٢٤﴾ وعن جَرير بن عبد الله البَجَلي ﷺ قال: كنا جلوساً عند النبي ﷺ إذ نظر إلى القمر ليلة البدر قال: «**إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تُغْلَبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا**. ثم قرأ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: ١٣٠]»، رواه الجماعة(١).

الشرح

في هذا الحديث إثبات الرؤية لله ـ جل وعلا ـ فهو يُرى، والله أكبر من كل شيء، وأعظم من كل شيء، وهذا من أصرح الأدلة وأوضحها على إثبات الرؤية، بحيث إنه لو تكلف إنسان البلاغة والفصاحة والبيان؛ لما استطاع أن يأتي بمثل ما جاء به المصطفى ﷺ في هذا الخبر.

قال: «**إنكم**» هذا تأكيد، «إنّ» حرف تأكيد ونصب، ثم جاء بحرف الاستقبال «**سترون ربكم**»؛ يعني: في المستقبل وليس الآن، «**كما ترون هذا القمر**» يُشير إليه، «**ليلة البدر**» وهي ليلة أربع عشرة، ويكون القمر في هذه الليلة واضحاً جداً.

وقوله: «**لا تُضَامُون**» بالتخفيف، و«**لا تضامُّون**» بالتشديد، والأول؛ يعني: لا يلحقكم ضيم، بل ترونه رؤية واضحة، وكل واحد خالٍ به. أما الثانية «**لا تضامّون**»؛ أي: لا تحتاجون في رؤيته إلى مساعد كما تحتاجون لرؤية الشيء الخفي؛ لأن الناس يتساعدون عند رؤية الشيء الخفي، فيساعد بعضهم بعضاً، وينضم بعضهم إلى بعض للمساعدة.

وقوله: «**فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا**» المقصود صلاة الفجر وصلاة العصر؛ يعني: حافظوا على هاتين الصلاتين، وفي هذا ـ كما يقول العلماء ـ إشارةٌ إلى أنّ من حافظ على

(١) أخرجه البخاري (٥٢٩)، ومسلم (٦٣٣).

الصلوات ولا سيما هاتين الصلاتين في أول الوقت مع تحقق الشروط والأركان؛ فإن جزاءه رؤية الله - جل وعلا - بكرةً وعشياً، وهذا فضلٌ عظيم، فإن أعلى ما في الجنة من النعيم رؤية الله ﷻ.

وأهل الجنة يختلفون في الرؤية، فمنهم من يراه في الجمعة مرة واحدة، ومنهم من يراه كل يوم، ومنهم من يراه في اليوم مرتين، وهذا كله فيه إثبات الرؤية لله - جل وعلا -.

والرؤية في الجنة هي النعيم، ولهذا يقول - جل وعلا -: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، وقد فسَّر الرسول ﷺ الزيادةَ فقال: «**الحسنى الجنة، والزيادة النظر إلى وجه الله**»(١).

كما أن الله ﷻ يُرى في عَرَصات القيامة؛ أي: في مواقف القيامة، فيراه المؤمنون ويشاركهم المنافقون، ولكنِ المنافقون يعود عليهم الأمر بالنكال والعذاب، نسأل الله العافية.



(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٥/ ٦٩)، وإسحاق بن راهويه في «المسند» (١٤٢٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٢٠٤).
وأخرج مسلم (١٨١)، من حديث صهيب عن النبي ﷺ قال: «**إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أُعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم ﷻ**، ثم تلا هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]».

﴿٢٥﴾ وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«إن الله - تبارك وتعالى - قال: مَنْ عادى لي وليّاً؛ فقد آذنته بالحرب، وما تقرّب إليّ عبدي بشيء أحبَّ إليّ من أداء ما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحبَبْتُه كنت سمعَه الذي يسمع به، وبصرَه الذي يُبصر به، ويدَه التي يَبْطِشُ بها، ورِجْلَه التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذ بي لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته، ولا بد له منه»** رواه البخاري[1].

الشَّرْحُ

هذا من الأحاديث التي أشكلت على بعض الناس، وحملها البعض على أمور لا يجوز أن تُحمل عليه.

قوله: «إن الله - تبارك وتعالى - قال» هذا فيه إثبات القول لله - جل وعلا -، **«مَنْ عادى لي وليّاً فقد آذنته بالحرب»** يعني: أعلمته وأعلنت له أني حربٌ له، ومن يقوم على حرب الله - جل وعلا -؟!

والولي جاء تفسيره بأنه المؤمن المتقي، كما قال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس]، هذا هو ولي الله - جل وعلا -، والتقوى هي فعل ما أوجبه الله، وترك ما نهى الله عنه، ولكن هذا يختلف.

والأولياء ينقسمون إلى قسمين: **أولياء مقربون، وأولياء أبرار**، والمقرب هو الذي ذُكر هنا.

قال: «وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ من أداء ما افترضته عليه» الفرائض هي التي يجب أن تكون مقدمة، ويكون الإنسان مهتماً بها، فإذا

---

(١) «صحيح البخاري» (٦١٣٧).

أدّاها العبد؛ صارت سبباً لمحبة الله له ولولايته له. وأعظم ما يتقرب به العبد الإخلاص والصدق مع الله، وإخلاص العمل؛ أي: أن يكون العمل خالصاً لله، ثم بعد ذلك الصلاة، والصلاة تهاون فيها الناس كثيراً، ويجب أن يكون عندنا استعداد وخشوع وتعظيم في الصلاة، فالرسول ﷺ يقول: «**إذا قام أحدكم في الصلاة فإنه يناجي ربه**»[1] تصور يناجي ربه! ما ظنك ـ مثلاً ـ لو قيل: إنك سوف تناجي الأمير؟ فستجتهد وتتأدب وتتطيب وتتحسن؛ لأن مناجاته فيها فضل، وفيها إكرام لك، فكيف برب العالمين؟

وبعض الناس إذا قام يصلي يشتغل بيديه، أو ينقر الصلاة كأنه مطارد، وبعضهم لا يستطيع أن يسبح بطمأنينة وهدوء، فهل مثل هذا تكون المناجاة لرب العالمين؟! يجب أن يكون عند المصلي حضور القلب، ويتيقن نظر الله إليه، فيتحلى بالأدب مع ربه ، حتى يُحبه ربه ـ جل وعلا ـ ونحن بأمس الحاجة إلى هذا.

ثم إذا كنت تناجي ربك فأنزل به حاجاتك واسأله، «**إذا قام أحدكم في الصلاة فإنه يناجي ربه**» فالصلاة صِلة بين العبد وبين ربه، ويجب أن نستشعر هذا، فهذا من أهم الأشياء التي يجب أن نقوم بها ونتحلى بها.

قوله: «**وما تقرب إليّ عبدي**» يجب أن نكون عبيداً لله، والعبد يكون ذليلاً أمام سيده، خاضعاً له، قائماً بما يُلزمه إياه، مجتنباً ما ينهاه عنه.

قوله: «**ولا يزال**»؛ يعني: أنه يُكثر التقرب بالنوافل، وهذا بعد أداء الفرائض؛ فيؤدي الفرائض، ثم يتقرب بالنوافل، ففيه الترغيب بالنوافل.

والنوافل تُطلق على الصلاة والصدقة والحج والصوم وكل ما لا يجب، فالشيء الذي لا يجب وهو مستحب مشروع يسمى نافلة.

قوله: «**يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه**»؛ يعني: إذا فعل ذلك أحبه الله، فهذا من أسباب المحبة التي ذكرت في الحديث، وهي:

أولاً: أن يكون مؤمناً تقياً.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٩٧)، ومسلم (٥٥١)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

ثانياً: أن يتقرب إلى الله بأداء الفرائض مسرعاً وقائماً بها.

ثالثاً: أن يكون متقرباً إلى الله بالنوافل.

فإذا وصل إلى هذا الحال أحبه الله ـ جل وعلا ـ.

يقول: «**فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به**» هنا الإشكال الذي أشكل على بعض الناس، جاء إيضاح ذلك أنه يسمع لله، ويبصر لله، ويمشي لله، ويبطش لله؛ يعني: تكون أعماله كلها طاعة، هذا معناه، فأعماله وحركاته كلها طاعة لله ـ جل وعلا ـ، وهذا أمرٌ كبير جداً، ويجب أن يُذكر فيه، ويعمل به، فيصبح إذا سمع شيئاً، فإنما يسمعه طاعةً لله، فما ظنك بالذي يسمع الخنى والفجور والأغاني والشيء الذي يكون مضاداً لما يحبه الله؟

فالله ـ جل وعلا ـ أخبر عن الشيطان أنه قال: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الإسراء: ٦٤]، فهو مجتهد في هذا، وله قرآن، وربنا له قرآن، فقرآن الشيطان الغناء والمزامير، وقد انتشرت هذه الأشياء، ومن الأمور الواضحة أنه لا يمكن أن يجتمع في قلب الإنسان حبُّ الأغاني وحب كلام الله، فهذا ممتنع، فإذا كان يحب الأغاني فإنه لا يستطيع أن يسمع القرآن ولا يأبه بذلك؛ لأن هذا في سبيل الشيطان، وهذا في سبيل الرحمٰن، ولا يجتمعان أبداً.

فالمقصود من قوله: «**كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به**»؛ أن سمعه وبصره وجوارحه كلها تكون مستعمَلة في طاعة الله ـ جل وعلا ـ، وليس فيه شيء من الحلول والأمور التي تخالف الحق.

وقوله: «**ولئن سألني لأعطينه**»؛ يعني: أنه يُصبح مجاب الدعوة، ولكن هذا ليس في كل شيء؛ لأن هذا يتعلق بمشيئة الله، وقد يسأل ربه شيئاً لا يُعطى؛ لأن المصلحة قد تكون في عدم عطائه، فالله أعلم بمصلحته وبما ينفعه، فلا يكون ذلك دليلاً على أنه لا يستجاب له.

وقد جاء الترغيب في الدعاء من الرسول ﷺ، وأنه لا يضيع، فهو يُعطى

إحدى ثلاث: «**إما أن يعجل له دعوته، وإما أن يدخرها له في الآخرة، وإما أن يدفع عنه من السوء مثلها**»[1] ويكون خيراً له.

وكذلك الاستعاذة إذا استعاذه أعاذه الله.

وقوله: «**وما ترددت عن شيء**» هذا أيضاً فيه إشكال عند بعض الناس، هل يوصف الله بالتردد؟

نقول: هذا فسره الرسول ﷺ في الحديث نفسه، **فقال**: «**ما ترددت عن شيء أنا فاعله**»؛ يعني: ليس هناك تردد؛ لأن التردد أن يحار بين شيئين.

فمعناه: أن العبد الذي أحبه الله يكره الموت، والله يكره مساءة العبد، فلا يحب أن يُسيئه، ولكن لا بد له منه، وهذا ليس فيه تردد في حق الله، بل هو تردُد في كراهة العبد فقط، فالعبد يكره الموت، والله يكره أن يُسيئه، ولكن لا بد أن يفعله، فهو وصفٌ للشيء الذي وُضح هنا، فكراهة الله تعالى لمساءة وليِّه هي التي فُسِّرَ بها التردد.



---

(١) أخرجه أحمد (١١١٤٩)، وصححه الألباني في «صحيح الأدب المفرد» (٥٤٧).

〈٢٦〉 وعنه أن رسول الله ﷺ قال: «**ينزل ربنا ـ تبارك وتعالى ـ كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخِرُ، يقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له**» متفق عليه[1].

الشَّرْحُ

في هذا الحديث: إثبات النزول لله ـ جل وعلا ـ كل ليلة، والنزول من صفات الله التي تخصه، ولا يشاركه المخلوق فيها، فنزول المخلوق شيء، ونزول الله ـ جل وعلا ـ شيءٌ آخر غير نزول المخلوق، فلا يتصور أن هذا النزول كالنزول المعهود لنا، فالإنسان إذا كان فوق السطح ونزل صار السطح فوقه وانتقل من مكان إلى آخر، وهذا ملازم لنزول المخلوق، أما نزول ربنا فهو بخلاف ذلك، وهو أمر خاص يخالف ما نعهده ونعرفه من أنفسنا، فنزوله وهو على عرشه فوق خلقه ـ تعالى وتقدس ـ.

ونزوله تعالى واحد بالنسبة إليه، ويختلف بالنسبة للخلق، فثلث الليل عندنا غير ثلث الليل في المشرق، مثل: باكستان والهند والصين واليابان، وكذلك في المغرب يكون ثلث الليل عندهم بعد ثلث الليل عندنا، وهذا لا ينتهي، فالذين تصوروا النزول على ما يعهدون أشكل عليهم هذا إشكالاً عظيماً، وقالوا: هذا يجب أن لا يُثبت؛ لأن هذا يلزم منه أن يكون ربنا نازلاً دائماً، وهذا تصور للنزول المعهود وهو نزول المخلوق، أما نزول الله ـ جل وعلا ـ فلا يلزم منه ذلك.

ومن الأمور التي تقرب المعنى أن نقول: الأرض والسماء مملوءة من عباد الله الذين يدعونه ويعبدونه ويسألونه، وهو يستمع لهم في آنٍ واحد كلهم، ولا يختلط عليه دعوة هذا وسماع كلام هذا بهذا، فكلهم يستمع إليهم،

---

(١) أخرجه البخاري (١٠٩٤)، ومسلم (٧٥٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

واستماعه إليهم في آنٍ واحد ليس هذا من الأمور التي تكون صعبة على ربنا ـ جل وعلا ـ، فهي سهلة ميسورة.

وكذلك يحاسبهم يوم القيامة كلهم في آن واحد، وكل واحد يتصور أنه يُحاسَب وحده، والله ـ جل وعلا ـ يحاسب الجميع، وهو سريع الحساب، فالمهم كل هذا يدلنا على أن أفعال الله خصائص له لا يشاركه المخلوق فيها، وبذلك يزول الإشكال الذي يستشكله كثير من الناس في هذا.



﴿٢٧﴾ وعن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«جَنّتانِ من ذهب آنيتُهما وما فيهما، وجَنَّتانِ من فضة آنيتُهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن»** رواه البخاري[١].

الشَّرْحُ

المقصود بهذا الحديث: إثبات النظر لوجه الله ـ جل وعلا ـ، وأن لله وجهاً حقيقةً، وقد سبق هذا في حديث **«سبحات وجهه»**[٢].

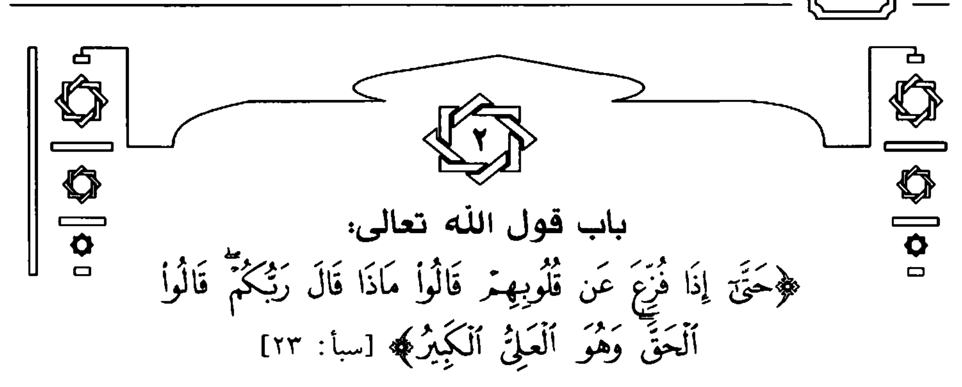
وفيه أيضاً تعدد الجنان، وهي مختلفة، فبعضها بناؤها بالذهب، وبعضها بالفضة، وكونه مثّل بالذهب والفضة؛ فإنه لا يلزم أن يكون هذا الشيء كله ذهب وفضة، فقد يكون هناك شيء أعلى وأغلى وأحسن، ولكننا لا نعرفه، وإنما المقصود الإخبار بالتفاوت العظيم الذي بين الجنان.

والجنة اسم للنعيم كله، وأعلاه وأعظمه النَّظرُ إلى وجه ربنا ﷻ، نسأل الله أن يهب لنا ذلك.

وكذلك فيه إثبات الكبرياء له ـ تعالى وتقدس ـ، فهو الكبير وله الكبرياء والعظمة، فهو الجبار القهار ـ تعالى وتقدس ـ، فلا يجوز أن يُنازع في شيء من ذلك، فمن نازعه في شيء من ذلك فإنه يُلقيه في جهنم.



(١) «صحيح البخاري» (٤٥٩٧).
(٢) انظر: شرح الحديث الثاني ص١٦.



باب قول الله تعالى:
﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]

الشرح

هذه الآية تتعلق بالآية التي قبلها، وهي قوله: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ [سبأ: ٢٣]. وقبلها ذكر الأقسام التي هي على سبيل السبر والتقسيم المحيط الذي لا يترك شيئاً، وهي الآية التي قيل: إنها تقلع شجرة الشرك من القلوب، ولكن هذا يكون وصفاً لكثير من آيات الله ـ جل وعلا ـ، غير أنها تحتاج إلى تأمل وفهم.

قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾؛ يعني: إذا ذهب الفزع عن قلوبهم، والضمير في ﴿قُلُوبِهِمْ﴾ يعود ـ على القول الصحيح ـ إلى الملائكة، كما سيأتي بالحديث: «**قالوا: ماذا قال ربكم؟**»؛ يعني: أنهم يسأل بعضهم بعضاً، وجاء أن السؤال يكون لجبريل؛ لأن الله ـ جل وعلا ـ إذا أوحى إليه سمعت الملائكة صوته، ولكن لم يفهموه فحصل السؤال، ويعلمون أنه صوت كلام الله بالوحي، فيُصْعقون؛ أي: يُغْشى عليهم خوفاً من الله، وخوفاً من أنه أمر بقيام الساعة؛ لأن عندها يُجزى الخلق بأعمالهم، فهم يخافون أشد الخوف، فإذا ذهب هذا الفزع وهذا الخوف؛ سألوا جبريل ومن معه: «**ماذا قال ربكم؟**» فيقول لهم: «**قال الحق، وهو العلي الكبير**»، وكلهم يقولون هذا ويرددونه: «**قال الحق، وهو العلي الكبير**» ثم يمضي جبريل عليه السلام بالوحي حيث أمره الله ـ جل وعلا ـ، وهذا سيأتي تفصيله بالحديث الذي ذكره.

والمقصود في هذا: أن خلق الملائكة عظيم، وهم مقربون إلى الله لا يعصونه طرفة عين، يسبحون الليل والنهار لا يفترون، ومع ذلك يخافون هذا

الخوف الشديد من الله ـ جل وعلا ـ، فكيف بمن يعبد القبر؟! أو يعبد الشجرة؟! أو يعبد مخلوقاً لا يُجدي شيئاً؟! هل استشعر مثل هذا؟ هل علم مثل هذا؟ هذا يدل على الجهل الفظيع! نسأل الله العافية.

ولهذا يُصرف حق الله لحجر لا ينفع ولا يضر، ولا يسمع ولا يبصر، أو لمقبور هو رميمٌ في التراب لا يستطيع أن يدفع عن نفسه الديدان التي تأكل بدنه، فكيف يُدعى مثلُ هذا؟ لا يستطيع أن يستزيد حسنة يضعها في صحيفته، ولا أن يمحو سيئة، فهو مرتهن بأعماله.

فالمقصود بهذا: أن الملائكة عُبدت من دون الله، وهي من أعظم المخلوقات، ومع ذلك تخاف الله هذا الخوف الشديد، فكيف يكون الذي عنده عقل وتدبر بهذه النصوص يلتفتُ إلى غير الجبار الكبير المتعالِ ـ تعالى وتقدس ـ، هذا المقصود من هذا الباب.



﴿٢٨﴾ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: حدثني رجل من أصحاب النبي ﷺ أنهم بينما هم جلوس ليلة مع رسول الله ﷺ، إذ رمي بنجم فاستنار، فقال: «**ما كنتم تقولون إذا رمي بمثل هذا؟**». قالوا: كنا نقول: ولد الليلة عظيم أو مات عظيم. فقال: «**إنها لم تُرمَ لموت أحد ولا لحياته، ولكن ربنا تبارك وتعالى إذا قضى أمراً سبحت حملة العرش، حتى يسبح أهل السماء الذين يلونهم، حتى يبلغ التسبيح أهل السماء الدنيا، فيقول الذين يلون حملة العرش: ماذا قال ربكم؟ فيخبرونهم ماذا قال، فيستخبر أهل السماوات بعضهم بعضاً حتى يبلغ الخبر أهل السماء الدنيا، فتَخْطَفُ الجنُّ السمعَ، فيُلْقونه إلى أوليائهم، فما جاؤوا به على وجهه فهو الحق، ولكنهم يَقْرفون ويزيدون**» رواه مسلم، والترمذي، والنسائي[١].

الشرح

ابن عباس رضي الله عنهما كان صغيراً في زمن النبي ﷺ، ولما توفي رسول الله ﷺ لم يبلغ خمس عشرة سنة.

يقول ابن عباس: لما توفي رسول الله ﷺ قلت لرجل من أصحاب رسول الله ﷺ من الأنصار: هلم نسأل أصحاب رسول الله ﷺ ما داموا متوافرين. فقال لي: عجباً لك يا ابن عباس! أتظن الناس يحتاجون إليك وإلى أمثالك! وأصحابُ رسول الله ﷺ أمثال الجبال متكاثرون!! يقول ابن عباس: فأقبلت أسأل، وإذا بلغني عن رجل حديثاً؛ ذهبت وتوسدت ردائي على بابه، تسفي الرياح علي، أنتظر خروجه، فإذا خرج وشاهدني قال: ألا أرسلت إليّ فآتيك يا ابن عم رسول الله؟ فأقول: لا، أنت أولى أن يؤتى إليه.

يقول: ثم صار الناس فيما بعد يجتمعون إليّ يستمعون العلم، فنظر ذلك الرجل إليّ وقال: هذا الغلام أعقل مني[٢].

---

(١) «صحيح مسلم» (٢٢٢٩)، «جامع الترمذي» (٣٢٢٤)، «سنن النسائي» (١١٢٧٢).

(٢) أخرجه ابن عبدالبر في «جامع بيان العلم» (٣٩١)، والخطيب في «الجامع» (٢١٦).

فالمقصود هنا: أن ابن عباس **قال**: «**حدثني رجل من أصحاب رسول الله**»؛ لأن جل الأحاديث التي يرويها عن الرسول ﷺ إنما هي بواسطة الصحابة ﵃، هذا المقصود هنا حتى لا يكون إشكال في هذا.

قال: «**بينما هم جلوس ليلة مع رسول الله ﷺ إذ رُمي بنجم فاستنار**» النجوم لا يُرمى بها ولكنها شهب تنطلق من النجوم، أما النجوم فهي ثوابت لا تتغير ولا يُرمى بها، إلا إذا جاء الوقت الذي أخبر الله ﷻ عنه، وأنها تتناثر وتتساقط ويصطدم بعضها ببعض، ويتغير الكون كله عندما يريد الله ـ جل وعلا ـ تجديد الخلق مرةً أخرى.

فقال لهم الرسول ﷺ: «**ما كنتم تقولون إذا رُمي بمثل هذا؟ قالوا: كنا نقول**»؛ يعني: في الجاهلية «**ولد الليلة عظيمٌ أو مات عظيم، فقال ﷺ: إنها لم تُرْمَ لموت أحدٍ ولا لحياته**»، وهذا أسلوب يستخدمه النبي ﷺ للتعليم، يسأل ثم بعد يعلمهم ذلك، وهي طريقة بليغة في التعليم، ومقصوده أن يعلمهم الشيء الذي كان باطلاً حتى يتجنبوه؛ لأن الذي لا يعرف الباطل يوشك أن لا يعرف الحق، لهذا قال: «**إنها لا يُرمى بها لموت أحد ولا لحياته، ولكن ربنا ﷻ إذا قضى أمراً سبحت حملة العرش**»؛ يعني: إذا تكلم بالوحي، هذا معنى «**قضى أمراً**» فقضاؤه بكلامه ـ جل وعلا ـ.

أما القضاء بمعنى تقدير الأشياء؛ فهذا سبق وجود المخلوقات كلها، كما في «صحيح مسلم» عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﵄ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء**»[(١)]، فكل مقادير الأشياء كُتبت في ذلك الوقت، والمعنى أن الله كتب علمه بالأمور التي ستقع كلها، فتقع على وفق علمه بهذه الكتابة التي كتبها، وبالأوقات المحددة، بلا زيادةٍ ولا نقصان، وهذا لا يخرج عنه شيء أصلاً، حتى نبض العروق في البدن،

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٥٣).

فكل حركة مكتوبة، وتقع على وفق الكتابة السابقة، وقد بيَّن الله ـ جل وعلا ـ ذلك في كتابه، فكل شيء قد أحصاه في كتاب سابق أزلي.

فهذا يُسمى: «التقدير الأزلي» وهو عبارة عن الكتابة؛ يعني: علم الله وكتابة علمه، ثم مشيئته لوجودها وخلقه لها، وسيأتي هذا ويُبين ـ إن شاء الله ـ أتم من هذا البيان.

يقول: «**حتى يسبح أهل السماء الذين يلونهم**»؛ يعني: السماء العُلْيا ثم كذلك الذين تحتهم، فإذا سمعوا تسبيحهم سبحوا حتى يبلغ التسبيح أهل السماء الدنيا «**فيقول الذين يلون حملة العرش: ماذا قال ربكم؟**» فيخبرونهم «**فيستخبر أهل السماوات بعضهم بعضاً حتى يبلغ الخبر أهل السماء الدنيا، فتخطف الجن السمع، فيلقونه إلى أوليائهم، فما جاؤوا به على وجهه فهو الحق، ولكنهم يَقْرفون ويزيدون**» يقرفون؛ يعني: يكذبون.

وليس معنى هذا أن الجن والشياطين يصلون إلى السماء، ولكن يركب بعضهم بعضاً إلى قُرب العنان؛ أي: السحاب، ومن الملائكة من يكون في السحاب، فتصل إليهم السؤالات التي سمعوها من أهل السماء، وربما تكون موجهةً إليهم في تدبير السحاب وتدبير المطر وما شاء الله ـ جل وعلا ـ من الأمور التي تقع في الأرض، فيكلم بعضهم بعضاً في ذلك، والشيطان يستمع لكلامهم، ويركب بعضهم بعضاً، فيخطف الكلمة بسرعة؛ خوفاً من أن يأتيه الشهاب ويقتله ولا يأتي بها، ويلقيها على الذي تحته، والذي تحته يلقيها إلى من تحته حتى تصل إلى مَنْ في الأرض من الشياطين، فيذهب بها مسرعاً إلى الكاهن، فيَقُرَّها في أذنه ويزيد معها مئة كذبة، فإذا وقع الشيء موافقاً لهذه الكلمة فهو حق، ولكن يخلطون الكذب فيها كثيراً، وكل هذه المخاطرة التي تفعلها الشياطين لأجل إضلال بني آدم؛ لأنه يرسل عليهم الشهاب، فربما يقتله، وربما يُذهب عقولهم.

والشهاب يشاهد كيف إذا انقض في سرعة شديدة، يكون جزء منه أخضر وجزء منه أبيض، وأحياناً يستنير فتستنير الأرض به، ولا يصل إلى الأرض؛ لأن الله ـ جل وعلا ـ جعل بينه وبين الأرض حاجزاً؛ لئلا يصل إلى بني آدم رحمةً بهم.

وقد يكون كبيراً، يسمونه: «نيزك» ويصل إلى الأرض، ولكنه يتفتت، وأحياناً تصل منه أجزاء كبيرة، وتُحدث في الأرض انفجارات وحُفَراً عظيمة، وأحياناً تصيب من يشاء الله ـ جل وعلا ـ، والمقصود بهذا أن الله ﷻ أخبر أنه جعل النجوم لأمور ثلاثة:

١. زينةً للسماء.

٢. علاماتٍ يُهتدى بها في السير في البر والبحر.

٣. ورجوماً للشياطين.

فمن اعتقد غير هذا فهو ضال؛ لأن النجوم مخلوقة مسخرة مدبرة، وليس عندها نفعٌ ولا ضر ولا تدبير، بل هي مدبرة مقهورة مسخرة لأمر الله ـ جل وعلا ـ.

والمقصود هو أن يبين أن الملائكة يخافون الله خوفاً شديداً، فكيف بمن يعبد الملائكة؟ بل كيف مَنْ يعبد من هو أقل؟ هذا من الأمور التي تبين بطلان الشرك.



﴿٢٩﴾ وعن النواس بن سمعان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا أراد الله أن يوحي بالأمر تكلم بالوحي أخذت السماوات منه رجفة ـ أو قال: رعدة شديدة ـ خوفاً من الله ﷻ، فإذا سمع ذلك أهل السماوات صعقوا ـ أو قال: خروا لله سجداً ـ فيكون أول من يرفع رأسه جبرائيل ﷺ، فيكلمه الله من وحيه بما أراد، ثم يمر جبرائيل على الملائكة، كلما مرّ بسماء سألته ملائكتها: ماذا قال ربنا يا جبرائيل؟ فيقول: قال الحق وهو العلي الكبير. فيقولون كلهم مثل ما قال جبرائيل، فينتهي جبرائيل بالوحي إلى حيث أمره الله ﷻ**». رواه ابن جرير، وابن خزيمة، والطبراني، وابن أبي حاتم، واللفظ له(١).

الشَّرْحُ

هذا الحديث يفسر الذي مضى، **قال**: «**إذا أراد الله أن يوحي بالأمر تكلم بالوحي**» فهو صريح في أن الله يتكلم، وأن كلامه يُسمع، وأن السماء تسمعه، وأن السماء عندها شعور، وعندها خوف، فترتجف وترتعد على كبرها وعظمها، وكذلك الملائكة سُكّانها يصعقون، ثم يتسائلون، ومرادهم بالسؤال امتثال أمر الله ـ جل وعلا ـ حتى يبادروا إلى طاعته واتباع أمره، فهذا كله يدل على عظمة الله، وأن المشرك قد أهدر أمر الله وقابله بنقيض أمره، فدل على جهله وعلى عدم استشعاره عظمة الله، وأنه وضع العبادة في غير موضعها، وهذا أظلم الظلم.

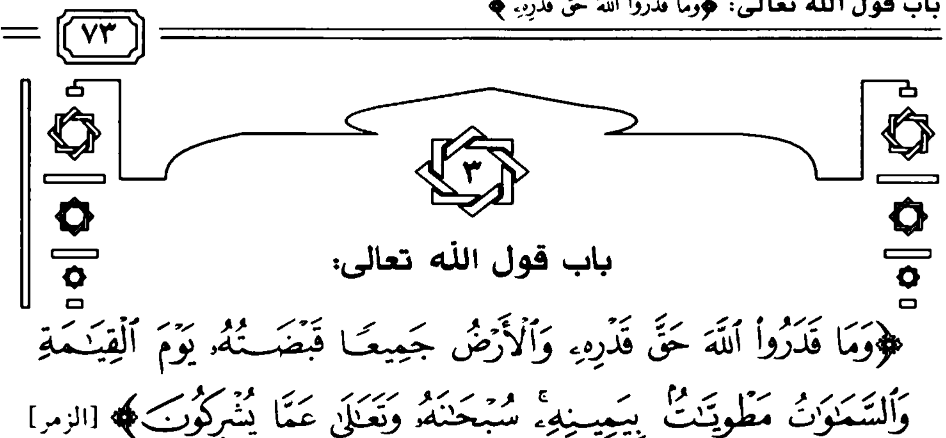
قوله: «**جبرائيل**» معناه: كما جاء عن ابن عباس(٢) وغيره: الاسم الذي آخره «إيل» يعني عبد الله أو عبد الرحمٰن، وهو اسمٌ غير عربي.



---

(١) «جامع البيان» للطبري (٢٠/ ٣٩٧)، «التوحيد» لابن خزيمة (٢٠٦)، وضعفه الألباني في تخريجه لـ«السنة» (١/ ٢٢٧).

(٢) انظر: الحديث رقم (٦١).



باب قول الله تعالى:

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر]

الشرح

هذا الباب والذي قبله يتعلقان بالباب الأول: «**معرفة الله والإيمان به**»، ولكنه جاء بالذي قبله؛ ليبين أن الذي يعبد غير الله قد ضل ضلالاً بعيداً؛ لأن المعبودات مخلوقات، وأعظم هذه المخلوقات الملائكة، وخوفهم الشديد يُبين سخافة المشرك وبُعدَه عن الحق.

قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾؛ يعني: ما عرفوا قدر الله، ولو عرفوا شيئاً من قدر الله؛ لكانت العبادة له بالخوف والخشية والإقبال على ذلك بكل ما يستطيعون، ولكنهم ما عرفوا الله، ولهذا ذكر بعض الأحاديث التي تتعلق بهذه الآية.

فقوله: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾؛ يعني: المشركين، فالمشركون من بني آدم ما عرفوا قدر الله، ولهذا قال: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ والقبضة هي التي تكون في الكف، ومعنى ذلك أن الأرض تكون في كفه صغيرة حقيرة، بل السماوات كلها ﴿مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ إذا كان يطوي السماوات على سعتها وكبرها وتكون بيمينه صغيرة، فكيف يَعْبُد العاقلُ مخلوقاً ضعيفاً مثله مع أنه خُلق لعبادة الله ـ جل وعلا ـ، فإذا تأملت السعة الهائلة للسماء، فالأرض مثل البيضة في قلب السماء الدنيا، والسماء محيطة بها من جميع الجهات، والسماء فوقها من جميع الجهات؛ لأن الجهات الحقيقيّة فوق

وتحت فقط، أما أمام وخلف ويمين وشمال هذه كلها جهات وهمية، معنى ذلك أن يمينك شمال لغيرك وليس حقيقة، فهي أمورٌ بالنسبة لك، أما الجهة الحقيقية هي الفوق والتحت فقط، وأسفل شيء قلب الأرض، ووسطها نيران ملتهبة لا تطاق، وهذا شاهده الناس الآن، فتفجرها البراكين والأمور التي تحدث زلازل لشدة الحرارة التي في قلب الأرض، حرارة هائلة تذيب الجبال والصخور، وهذه الأمور يسميها الملاحدة «كوارث طبيعية»!! هذه الأمور جعلها الله آياتٍ ونكالاً لمن يشاء، ولكن إذا طُبع على قلب الإنسان أصبح يتعلق بالأشياء التي هي أقل من المخلوقات، فلا حيلة فيه.

فالمقصود أن الأرض بالنسبة للسماء صغيرة، والسماء محيطة بها من جميع الجهات، وأسفل سافلين هو قلبها؛ لأنه لو قُدر مثلاً أن إنساناً ينزل إلى أسفل الأرض وآخر ينزل من مقابله من الأرض، فالذي يلتقي أرجلهم؛ لأن كل واحد نزل من الفوق، والأسفل هو مركز الأرض، فتلتقي أرجلهم في مركزها الذي هو أسفل شيء، ثم السماء الدنيا محيطةٌ بها من جميع الجهات، وهي فوقها وهذا شيء جُرب.

فالناس كانوا يقولون: إن الأرض سطحية غير كروية، وينكرون على من يقول: إنها كروية، مع أن من العلماء من ألّف في هذا، وقال: إن كروية الأرض أمرٌ قطعي لا يجوز المجادلة فيه.

وممن ألف في هذا ابنُ المنادي الذي كان في القرن الثالث والرابع، وهو من تلامذة عبد الله ابن الإمام أحمد، ألّف مؤلفاً وذكر أدلة عقلية وأدلة سمعية على هذا، ولكن توهم كثيرٌ من الناس في قول الله ـ جل وعلا ـ: ﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾ [الغاشية] فقالوا: إنها سطحية، وهذا ليس بصحيح، فإنها سطحية بالنسبة للخلق، وإن كانت كروية، وإلا فالمخلوقات كلها كروية، حتى قول الرسول ﷺ: «**فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة، وأعلى**

الجنة، ومنه تفجر أنهار الجنة»[1]، وهذا يدل على ذلك، فالذي يكون وسطه أعلاه فإنه يكون دائرياً كروياً، فكذلك السماوات، فالسماء الثانيه محيطةٌ بالسماء الدنيا كإحاطة السماء الدنيا بالأرض، والسماء الثالثة كذلك إلى السابعة، فأوسع السماوات وأكبرها السماء السابعة، فكلما ارتفع الكون والمخلوقات اتسع اتساعاً هائلاً، وقد لا يتصوره الإنسان.

وإن الكفار الآن تقدموا في العلم النظري وسبقوا المسلمين فيه كثيراً، وتقدموا في الصناعة، والآن يسمون هذا فضاء، ويقولون: النجوم التي تشاهدونها تسبح في الفضاء، ولا توجد سماء مبنية، وينكرون هذا لأنهم ما شاهدوه، ولن يشاهدوه ولن يصلوا إليه؛ لأن المسيرة من الأرض إلى السماء مسيرة خمس مئة عام، فمتى يصلون إلى هذا؟

ونظر الإنسان محدود وإن كان بواسطة مكبرات، فلا يمكن أن يصل إلى كل شيء، وإذا لم يصطدم النظر بجسم أمامه فإنه لا يمكن أن يرى شيئاً أبداً، فالسماء إذا ما كان تحتها شيء يعكس فإنها لا تُرى، ولهذا فالذي في الأرض يراها، وإذا ارتفع وأصبحت ـ أي: الأرض ـ لا أثر لها؛ فإنه لا يرى ولا يشاهد شيئاً، وإلا فربنا ـ جل وعلا ـ يقول: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦﴾ [ق]، فلا يمكن أن يأمرنا أن ننظر إلى شيء غير موجود.

ثم إنَّ الرسول ﷺ لما عُرج به مع جبريل أخبر أنه لما وصلوا إلى السماء الدنيا استفتحوا الباب؛ يعني: طرق البابَ جبريل، فقيل له: مَنْ؟ فقال: جبريل. فقالوا: من معك؟ قال: معي محمد. قالوا: وقد أُرسل إليه؟ قال: نعم. ففتحوا، وهكذا في السماء الثانية والثالثة والرابعة[2].

والله ـ جل وعلا ـ أخبر أن للسماوات أبواباً تُفتح للمؤمنين المتقين

(١) أخرجه البخاري (٢٦٣٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٣٠٣٥)، من حديث مالك بن صعصعة رضي الله عنه، ومسلم (٢٥٩)، من حديث أنس رضي الله عنه.

ولأرواحهم، أما الكفار فتُغلق الأبواب دونهم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ﴾ [الأعراف: ٤٠]، وسمُّ الخياط هو ثقب الإبرة، ولا يُمكن للجمل أن يدخل فيه، فهذا مستحيل، فكذلك دخول الكافر الجنة مستحيل، فلا تفتح له أبوابها.

وجاء في حديث البراء بن عازب ﷺ في الاحتضار أن النبي ﷺ قال: «**وأن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة**» إلى أن قال: «**فيصعدون بها** - أي: الروح - **فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الخبيث؟ فيقولون: فلان بن فلان، بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا، حتى ينتهى به إلى السماء الدنيا، فيستفتح له فلا يفتح له**» ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ﴾ **فيقول الله** ﷻ: «**اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى، فتطرح روحه طرحاً**»، ثم قرأ: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ﴾ [الحج: ٣١][(١)].

فالمقصود: أن نتصور هذه السعة، وهذا الكبر العظيم، والله يقبض هذه الأشياء الكبيرة الهائلة بيده، فتكون صغيرة بالنسبة إليه، فهل علم عظمة الله - جل وعلا - الذين يعبدون غيره؟! أو الذين يبارزونه بالمعاصي ويخالفون أمره؟! ففي الحقيقة ما عرفوا شيئاً من هذه العظمة، ولو عرفوا ذلك لَمَا تجرؤوا على أن يعصوا أمره.



(١) أخرجه أحمد (١٨٥٥٧).

﴿٣٠﴾ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يقبض الله الأرض، ويطوي السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض؟**» رواه البخاري(١).

الشرح

هذا الحديث ذكره المؤلف بعد ذكر قول الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر]، فالآية تدل على أن لله يَدَيْنِ، وأنه يقبض الأرض بيده الشمال، كما جاء صريحاً في «صحيح مسلم»(٢)، وأن السماوات يطويها بيمينه كما هو صريحٌ في هذه الآية؛ لأنه قال: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ﴾؛ يعني: يقبضها بيده ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ فإذاً القبض الأول بيده الأخرى، وجاء إيضاح ذلك أن الأرض يقبضها بشماله، والسماوات يطويها بيمينه، فهو متفق مع هذه الآية.

وأخطأ الذي يقول: إن الحديث الذي في «صحيح مسلم» شاذ، فكيف يكون شاذاً وهو مطابق لكلام الله ـ جل وعلا ـ؟ وأيُّ نصٍّ خالفه حتى يكون شاذاً؟ فالشذوذ أن يخالف ما هو ثابت، فإذا جاء حديث مخالف لما هو معروف وثابت فإنه يكون شاذاً، أما إذا كان تأسيساً وبياناً لأمرٍ معلوم، فلا يجوز أن نقول: إنه شاذ. لكن هكذا يفعل بعض الناس إذا خالف النص عقيدته أو لم يفهمه، وهذا من باب الجرأة التي لا تجوز للإنسان أن يُقدم عليها.

والمقصود بيان شيء من عظمة الله تعالى؛ حتى يعرف العبد ربه، فيعبده بقدر عظمته، ويخاف أن يعذبه ولا يبالي.

---

(١) «صحيح البخاري» (٦١٥٤).

(٢) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «**يطوي الأرضين بشماله**» أخرجه مسلم (٢٧٨٨).

﴿٣١﴾ وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله يقبض يوم القيامة الأرضين، وتكون السماوات بيمينه، ثم يقول: أنا الملك**»[١].

﴿٣٢﴾ وفي رواية عنه: أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر]، ورسول الله ﷺ يقول هكذا بيده، ويحركها، ويقبل بها ويدبر: «**يمجد الربُّ نفسه، أنا الجبار، أنا المتكبر، أنا العزيز، أنا الكريم**» فرجف برسول الله ﷺ المنبر، حتى قلنا لَيَخِرَّنَّ به. رواه أحمد[٢].

الشَّرْحُ

قوله: «**يُمجد الربُ نفسه**» هذا حكايةٌ من الرسول ﷺ لتمجيد الرب لنفسه؛ لأن الخلق في ذلك اليوم مقبوضون ليس فيهم حيٌّ، كلهم ماتوا حتى الملائكة، فيقبض المخلوقات كلها، ثم يقول: «**أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟**»[٣]؛ يعني: الذين نازعوا الله في ملكه وكبريائه، أين هم؟ هم مقبوضون، صغار، وإذا أُحيوا صاروا أذلة أمثال الذر يطؤهم الناس بأقدامهم؛ جزاءَ تكبرهم وتجبرهم على عباد الله ـ جل وعلا ـ.

والمقصود بيان شيء من عظمة الله تعالى؛ حتى يعرف العبد ربه، فيخافه ويعبده بالتعظيم والذل والمحبة.



---

(١) أخرجه البخاري (٦٩٧٧).

(٢) «مسند أحمد» (٥٤١٤)، وأخرجه النسائي في «السنن الكبرى» (٧٦٩٦)، والحاكم في «المستدرك» (٢٩٩٩)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٧/٥٩٦).

(٣) أخرجه مسلم (٢٧٨٨).

﴿٣٣﴾ وروى مسلم، عن عُبيد الله بن مِقْسَم أنه نظر إلى عبد الله بن عمر ﷺ كيف يحكي عن رسول الله ﷺ قال: **«يأخذ الله سماواته وأرضيه بيديه فيقول: أنا الملك. ويقبض أصابعه ويبسطها، فيقول: أنا الملك»**. حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفلِ شيء منه، حتى إني لأقول: أساقِطٌ هو برسول الله ﷺ؟[1].

الشَّرح

تحرك المنبر لِما يُذكر عليه من عظمة الله، فهذه الحركة للمنبر مثل حنين الجذع لما فَقَدَ الذكر الذي يُقال عليه، والجذع هو ساق النخلة اليابس.

ولمّا أراد الرسول ﷺ بناء المسجد، وقد كان فيه نخل وقبور للمشركين، فسأل: **«لمن هذا»**؟ فقالوا: لبني النجار. فاستدعاهم، وقال: **«ثامنوني بهذا»**، فقالوا: لا نريد له ثمناً، ولكنه لله. فقال: **«لا، لا بد أن تثامنوني»**[2]؛ أي: تذكروا لي ثمناً حتى أعطيكم إياه، فاشتراه، ولما اشتراه أمر بقبور المشركين أن تُنبش وتزال، وأمر بالنخل أن يُقطع، فقُطع النخل وجُعلت جذوعه أعمدة للمسجد، وجعل السعف سقفاً للمسجد، فصار منها جذعٌ يستند إليه الرسول ﷺ عندما يخطب ويتكلم.

ثم فيما بعد كان لامرأة من الأنصار غلامٌ نجار، فقال لها: **«مُري غلامك فليصنع لي أعواداً أُكلم الناس عليها»**، فصُنع له المنبر من طرفاء الغابة[3]، فلما وضع في المسجد صَعِدَ عليه ليخطب، فسمع أهل المسجد كلهم حنين الجذع، صار يحن كما تحن الناقة إذا فقدت ولدها، فنزل ﷺ والتزمه، فصار يهدأ حتى سكت، فقال: **«لو تركته لبقي يَحِنُّ إلى يوم**

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٨٨).

(٢) أخرجه البخاري (٣٩٣٢)، ومسلم (٥٢٤)، من حديث أنس ﷺ.

(٣) **الغابة**: بريد من المدينة على طريق الشام. «معجم البلدان» لياقوت حموي (٤/ ١٨٢).

القيامة»[١]، كيف بالجذع الهامد يحن عندما يفقد ذكر الله ـ جل وعلا ـ، وقلوب الناس العقلاء لا تتأثر بذلك!! أليس هذا من العجب؟

المقصود أن هذا التحرك للمنبر عندما سمع شيئاً من عظمة الله خاف وصار يرتعد ويرتجف، ولهذا يقول ابن عمر: **«أساقطٌ هو برسول الله ﷺ؟»**.

فيجب على العبد الذي أُعِدَّ له العذاب والثواب أن يعرف عظمة ربه، ويعبده ويخافه، فهو تعالى أولى بالخوف من سائر المخلوقين.



---

(١) أخرجه أحمد (١٤٢٨٢)، من حديث أنس رضي الله عنه.

﴿٣٤﴾ وفي «الصحيحين» عن عمران بن حصين ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**اقْبَلوا البشرى يا بني تميم**». قالوا: قد بشرتنا فأعطنا. قال: «**اقبلوا البشرى يا أهل اليمن**». قالوا: قد قبلنا فأخبرنا عن أول هذا الأمر؟ قال: «**كان الله قبل كل شيء، وكان عرشه على الماء، وكتب في اللوح المحفوظ ذكر كل شيء**»، قال: فأتاني آتٍ فقال: يا عمران، انحلت ناقتك من عقالها. قال: فخرجت في أثرها فلا أدري ما كان بعدي[1].

الشرح

قد بحثتُ عن هذا الحديث في «صحيح مسلم» فلم أجده، وذكره الحميدي في «الجمع بين الصحيحين» في أفراد البخاري، والبخاري ذكره في عدة مواضع من «صحيحه».

وفي رواية أن عمران قال: «**عقلت ناقتي فدخلت المسجد**»؛ يعني: عند باب المسجد، فدخل بنو تميم، فقال رسول الله ﷺ: «**أبشروا يا بني تميم. فقالوا: بشرتنا فأعطنا**»، فتغير وجه رسول الله ﷺ؛ لأنهم تصوروا أن البشرى من أمور الدنيا، يريدون المال أو شيئاً يعطيهم، وهذا يدل على عدم الفقه.

يقول: ثم دخل أهل اليمن، فقال: «**يا أهل اليمن اقبلوا البشرى إذ لم يقبلها إخوانكم بنو تميم**»؛ معناه: أن الشيء الذي يأتي من الله ومن رسوله فإنه يجب أن يُقبل من أول وهلة، وإذا تردد الإنسان فمعناه أنه لم يقبل، فقالوا: «**قبلنا، فاخبرنا عن أول هذا الأمر**». فقال ﷺ: «**كان الله ولم يكن شيء قبله، وكتب في الذكر كل شيء، ثم خلق السماوات والأرض**».

قوله: «**كان الله ولم يكن شيء قبله**». وفي رواية أخرى: «**كان الله ولم يكن شيء غيره**»، وفي رواية ثالثة: «**كان الله ولم يكن شيء معه**»، هذه

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠١٨، ٣٠١٩، ٤٠١٧، ٤١٢٥، ٦٩٢٨).

الروايات الثلاث كلها في «صحيح البخاري»، وهي روايات مختلفه.

يقول عمران: **«فأتاني أتٍ، فقال: أدرك ناقتك فقد ذهبت، يقول: فخرجت فإذا السراب يتقطع دونها، وايم الله لَوَدِدتُ أني تركتها ولم أقم»**، وهذا يدل على الحرص على العلم، وأنه يترك ناقته تذهب ولا يترك السماع من الرسول ﷺ، وهذا موجود عند الصحابة ﷺ كلهم، فإذا سمع الواحد منهم الكلمة؛ أثرت عنده أثراً عظيماً وبالغاً.

وهذا الحديث أيضاً لم أجد من رواه غير عمران بن حصين، وإن كان اطلاعي قاصراً، ولكن بحثت فلم أجده. وهو في «صحيح البخاري» في عدة مواضع، والبخاري ـ كما هو معلوم ـ يُفرّق الأحاديث؛ لأنه يترجم عليها تراجم متعددة؛ لهذا يقول العلماء: «إن فقه البخاري في تراجمه»، ولذا زادت تراجمه على الأحاديث زيادةً كبيرةً.

وقوله: «قال رسول الله: اقبلوا البشرى يا بني تميم»؛ معناه: أن هذا ليس أول الحديث.

قالوا: «قد بشرتنا فاعطنا. فقال: اقبلوا البشرى يا أهل اليمن» فيه شيء حُذف، والتقدير كما في «صحيح البخاري»: فدخل أهل اليمن، فقال لهم رسول الله ﷺ: «**اقبلوا البشرى يا أهل اليمن، إذ لم يقبلها إخوانكم بنو تميم، فقالوا: قد قبلنا**»؛ يعني: فهموا مراد الرسول ﷺ، والبشرى التي بشرهم بها أنهم دخلوا في الإسلام فأسلموا، فمن أسلم فقد سلم من عذاب الله ـ جل وعلا ـ، وغنم بالسعاده الأبدية في الدنيا والآخرة، هذه هي البشرى التي بشرهم بها ﷺ، ولكنّ بني تميم لم يقبلوها، وهذه طبيعة يطبع الله ـ جل وعلا ـ عليها بعض الناس، فيكون عندهم جفاء.

ولهذا لما جاء وفدهم صاروا ينادون الرسول ﷺ من وراء بيوته: اخرج إلينا، فإن مدحنا زين وذمنا شين، فأنزل الله الآيات: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [الحجرات: ٤، ٥]، ولما سمع كلامهم ﷺ يقولون: مدحنا زين وذمنا

شين؛ قال: «ذاك الله»[١]، فالله ﷻ هو الذي مدحه زين وذمه شين، وأما المخلوق فلا يلزم أن يكون مدحه وذمه كذلك.

ومع هذا فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «**بنو تميم أشد أمتي على الدجال**»، ولهذا يقول أبو هريرة: لا أزال أحب بني تميم لثلاث سمعتهن من رسول الله ﷺ، وذكر هذه، وذكر أنه جيء بسبي منهم عند عائشة، فقال النبي ﷺ: «**أعتقيها، فإنها من ولد إسماعيل**»، وجاءت صدقاتهم فقال: «**هذه صدقات قومي**»[٢]، فأحبهم أبو هريرة لأجل هذا الكلام الذي سمعه من النبي ﷺ.

وقولهم: «**فاخبرنا عن أول هذا الأمر**» فيه إشارة إلى شيء موجود ومشاهد، والشيء المشاهد من السماوات والأرض والجبال وغيرها، ولهذا جاء الجواب قال: «**كان الله قبل كل شيء، وكان عرشه على الماء، وكتب في اللوح المحفوظ ذكر كل شيء**»، فهذا الجواب عن هذا السؤال.

وهذا الجواب لا يدل على أن هذا هو مبدأ المخلوقات؛ لأنه جاء جواباً عن شيء مُعيّن، ولم يأتِ أن أول المخلوقات السماوات والأرض، كما أنه صريح بأن العرش والماء قبل خلق السماوات والأرض، والعرش والماء كلاهما مخلوق لله ـ جل وعلا ـ، ويجوز أن يكون قبل ذلك أيضاً ما شاء الله.

والله ـ جل وعلا ـ لم يزل يفعل ما يشاء من الأزل، فلا مبدأ لهذا، ليس لله بداية ـ تعالى الله وتقدس ـ، كما أنه ليس لبقائه نهاية، أولٌ بلا ابتداء، وآخر بلا انتهاء، ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾ [الحديد]، وهذه الأوصاف الأربعة المتقابلة لا يمكن أن تكون لمخلوق، من كان أولاً فإنه لا يكون آخراً، ومن كان آخراً فإنه لا يكون أولاً، ومن كان فوق فلا يكون محيطاً بالشيء، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾،

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٦٧)، من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٣٢٦٧).

(٢) أخرجه البخاري (٢٤٠٥، ٤١٠٨)، ومسلم (٢٥٢٥).

فإذا كان فوق فلا يكون باطناً، وإذا كان باطناً فلا يكون ظاهراً، وهذا شيءٌ مشاهد، فلا يمكن هذا الوصف إلا لله ـ جل وعلا ـ، فهو له البقاء الدائم كما أنه أول بلا بداية ـ تعالى وتقدس ـ، فإذا لم يكن لا لوجوده مبدأ؛ فهو فعال لما يريد وصفاته معه دائماً.

ولا يجوز أن يتجدد شيءٌ لا وجود له؛ لأن هذا معناه أنه كان ناقصاً ـ تعالى الله وتقدس عن ذلك ـ، فهو كامل بصفاته بالأزل، ولكن عقولنا قاصرة ومحدودة، فيجب أن نقف عند حدنا، ولهذا يقول الرسول ﷺ: «**لا تفكروا في الله، وتفكروا في خلق الله**»(١)؛ لأنه لا يمكن أن تصل إلى نتيجة، أما التفكر بالمخلوقات فنعم، والله ـ جل وعلا ـ يقول: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝٤٢﴾ [النجم]، يقول بعض المفسرين: إذا جال فكرك في المخلوقات فله سعة، أما إذا ذهب الفكر إلى الله فإنه يجب أن ينتهي ويقف، ويكون التفكر في المخلوقات فقط.



(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٦٧)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٦٣١٩) والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٢٠)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما وذكره الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٧٨٨).

﴿٣٥﴾ وعن جبير بن محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه، عن جده؛ قال: جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله جهدت الأنفس، وضاعت العيال، ونُهكت الأموال، وهلكت الأنعام، فاستسق لنا الله، فإنا نستشفع بك على الله، وبالله عليك.

فقال رسول الله ﷺ: «**ويحك! أتدري ما تقول؟**». وسبح رسول الله، فما زال يسبح حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه، ثم قال: «**ويحك! إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه، شأن الله أعظم من ذلك، ويحك أتدري ما الله؟! إن عرشه على سماواته لهكذا**». وقال بأصابعه مثل القبة عليه، «**وإنه لَيَئِطُّ به أطيط الرحل بالراكب**» رواه أحمد، وأبو داود[1].

الشَّرْحُ

هذا الحديث فيه أن الأعرابي الذي لم يعرف قدر الله وعظمته قال هذا القول: «**نستشفع بك على الله**»، وهذا لم ينكره الرسول ﷺ.

والشفاعة: ضم الدعاء إلى دعاء الطالب المستشفِع؛ لأن دعاءه أولاً كان فرداً، فلما انضم دعاء غيره إليه صار شفعاً، والله ﷻ وتر يحب الوتر.

وأنكر الرسول ﷺ أشد الإنكار على الأعرابي **قوله**: «**نستشفع بالله عليك**»، وذلك أن الله ﷻ لا يستشفع به على أحد من خلقه، فعظمته وقدره أعظم من ذلك، فكيف يكون شافعاً عند أحد؟

ومن المعلوم أن الشافع يكون أدنى مرتبةً من الذي يُشفع عنده، فطلب الشفاعة دعاء وسؤال، فهل يجوز أن الله تعالى يسأل أحداً من المخلوقين؟ تعالى الله وتقدس عن هذا القول، ولهذا تغير وجه رسول الله ﷺ وصار يسبح ربه: «سبحان الله.. سبحان الله..» تعظيماً أن يتصف الله ﷻ بهذه الصفة.

وهذا الأعرابي جاهل، فلم يضربه أو يزجره أو يعاقبه، وإنما علمه

(١) «سنن أبي داود» (٤٧٢٨)، وضعفه الألباني في «ضعيف أبي داود» (١٠١٧).

فقال: «**ويحك**» وهي كلمة توجع؛ يعني: أنك وقعت في أمر عظيم، فيجب أن تتدبر وتتعلم. ثم علَّمه النبي ﷺ **فقال**: «**أتدري ما الله؟ شأن الله أعظم**»، ثم ذكر شيئاً من مخلوقاته العظيمة، **فقال**: «**إن عرشه على سماواته لهكذا**»، ثم قبب يده ووضعها فوق، ثم **قال**: «**وإنه ليئط به أطيط الرحل بالراكب**»؛ يعني: إذا حُمل عليه.

والأطيط: صوت الرَّحل من الثقل الذي يكون عليه.

والمعنى أنه أكبر ـ جل وعلا ـ وأعظم من المخلوقات كلها، فذكر شيئاً من عظمته حتى يعرف شيئاً من قدر الله.



﴿٣٦﴾ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«قال الله عز وجل: كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، أما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني كما بدأني، وليس أولُ الخلق بأهونَ علي من إعادته، وأما شتمه إياي فقوله: اتخذ الله ولداً، وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد»**.

﴿٣٧﴾ وفي رواية: عن ابن عباس رضي الله عنهما: **«وأما شتمه إياي فقوله: لي ولد، وسبحاني أن أتخذ صاحبةً أو ولداً»** رواه البخاري(١).

الشرح

قوله: «كذبني ابن آدم»؛ أي: جنس بني آدم، ولا يلزم أن يكون كل بني آدم، لكن وقع هذا منهم، فقولهم: إنه لن يعيدنا؛ تكذيب منهم. والمقصود هم الذين يقولون: ﴿وَقَالُواْ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤]، هذه عقيدة الدهريين، ولا تزال هذه العقيدة موجودة في بني آدم.

فالملاحدة ينكرون أن يكون هناك بعثٌ أو جنة أو جزاء أو غيرها، بل ينكرون وجود الله ـ جل وعلا ـ، وهو عمىً ظاهر جداً، فلو فكروا في أنفسهم وما حولهم من المخلوقات؛ لعلموا أن هذا الاعتقاد باطل، ولا يسوغ لأحد أن يقول ذلك أو يعتقده، فقول ابن آدم: إنه لا يعيده كما بدأه تكذيبٌ لربه ـ جل وعلا ـ.

ولهذا كرر ـ جل وعلا ـ الآيات التي فيها المبدأ؛ حتى يكون ذلك دليلاً على الإعادة؛ لأن الابتداء ـ وهو إيجاد الشيء على غير مثال سابق له واختراعه ـ أشدُّ من إعادته، وهذا شيء مشاهد، والله يخاطب الناس بما يفهمون ويعرفون، وخطابه هذا حتى يتصوروا ويعرفوا ذلك.

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٠٢١، ٤٢١٢، ٤٦٩٠، ٤٦٩١).

وقد ذكر الله ﷻ هذا في أماكن كثيرة من كتابه؛ وذلك ليدلل على أنهم سوف يعادون ويجزون بأعمالهم، ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧﴾ [الطارق]؛ يعني: فكر أيها الإنسان في خلقك، وذكر ﷻ أنه خلقه من ماء مهين، وهو المني، وأنه جعل منه الذكر والأنثى، ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۝٤٠﴾ [القيامة]، فذِكرُه هذا حتى يكون دليلاً على إعادة الخلق مرة ثانية.

الآن مثلاً لو اجتمع أطباء العالم بما أوتوا من إمكانيات، وجيء لهم بنطفة ووضعت أمامهم، فهل يستطيعون أن يحيلوها إلى دم؟! فكيف بهذه النطفة يخلق الله تعالى منها المخلوق الذي فيه السمع والبصر، والأيدي والأرجل، والعقل والفكر، كيف أن الذي صوره هذا التصوير سيعيده بعدما يكون تراباً مرة أخرى ويجزيه بأعماله؟ فالمقصود: الفكر في هذا.

ثم كذلك يفكر في طعامه، قال الله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝٢٤ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۝٢٥ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۝٢٦ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝٢٧ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۝٢٨ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۝٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ۝٣٠ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ۝٣١ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ۝٣٢﴾ [عبس]. انظر إلى هذه الأرض الهامدة اليابسة، فإذا أنزل الله عليها الماء ثارت وأخرجت أنواع النبات متنوع الألوان، هذا أصفر وهذا أحمر وهذا أخضر، مع أن التراب واحد، والماء واحد، والروائح مختلفة، كيف هذا الاختلاف؟! فهل هذا النبات يستطيع أن ينبت بنفسه؟

ولهذا تحدى الله ﷻ ـ كما في الحديث القدسي ـ المصورين أن يخلقوا ذرة وهي أصغر المخلوقات، أو أن يخلقوا حبة، ومع هذا لا يستطيعون أن يوجدوا حبة تنبت، مع ما عندهم من الإمكانيات التي أوتوها، ولهذا قال في الحديث القدسي: **«ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي؟ فليخلقوا ذرة، أو ليخلقوا حبة، أو شعيرة»**[1]، فهذا من الأمور التي فيها مسبة لله ـ جل وعلا ـ.

وقوله: «شتمه إياي» الشتم هو السب؛ أي: يصفه بخلاف ما هو عليه.

---

(١) أخرجه البخاري (٧١٢٠)، ومسلم (٢١١١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقوله: «**فدعواه أن لي ولداً**»؛ أي: يدّعي ابن آدم الولد لله ـ تعالى عن ذلك وتقدس ـ.

وقوله: «**وأنا الأحد الصمد**» الصمد هو الذي لا يكون له شيء يُشتق منه ولا يُشتق منه شيء ﷻ، وفُسِّر الصمد بأنه الغني بذاته عن كل ما سواه، فهو الذي يصمُدُ إليه كل شيء ويحتاج إليه. كما أن الصمد الذي كمُل في كل شيء وأصبح مستغنياً عن كل شيء، وهذا تفسير الصمد المشهور عند السلف، وإذا جاءت تفسيرات أخرى فهي تعود إليه، كقول بعضهم: الصمد الذي لا يدخل فيه شيء ولا يخرج منه شيء. وبعضهم يقول: الصمد الذي لا جوف له، فكل ما كان له جوف أو كان محتاجاً إلى أكل أو شرب فإنه ناقص ولا يجوز أن يكون إلهاً.

ولهذا لما ذكر الله قول النصارى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ٧٢]؛ قال في الرد عليهم: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥] فهو يحتاج إلى أكل، فكيف يكون إلـهاً، ثم إذا أكل الطعام؛ فإنه يحتاج إلى إخراج، وهذا نقص أيضاً، فليعتبر الإنسان بهذا.

مرَّ على مالك بن دينار رَحِمَهُ ٱللَّهُ المهلبُ بن أبي صفرة ـ وهو أحد قادة جيوش المسلمين ـ يتبختر في مِشْيَتِه، فقال له: إن هذه مِشية يُبغضها الله. فقال له المهلب: ألم تعرفني؟ قال: بلى، أوَّلُك نطفة مذِرة، وآخرك جيفة قذرة، وأنت فيما بين ذلك تحمل العذرة. فقال: لقد عرفتني حق المعرفة[1]. فالذي يحمل العذرة كيف له أن يتكبر؟!

فالمقصود من هذا: أن يعرف الإنسان قدره وحقه، ويعرف حق الله ـ جل وعلا ـ وقدره، فلا يتكبر ولا يتجبر، وهو محتاج أشد الحاجة إلى ربه ﷻ.

فالصمد هو الذي تصْمُدُ إليه الخلائق لحاجتها كلها إليه، وهو الذي استغنى بذاته عن كل شيء ـ تعالى الله وتقدس ـ. فيلزم من هذا أنه لم يلد ولم

(١) «سير أعلام النبلاء» للذهبي (٥/ ٣٦٢).

يولد؛ لأنه غني، ولأن الولد يقصد به المعاونة والإرث وغير ذلك، فهو يكون للضعيف المحتاج، أما الغني فلا يحتاج إلى كل ذلك، وكل كمال لله ـ جل وعلا ـ، فله الكمال المطلق، فإذا فهم الإنسان هذا علم أن الله ﷻ له الكمال المطلق من كل وجه، في ذاته وفي أوصافه وفي أفعاله، وبذلك يكون قد عرف ربه ﷻ، وإلا لم يعرف الله ـ جل وعلا ـ.

أما قوله: «وسبحاني لم أتخذ صاحبة ولا ولداً»، الصاحبة هي الزوجة، ومن أراد الولد فإنه لا بد له من زوجة، وإن كان الله نوَّع الخلق؛ ليبين قدرته على كل شيء:

فالنوع الأول: مَنْ خُلق من تراب بلا أب ولا أم، وهو آدم ﷺ، فانظر كيف المخلوق الحي من دم ولحم وعظام يكون أصله من تراب؟ هذا دليل على القدرة العظيمة التي لا يعجزها شيء.

النوع الثاني: من خُلق من ذكر من دون أنثى، وهي زوجة آدم خُلقت منه، فهي بضعة أخذت منه وهو نائم، فقام وهي جالسة بجواره، قال: ما أنت؟ قالت: أنا زوجتك، ليسكن إليها.

النوع الثالث: من خلقه من أنثى فقط، وهو عيسى ﷺ، وهذا ليبين الله ـ جل وعلا ـ تمام قدرته، وأنه على كل شيء قدير.

النوع الرابع: من خلقه الله من ذكر وأنثى، وهم بقية الخلق، وصار هذا أمراً معتاداً، وليس بمستغرب عند الناس، إلا أنه آية.

ثم بعد أن يموت ابن آدم يعود كله تراباً، ولا يبقى منه إلا عَجْبُ الذنب، وهو جزء صغير جداً في أسفل الظهر قد لا يدرك بالنظر، ومنه ينبت الإنسان، فإذا جاء يوم القيامة يرسل الله ـ جل وعلا ـ مطراً لا يُكنُّ منه بيت ولا شيء، فيمضي في الأرض ويكون أربعين يوماً يصب على الأرض، وجاء أنه ليس مثل هذا المطر، فإنه نوع آخر، ثم يخرج الناس من قبورهم، أجساد بلا أرواح، أما الأرواح فلا تموت، فهي إما معذبة أو منعمة. والموت عبارة عن خروج الروح من البدن، فيكون الموت للبدن فقط، أما الروح فلا تموت.

ثم إذا كمل نباتهم بحيث لو شاهدتهم لعلمت أن هذا فلان الفلاني الذي تعرفه كما مات، وهذا من تمام قدرة الله، وهي الأجزاء التي تفرقت في الأرض يجمعها الله - جل وعلا -، ثم ينفخ في الصور النفخة الثانية، فتعود كل روح إلى بدنها، ثم يقومون فزعين يقولون: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَاۜ﴾ [يس: ٥٢]، والمرقد هو القبر، ثم يحشرون ويجمعون ويقفون بين يدي الله - جل وعلا -، وكل هذا سوف نعيشه، أعاننا الله والمسلمين جميعاً عليه.

فالمقصود: أن الإنسان ظلوم جهول، وإذا اجتمع الظلم والجهل يكون الشقاء. لهذا أخبر - جل وعلا - بهذا الحديث القدسي أن ابن آدم يشتمه ويكذبه، ولم يكن له ذلك؛ لأن الأدلة على هذا واضحة وظاهرة، والله - جل وعلا - يقول: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]، والقادر على خلق السماوات والأرض لا يَعْجِزُ عن إعادة الإنسان.



﴿٣٨﴾ ولهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«قال الله تعالى: يؤذيني ابن آدم يسب الدهر، وأنا الدهر، بيدي الأمر، أقلب الليل والنهار»**(١).

الشَّرْحُ

هذا الحديث تقدم الكلام عليه، والمسبة والأذى يقع من ابن آدم على الله، وهو الشيء الذي يكون أثره ضعيفاً، وإنما يكون بكلام سيئ، فهو أذىً ولكنه لا يلحق الضر بالله ـ جل وعلا ـ، فالضر لا يلحقه من أحد تعالى وتقدس.

والمقصود بمسبة الدهر: الوقت والزمن، والليل والنهار، وهذا اعتاده كثير من الناس، فهم يضيفون الأشياء إلى الدهر، وهو مخلوق مسخر، فمسبته تعود إلى الخالق. فهل من الممكن أن يُسب الحائط أو العمود إن كان غير مستقيم؟ أو يُسب الذي بناه وأوجده؟ وإنما يُسب الصانع نفسه، فهو الذي يوجه إليه ذلك؛ لأنه هو الذي أوجده وصنعه.

ومسبة الدهر لا تزال توجد في كثير من الناس، ولا سيما الشعراء، فيوجهون السب إلى الدهر، ويقولون: إنه أخنى علينا وظلمنا، وإنه رفع من لا يستحق الرفع، ووضع الذين يستحقون الرفع، فكثير من الأدباء وغيرهم يقول هذا القول، وهو من أسوأ الأعمال، نسأل الله العافية؛ لأن السب يتوجه إلى الخالق ـ جل وعلا ـ.

أما قوله: «وأنا الدهر»: فسره بقوله: **«بيدي الأمر أقلب الليل والنهار»**، وليس معناه: أن الدهر من أسماء الله تعالى كما توهم ابن حزم، وزعم أن الدهر من أسماء الله، وهذا خطأ ظاهر، ولا يتابع على ذلك.



---

(١) أخرجه البخاري (٤٥٤٩، ٧٠٥٣)، ومسلم (٢٢٤٦).



باب
الإيمان بالقدر

الشرح

القدر مأخوذ من التقدير؛ يعني: تقدير الأشياء التي لم توجد، فهو قدرها؛ أي: علمها ثم كتبها، والقدر كان ولا يزال بعض الناس ينكره، أو ينكر أجزاء منه، وهو أحد أركان الإيمان الستة، فالذي لا يؤمن به ليس بمؤمن، كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه لما سئل عن الإيمان، قال: «**أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، وباليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره**»، السائل هو جبريل. فقال له: «**صدقت**»[1]، بأن هذا هو الإيمان.

وعند سبر كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ وتفهمها يتبين أن للقدر درجات، فإذا اجتمعت عند الإنسان واعتقدها وآمن بها؛ فقد آمن بالقدر، وإذا أخل بشيء منها؛ فإنه أخل بإيمانه، وقد علم الصحابة ذلك، وقالوا: إن الإيمان بالقدر من الأمور اللازمة، فإذا لم يؤمن بالقدر؛ فقد اختل إيمانه، ولا يكون مؤمناً، بل يكون كافراً، وتبرؤوا ممن لم يؤمن به.

فعن يحيى بن يَعْمر قال: حججت أنا وحُمَيْدٌ الحِمْيَري، وقلنا: لعلَّنا نُوَفَّق إلى أحد من صحابة الرسول ﷺ، فلما أتينا المدينة لقينا عبدَ الله بن عمر خارجاً من بيته ذاهباً إلى المسجد، فاكتنفته أنا وصاحبي، وظننت أن صاحبي يَكِلُ الكلام إليّ، فقلت: يا أبا عبد الرحمٰن! إنه خرج قِبَلَنا أناس يقرؤون

---

(١) أخرجه مسلم (٨)، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

القرآن ويتقفَّرون العلم ـ أي: يبحثون عنه ويطلبونه ويحرصون عليه ـ ولكنهم يقولون: إن الأمر أُنف ـ أي: لم يُعْلم وإنما يُستأنف إذا جاء وقته ـ. فقال عبد الله بن عمر: إذا لَقيتَ أولئك فأخبرهم أني منهم بريء، وأنهم براء مني، والذي يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أُحدٍ ذهباً فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر، ثم روى الحديث عن أبيه في ذكر الإيمان والإسلام والإحسان.

والإخبار بأن الذي لا يؤمن بالقدر غير مؤمن: مروي عن ابن عباس وابن عمر وحذيفة وغيرهم من الصحابة ﭫ.



وقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ۝١٠١﴾ [الأنبياء: ١٠١].

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قَدَرٗا مَّقۡدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨].

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ۝٩٦﴾ [الصافات].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ ۝٤٩﴾ [القمر].

الشَّرْحُ

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ۝١٠١﴾ هذه الآية تدل على أن الحسنى سبقت لمن أراد الله ـ جل وعلا ـ سعادته.

وقوله تعالى: ﴿سَبَقَتۡ﴾؛ يعني: قبل وجودهم، فدلت الآية على علم الله السابق، وكذلك الكتابة كما يأتي.

وقوله ـ جل وعلا ـ: ﴿وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قَدَرٗا مَّقۡدُورًا﴾؛ يعني: أنه قُدِّر أولاً، ومقدور: أي: ميسور عليه وسهل.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ۝٩٦﴾؛ أي: خلق أجسامكم التي فيها أرواحكم وأفكاركم، وفيها كل صفاتكم، وخلق عملكم الذي تعملونه.

واختلف أهل السُّنَّة والقدرية في «ما» التي في الآية، وكل فريق يتنازعها:

فأهل السُّنَّة يقولون: إنها مصدرية.

والقدرية يقولون: إنها موصولة.

وإذا كانت «ما» مصدرية؛ فيكون المعنى: (خلقكم وخلق عملكم)، فتدخل أفعال الناس فهي مخلوقة، وهذا قول أهل السُّنَّة، وإن كان الإمام ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ في «تفسيره»[1] رجح أنها موصولة، وهذا هو الحق فهي موصولة، وإذا كانت موصولة؛ فإنها لا تدل على المذهب الباطل، بل تدل على المذهب

---

(١) «جامع البيان» للطبري (٢١/ ٧٠).

الحق، فالله خلقكم وخلق الذي تعملونه؛ لأن هذه الآية في قصة إبراهيم حينما جادلهم في كونهم يعبدون الأصنام، فيقول إبراهيم لقومه: كيف تعبدون شيئاً تصنعونه أنتم، والله خلقكم وما تعملون، فكيف تعبدون الطين الذي تصورونه والخشب الذي تنشرونه.

فـ«ما» عبارة إما عن خشب يُنجر ويجعل صنماً، وإما عن طين وإما عن حجر، وهذه مخلوقة لله ـ جل وعلا ـ، ولكن الذي ينجر ويصور الطين يجعله في صورة أسد أو ما أشبه ذلك ويعبده أو الحجارة يكسرها ويجعلها بهذه الصفة، عمله هذا من أين أتى به؟ هل هو خلقها؟ خلق له يداً وخلق له قدرة؟ فالقدرة التي في الإنسان والإرادة لله، وإذا كانت الإرادة والقدرة مخلوقة لله تعالىٰ، وهو عمل العبد يصدر منه حقيقة ويضاف إليه حقيقة، فالعبد وعمله كله مخلوق لله تعالى.

قيل لأعرابي: بم عرفت ربك؟ فقال: «بتغيير الإرادات، ونقض العزائم»، وهؤلاء عرب يفهمون وإن لم يتعلموا.

فالمقصود: أن القدر عبارة عن أمور أربعة ـ فتنبَّه ـ:

الأول: علم الله الأزلي الذي لا يفوته شيء، فالله قد علم الأشياء كلها قبل وجودها.

الثاني: كتابته ـ جل وعلا ـ، فكل شيء مكتوب في كتاب سابق كما في الحديث الذي سيأتينا.

الثالث: أنه هو الخالق وحده، فليس له شريك في الخلق تعالى الله وتقدس.

الرابع: أنه لا يقع شيء إلا بمشيئته، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

فهذه أمور أربعة لا بد من اجتماعها، فإذا اجتمعت هذه الأمور عند الإنسان وآمن بها فقد آمن بالقدر.

أما العلم؛ فقد أصبح مجمعاً عليه؛ لأنه في أول الأمر أنكره من أنكره،

ثم لما قيل لهم: إنه كفر رجعوا، فانقرضت الطائفة التي تقول: إن الأمر أُنُف وأنكرت العلم، فلا وجود لها بين المسلمين، وكذلك الكتابة لا ينكرها أحد، وأدلتها كثيرة جداً وظاهرة، فالله كتب علمه بالأشياء كلها.

بقيت المشيئة والخلق، وهي التي نازع فيها القدرية، فهم يقولون: إن الإنسان هو الذي يشاء الأشياء، فإذا أراد الإنسان أن يَكْفر كفر، وإذا أراد أن يصلي صلى، وإذا أراد أن يؤمن آمن، ولا دخل لمشيئة الله في ذلك.

وشبهتهم في هذا: أنهم يقولون: إن الظلم على الله ﷻ غير جائز، فهو الحكم العدل، ولو قلنا: إن الله هو الذي شاء له الكفر أو المعصية ثم عذبه لأجل ذلك؛ لكان هذا ظلماً.

هذا تصورهم، فهم لم يستطيعوا أن يجمعوا في عقولهم وأفكارهم بين شرع الله وقدره، وهذا قد أنكره بعض المشركين، فقالوا للرسول ﷺ: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، ثم قولهم في سورة النحل: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [النحل: ٣٥]، وقالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ [الزخرف: ٢٠]. وهذا يقولونه خطاباً للرسول ﷺ: أنت تنهانا عن الشرك، وهذا الشرك وقع بمشيئة الله، فكونه وقع بمشيئة الله؛ فهو دليل على أنه راضٍ به، وهو مخاصمة لله ـ جل وعلا ـ.

وهكذا قال إخوانهم من الذين أنكروا القدر، فما استطاعوا أن يجمعوا بين شرع الله وقدره، فأمره بالتوحيد لمن كان مشركاً أمر شرعي، والشرك وقع بمشيئة الله القدرية.

فنقول: إن الله ـ جل وعلا ـ كتب الأشياء كلها قبل وجودها، وقد يشاء الشيء الذي لا يحبه ولا يريده، ولهذا خلق الشياطين وخلق الكفار؛ حتى يتبين الطائع بالإرادة والاستطاعة ممن يعصيه.

أما أفعال الإنسان؛ فقد جُعلت إليه، وقيل له: هذا الحق وهذا الباطل، فإذا فعلت الحق وامتثلت الأمر؛ فأنت تُجزى خير الجزاء، أما إذا أبيت وتركت ذلك؛ فسوف تُعذب، والأمر إليك: آمن أو اكفر، فالإنسان أُمر بالشيء الذي

يستطيعه، ولهذا بعضهم يؤمن وبعضهم يكفر، وكلهم عندهم القدرة على ذلك.

وفي الإيمان بالقدر: بيان فضل الله على خلقه، فكونه يخلق في القلب حب الخير وكراهة الشر؛ فهذا فضل الله على الإنسان، فجعله محباً للإيمان ومريداً له كارهاً لضده، وإذا منع هذا الفضل لم يعطه إياه، فهو يضل بنفسه، وتضله الشياطين، وهذا ليس من الظلم في شيء، وإنما منعه الله فضله، وهو يؤتي فضله من يشاء.

ولهذا تكون الخصومات بين أهل السُّنَّة وبين القدرية الذين ينكرون هذا الأمر، كما وقع لأبي إسحاق الإسفراييني مع القاضي عبد الجبار المعتزلي، وهو أحد رؤوساء القدرية، وكان صاحباً وصديقاً للصاحب ابن عباد، وهو وزير يحب العلم والعلماء، وكان يجمعهم في بيته ويجعلهم يتناظرون ويستمع إلى كلامهم، وكان مصاحباً لهذا القدري عبد الجبار المعتزلي، وكان الناس يوماً مجتمعين عنده، وفيهم العلماء والأدباء، وعبد الجبار جالس بجواره وهو بصدر المجلس، فدخل أبو إسحاق الإسفراييني، فقال عبد الجبار: سوف أخزي هذا الداخل؛ لأنه من أهل السُّنَّة.

فلما دخل وصار يسمع الكلام قال عبد الجبار: سبحان من تنزه عن الفحشاء. ففهم الإسفراييني مقصوده، فأجابه على الفور قائلاً: سبحان من لا يكون في ملكه إلا ما يشاء.

فعبد الجبار يقول: أنتم تقولون: إن الله خلق الكافر وقدَّر عليه الكفر وهذه فحشاء. فقال له أبو إسحاق: أنتم تقولون: إن الله شاء للكافر أن يؤمن، والكافر شاء الكفر، فوجدت مشيئة الكافر ولم توجد مشيئة الله!! ونحن ننزه الله عن هذا، سبحانه أن يوجد في ملكه شيء لا يشاؤه تعالى الله وتقدس.

فقال عبد الجبار: أيريد ربنا أن يُعصى؟

فقال له أبو إسحاق: أيعصى ربنا قسراً؟ يعني: يُعصى وهو لا يريد؟ نفس المسألة عادت.

فقال عبد الجبار: أرأيت إن حكم علي بالردى، أأحسن إلي أم أساء؟

قال: إن كان منعك حقك فقد أساء، وإن كان منعك فضله؛ فهو يؤتي فضله من يشاء.

فقال الحاضرون: والله ليس عن هذا جواب، فكأنما أُلقم حجراً فسكت، وأُفحم، وأصابه الخزي، ومع هذا لا يرجع ويبقى على باطله، ومثل هذه المناظرات التي تبين الحق وقعت لكثير من العلماء، ويكون فيها عبرة؛ لأن الإنسان يبقىٰ على الشيء الذي يعيش عليه غالباً ويعتقده.

فالمقصود: أن الإيمان بالقدر أصل من أصول الإيمان، والمؤلف استدل على هذا **بقوله تعالى**: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات]؛ يعني: عملكم مخلوق، وأنتم مخلوقون.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ هذا ما خرج عنه شيء، كل شيء مخلوق، والقدر يعني: تقديره قبل وجوده، وهو عبارة عن علم الله وكتابته للشيء، ثم يقع على وفق علمه الأزلي، وعلى وفق كتابته، بلا زيادة ولا نقصان.

والكتابة تتنوع، ولكن كلها ترجع إلى الكتابة الأولى الأزلية؛ كما في حديث عبد الله بن مسعود ﷺ قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: «**إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون علقةً مثل ذلك**»، والعلقة قطعة دم، «**ثم يكون مضغة مثل ذلك**»؛ أي: لحمة صغيرة على قدر ما يأكل الإنسان، يمضغ الشيء، «**ثم يُبْعَث إليه الملك، فينفخ فيه الروح، ويكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد**»[1]، أربعة أشياء يكتبها: الأجل والرزق والعمل والشقاء أو السعادة وهو في بطن أمه، ولا يمكن أن يعمل غير هذا، أو يأكل غير هذا، فإذا استكمل رزقه وعمله وأجله مات.

أما القدرية فيقولون: إن المقتول قُطع رزقه وأجله!! وهذا كذب، بل انتهى رزقه وأجله وقُتل، ولكن الأسباب تختلف.

ومن ذلك أيضاً أنه إذا اصطدمت سيارة ومات الذي فيها، قال القدرية:

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٣٦)، ومسلم (٢٦٤٣).

هذا انقطع رزقه بهذا السبب!! هذه السيارة قطعت رزقه وقطعت أجله، وإلا لو تُرِكَ لعاش، وأما أهل السنة فيقولون: إن هذا هو المقدر، فلا بد من وقوعه، لهذا المسلمون إذا وقعت مثل هذه الأمور، قالوا: الحمد لله، قدرٌ قدَّره الله، ولا حيلة لنا فيه، ولا يمكن أن يختلف، نحن نؤمن بقدر الله ونسلم لذلك، ويكون لهم تسلية في هذا.

المقصود أن قولهم: كتابة المَلَكِ الرزق والأجل تتفق مع الكتابة الأولى، ولكن الملك لم يطلع عليها إلا في هذا الوقت، قيل له: اكتب كذا، وهي تملى عليه، وهي موجودة في اللوح المحفوظ، وتتفق معه.

كذلك الكتابة التي تكتبها الملائكة في الصحائف، فإنها لا تخرج عن الكتابة السابقة؛ لأن كل إنسان يعمل، وقد علمه الله وكتبه في الأزل، فهو يقع على وفق الكتابة السابقة، وعلى وفق علم الله ومشيئته، بلا زيادة ولا نقص.

وكذلك الأمور التي تكون في ليلة القدر، كما قال الله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [الدخان]، جاء عن الصحابة وغيرهم: إن كل ما يقع في السنة المستقبلة يُقدَّر في تلك الليلة، وهذا يتفق مع الكتابة السابقة، وإنما هي أمور فصِّلت فقط.

وهناك أمر آخر أيضاً ذكره المفسرون عند قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمٰن: ٢٩]، جاء عن ابن عباس: أن الله ـ جل وعلا ـ كل يوم ينظر نظرة يخلق فيها ما يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، ويرزق من يشاء، ويَحْرِم من يشاء، إلى غير ذلك، فله ـ جل وعلا ـ تصرفه في خلقه في كل يوم، وهذا كله يتفق مع الكتابة السابقة ولا يختلف، وهو داخل في قوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر].



﴿٣٩﴾ وفي «صحيح مسلم» عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله قدَّر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء»**[١].

﴿٤٠﴾ وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما منكم من أحد إلا وقد كُتب مقعده من النار ومقعده من الجنة»** قالوا: يا رسول الله، أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل؟ قال: **«اعملوا، فكل ميسَّر لما خلق له، وأما من كان من أهل السعادة فسَيُيَسَّر لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاوة فسَيُيَسَّر لعمل أهل الشقاوة»**، ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾﴾ [الليل] متفق عليه[٢].

الشرح

حديث عبد الله بن عمرو يدلنا على أن التقدير سبق الخلق كله بخمسين ألف سنة، وكل ما يقع من المخلوقات أو صفات المخلوقات أو أعمالها فهي مكتوبة ومسجلة.

وأما حديث علي؛ فهو يبين لنا أن الإيمان بالقدر أمرٌ لا بد منه، وأنه يَبعث على العمل، ولا يَبعث على الاتكال والكتابة.

وقوله: «ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة»، هذا علم الله المحيط بكل شيء وهو الأزلي، فهو كتب هذه الأشياء وعلم بها، وقد علم أهلَ الجنة وأهل النار قبل وجودهم بأسمائهم وأعيانهم، وكتب ذلك - جل وعلا -، ثم إذا وجدوا عملوا هذه الأشياء التي يستحقون بها هذا المقعد على وفق علم الله، فالله عَلِم أنّ هذا المخلوق سيعمل كذا وكذا

(١) أخرجه مسلم (٢٦٥٣).

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٦٦)، ومسلم (٢٦٤٧).

وكَتَبَه.

لهذا قالوا: «أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل؟» قال: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له»؛ أي: سوف يعمل الشيء الذي خُلق له، ولا يقع جزاء إلا على العمل، وليس فيه دليل على أن الكتابة تُرغم الإنسان على العمل، وإنما فيه أن علم الله سبق العمل، فالله كتب في الأزل أن هذا العبد سيفعل كذا وكذا.



﴿٤١﴾ وعن مسلم بن يَسار الجُهَني قال: سئل عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن هذه الآية: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢]. فقال عمر رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ سئل عنها، فقال: «**إن الله خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه، فاستخرج منه ذرية، فقال: خلقت هؤلاء للجنة، وبعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح ظهره، فاستخرج منه ذرية، فقال: خلقت هؤلاء للنار، وبعمل أهل النار يعملون**». فقال رجل: يا رسول الله ففيم العمل؟ فقال: «**إن الله إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله به الجنة، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله النار**»، رواه مالك، والحاكم وقال: على شرط مسلم. ورواه أبو داود من وجه آخر، عن مسلم بن يسار، عن نُعيم بن ربيعة، عن عمر[(١)].

الشرح

حديث عمر مثل الحديث السابق، فالله ـ جل وعلا ـ علم أهل الجنة والنار، وكتب أعمالهم، وأنهم سيعملون على وفق الكتابة السابقة الأزلية، فهو كالأدلة السابقة، وهي متضافرة، وبعضها يصدق بعضاً، وبعضها يبين بعض ويشرحه، وكثير من نصوص الكتاب والسُّنَّة على هذا المنوال، وليس في ذلك أن التقدير والكتابة أمرٌ يرغم الإنسان، فالإنسان لا يدري ما الذي كتب، فلهذا فهم الصحابة من هذا أنه ينبغي الاجتهاد والعمل.

وبعض الجهلة إذا أمرته بالصلاة مثلاً، يقول: لم يكتب لي أن أصلي!!

وما أدراه أنه لم يكتب له أن يصلي؟! هل اطلع على اللوح المحفوظ؟!

---

(١) أخرجه مالك (٣٣٣٧)، وأحمد (٣١١)، وأبو داود (٤٧٠٥)، والترمذي (٣٠٧٥)، من حديث عمر رضي الله عنه.

فهذه مغالطة. وهو يريد أن يبرر لنفسه ويجعل اللوم على القدر، وهذا إجرام؛ فهو عبدٌ يجب عليه أن يمتثل الأمر ويجتهد؛ لأنه يعلم طريق الخير، وهو سهل ميسور، فيجب أن يعمل لسعادة نفسه، ولنجاته من العذاب. أما إن فرط وترك العمل فهذا أخطر، بل هلاك.

والإنسان العاقل يعرف الأمر الذي ينفعه، فكيف يقدم على أسباب العذاب والهلاك؟ وهو ضعيف جداً، وسوف يموت، وأمامه الحساب والعقاب، فيجب أن يتنبه، فإن أطاع فهو السعيد، وإن أبى فعليه الضرر، فلهذا يجب أن يتفكر.

فالمقصود: أن الكتابة والتقدير لا ترغم العبد على فعل معين؛ لأن التقدير عبارة عن علم الله الذي عَلِمَه في هذا المخلوق، فعلم أنه سوف يُخلق ويعمل بهذه الأعمال باختياره وقدرته وإرادته، وهذا لتمام علم الله. وإلا لا يُعذب أحدٌ إلا بعمله الذي اختاره، كما لا يُنعم أحدٌ إلا بعمله الذي اختاره، ولهذا أخبر أن الذين خُلقوا للجنة؛ لا بد لهم أن يعملوا بعمل أهل الجنة باختيارهم وقدرتهم، وأن الذين خُلقوا للنار لا بد لهم أن يعملوا بعمل أهل النار، وهذا قد علمه الله قبل وجودهم وكتبه، ولا يقع إلا بمشيئته وإرادته.



﴿٤٢﴾ وقال إسحاق بن راهويه: حدثنا بقية، فقال: أخبرني الزبيدي محمد بن الوليد، عن راشد بن سعد، عن عبد الرحمٰن بن أبي قتادة، عن أبيه، عن هشام بن حكيم بن حزام؛ أن رجلاً قال: يا رسول الله! أتُبتدأ الأعمال أم قد قضى القضاء؟ فقال: «**إن الله لما أخرج ذرية آدم من ظهره أشهدهم على أنفسهم، ثم أفاض بهم في كفيه، فقال: هؤلاء للجنة، وهؤلاء للنار، فأهل الجنة ميسرون لعمل أهل الجنة، وأهل النار ميسرون لعمل أهل النار**»(١).

الشَّرْح

قوله: «لما أخرج ذرية آدم من ظهره»؛ يعني: هذه الذرية شيءٌ مُقدر قدره الله قبل وجودهم، فلما خلق الله آدم علم كل ذريته، ولا يولد إلا من علم الله ـ جل وعلا ـ أنه سيولد، وعلم أنه سيعمل بعمل أهل الجنة أو بعمل أهل النار.

فهذا إخبار عن علم الله فيهم، فمسحه ظهره واستخراج ذريته منه تقديراً وليس وجوداً كما يزعمه بعض الناس، فيقول: إنهم استخرجوا كأمثال الذر، واستنطقوا واستشهدوا، وهذا روي في حديث، ولكنه معلول لا يثبت.

وقول الله ـ جل وعلا ـ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الأعراف]، فهذا معناه الأمر الذي جعله دليلاً لهم وهو الفطرة، ففطرهم على أنه ربهم الخالق المقدر لكل شيء، القادر على كل شيء.

---

(١) أخرجه البخاري في «التاريخ الكبير» (٢٦٦٤)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٤٣٥)، وصححه الألباني في «ظلال الجنة في تخريج السنة» (١/ ٧٣ ـ ٧٤).

أما استخراجهم بالفعل واستشهادهم واستنطاقهم؛ فلا أحد يذكره، ولا يكون حجة لأحد، وإنما الحجة بإرسال الرسل وإنزال الكتب، وهي التي أخبر الله عنها بقوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، فهذا هو القول الذي يختاره كثير من أهل التحقيق، وقد بيَّن ذلك ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير الآية، وكذلك غيره من العلماء.



﴿٤٣﴾ وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله ﷺ - وهو الصادق المصدوق -: «**إن أحدكم يجمع خلقه في بطنِ أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقةً مثل ذلك، ثم يكون مضغةً مثل ذلك، ثم يبعث الله إليه ملكاً بأربع كلمات، فيكتب عمله وأجله ورِزقه وشقي أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح، فوالذي لا إلـه غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها؛ وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها**» متفق عليه[1].

الشرح

هذا الحديث يدل على أن القدر لا يدخل أحداً الجنة أو النار، وإنما يدخل الإنسان بالعمل.

قوله: «**فيسبق عليه الكتاب**»، هو علم الله وكتابته التي كتبت، وهي أن هذا المخلوق سيوجد ويعمل بكذا وكذا باختياره وقدرته، فلا بد من العمل، ولا يُعذب أحدٌ أو يُنعم بمجرد الكتابة والتقدير السابق، والعمل يتفق مع الكتابة السابقة، فهو عبارة عن علم الله - جل وعلا -.



(١) أخرجه البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣).

﴿٤٤﴾ وعن حذيفة بن أسيد ﷺ يبلغ به النبي ﷺ قال: «**يدخل الملك على النطفة بعدما تستقر في الرحم بأربعين أو خمس وأربعين ليلة، فيقول: يا رب أشقي أو سعيد؟ فيكتبان. فيقول: يا رب أذكر أو أنثى؟ فيكتبان، ويكتب عمله وأثره وأجله ورزقه، ثم تطوى الصحف، فلا يزاد فيها ولا ينقص**» رواه مسلم[1].

الشرح

هذا الحديث كأن فيه مخالفة للحديث السابق، فحديث ابن مسعود فيه أن نفخ الروح في الأربعين الثالثة، ولهذا بنى الفقهاء أحكاماً على هذا، فقالوا: إذا أسقطت المرأة قبل واحد وثمانين يوماً؛ فهذا السقط لا حكم له، فلا تترك الصلاة، ولا تعتد بهذا؛ لأن السقط لم تنفخ فيه الروح.

أما إن كان بعد واحد وثمانين يوماً؛ فإنه يكون قد نفخت فيه الروح؛ يعني: في الأربعين الثالثة، وحديث حذيفة يدل على أن نفخ الروح في «**خمس وأربعين**»؛ وهذا الذي يتفق مع الطب الحديث، فالأطباء يقولون: إن بعض الأجنة يكمل خلقها في خمسة أسابيع، وحديث الرسول ﷺ لا يمكن أن يخالف الواقع، وهذا الحديث يدل على أن بعض الحمل يكون مكتملاً في هذه المدة.

فعلى هذا يجب أن ينظر في هذه الأحكام، فحكم المرأة إذا أسقطت قبل الثمانين يوماً أنها تعتد بها؛ لأن الواقع لا يمكن أن يكون مخالفاً لخبر الرسول ﷺ، والمقصود هنا ذكر التقدير، وليس ذكر الأحكام الفقهية، فهذا محله كتب الفقه.

وهذا الحديث حمله بعض العلماء على التقدير الذي يكون عند الملك حين ينفخ الروح، والأول حملوه على الأمر الواقع، كما ذكر ذلك ابن القيم رحمه الله، وهذا فيه نظر؛ لأننا نقول: إن الواقع صدق هذا الشيء الذي ذكر

---

(١) «صحيح مسلم» (٢٦٤٤).

هنا، فيحمل الحديث الأول على بعض النساء، فالمرأة إذا كانت مثلاً بُنْيتها ضعيفة؛ فإنه يتأخر فيها تكوين الجنين إلى هذه المدة، وبعض النساء إذا كانت بُنْيتها قوية وقابلة لهذا الشيء؛ فإنها تكون غير هذا.



﴿٤٥﴾ وفي «صحيح مسلم» عن عائشة رضي الله عنها قالت: دُعي رسول الله ﷺ إلى جنازة صبي من الأنصار، فقلت: طوبى له، عصفور من عصافير الجنة، لم يعمل سوءً، ولم يدركه. فقال: «**أوَ غير ذلك يا عائشة؟ إن الله خلق للجنة أهلاً، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم، وخلق للنار أهلاً، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم**» رواه مسلم[١].

﴿٤٦﴾ وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**كل شيء بقدر، حتى العجز والكَيْس**» رواه مسلم[٢].

الشَّرْحُ

قوله: «**أو غير ذلك يا عائشة؟!**» هذا النهي من الرسول ﷺ حتى لا يقدم أحد على الحكم على إنسان بعينه، فيقول: هذا في الجنة أو هذا في النار، وإلا فأطفال المسلمين في الجنة؛ لأنهم تبع لآبائهم، بل جاء أن أطفال المشركين كذلك، ولكن جاء النهي عن الكلام في هذا؛ حتى لا يحكم أحدٌ في شيء بدون دليل.

وأما حديث ابن عمر فمعناه أن كل شيء يقع بقدر، «**حتى العجز**» وهو الذي يكون خلقاً في الإنسان. و«**الكَيْس**» عكس العجز.

والمقصود من الحديثين أن الأمور كلها مقدرة.



(١) «صحيح مسلم» (٢٦٦٢).
(٢) «صحيح مسلم» (٢٦٥٥).

﴿٤٧﴾ وعن قتادة رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤﴾ [القدر]، قال: «يُقضىٰ فيها ما يكون في السنة إلى مثلها». رواه عبد الرزاق، وابن جرير[1].

وقد روي معنى ذلك عن ابن عباس، والحسن، وأبي عبد الرحمٰن السُّلمي، وسعيد بن جبير، ومقاتل.

الشَّرْحُ

قوله ـ جل وعلا ـ: ﴿وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾، اختُلف في الروح ما هو؟ هل هو نوع من الملائكة؟ أو أنه جبريل عليه السلام؟

الذي يظهر ـ والله أعلم ـ أنه جبريل، وعطفه عليهم؛ لأنه هو أقرب الملائكة إلى الله ـ جل وعلا ـ، وهو الذي يتولى الوحي ويبلغه مَنْ يأمره الله عز وجل بإبلاغه من الملائكة ومن الرسل من البشر، فهو الواسطة بين خلق الله في إبلاغ أمر الله وبين ربهم تعالى وتقدس، فلهذا عُطف على الملائكة وهو داخلٌ فيهم.

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢﴾ [القدر] وهذا تعظيمٌ لها، ثم ذكر أنه ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ ؛ يعني: في تلك الليلة، وهذا لأمر عظيم كما هو الظاهر من الآية، فهي تتميز بين الليالي كلها.

قال: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣﴾ [القدر]؛ يعني: العمل فيها خيرٌ من العمل في ألف شهر، وألف شهر أكثر من ثمانين سنة، وهذا من الأمور التي تحدو الإنسان للاجتهاد في هذه الليلة؛ حتى يكتسب أجراً كأجر هذا العمر الطويل.

وقوله: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾؛ الإذن قد يأتي ويراد به الأمر؛ أي: بأمر ربهم

---

(١) «تفسير عبد الرزاق» (٢٧١٢، ٣٥٦٩)، «جامع البيان» للطبري (٢٤/ ٥٣٤).

تعالى وتقدس، وهو كقوله ـ جل وعلا ـ في الشفاعة: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]؛ يعني: بأمره.

وقوله: ﴿سَلَٰمٌ هِىَ﴾ [القدر: ٥] الضمير يعود على الليلة، فهي سالمة، أي ليلة القدر ذات سلامة من كل مخوف. وقيل: الضمير يعود على الملائكة ذات تسليم على المؤمنين، والله أعلم.

وقول قتادة: «يُقضى فيها ما يكون في السنة إلى مثلها»، هذا قضاء خاص غير القضاء العام، وقد جاء أنه يُكتب أيضاً فيها.

يقول المؤلف: «وهذا المعنى قد روي عن ابن عباس، والحسن، وأبي عبد الرحمٰن السُلَمي، وسعيد بن جبير، ومقاتل»، وهؤلاء الذين عُطفوا على ابن عباس كلهم تابعون.



﴿٤٨﴾ وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «إن الله خلق لوحاً محفوظاً من درة بيضاء، دفتاه من ياقوتة حمراء، قلمه نور، وكتابه نور، عرضه ما بين السماء والأرض، ينظر فيه كل يوم ثلاث مئة وستين نظرة، ففي كل نظرة منها يخلق ويرزق، ويحيي ويميت، ويعز ويذل، ويفعل ما يشاء، فذلك قوله: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمٰن: ٢٩]» رواه عبد الرزاق، وابن المنذر، والطبراني، والحاكم(١).

قال ابن القيم رحمه الله لما ذكر هذه الأحاديث وما في معناها قال: «فهذا تقدير يومي، والذي قبله تقدير حولي، والذي قبله تقدير عمري عند تعلق النفس به، والذي قبله كذلك عند أول تخليقه وكونه مضغة، والذي قبله تقدير سابق على وجوده، لكن بعد خلق السماوات والأرض، والذي قبله تقدير سابق على خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكل واحد من هذه التقادير كالتفصيل من التقدير السابق، وفي ذلك دليل على كمال علم الرب، وقدرته، وحكمته، وزيادة تعريفه للملائكة، وعباده المؤمنين بنفسه وأسمائه».

ثم قال: «فاتفقت هذه الأحاديث ونظائرها على أن القدر السابق لا يمنع العمل، ولا يوجب الاتكال عليه، بل يوجب الجد والاجتهاد، ولهذا لما سمع بعض الصحابة ذلك قال: «ما كنتُ بأشدَّ اجتهاداً مني الآن». وقال أبو عثمان النهدي لسلمان: «لأنا بأول هذا الأمر أشد فرحاً مني بآخره»، وذلك لأنه إذا كان قد سبق له من الله سابقة، وهيأه ويسره للوصول إليها؛ كان فرحه بالسابقة التي سبقت له من الله أعظم من فرحه بالأسباب التي تأتي بعدها»(٢).

الشرح

فهذه التقادير التي ذُكرت لا تختلف؛ لأنها كلها تعود إلى التقدير الأول،

(١) «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٢٦٤)، «المعجم الكبير» (١٠٦٢٧)، «مستدرك الحاكم» (٣٧٧١، ٣٩١٧)، وأخرجه الضياء في «المختارة» (٤/ ١٠١).

(٢) «شفاء العليل» لابن القيم ص٢٣ ـ ٢٤.

وإنما التي جاءت بعدها كالتقدير العُمُري في حديث عبد الله بن مسعود ﷺ: «**يُجمع خلق أحدكم في بطن أمه أربعين يوماً**» الحديث، وكذلك التقدير السنوي الذي ذُكر في ليلة القدر، والتقدير اليومي، والتقدير الذي ذُكر في الحديث: «**أن الله ـ جل وعلا ـ مسح ظهر آدم، فاستخرج ذريته، فقال: هؤلاء إلى النار، وهؤلاء إلى الجنة**»، فهذا تقدير يعود على ما كتب في اللوح المحفوظ، وليس استخراجاً بالفعل واستنطاقاً واستشهاداً، كما قاله من قاله من السلف من المفسرين، وإنما فطرهم الله ـ جل وعلا ـ وجعلهم على ذلك.

وقد عَلِمَ الله من يكون منهم يعمل بعمل أهل الجنة، فميزه وعرفه وعرف اسمه وقبيلته، وكذلك عددهم، والقسم الثاني الذي يكون في النار كذلك، فلا يولد أحد إلا من علمه الله، فإذا استكمل الخلق عددهم في هذه الدنيا قُضي عليهم، وقامت القيامة. فالله ـ جل وعلا ـ جعل لهم حداً محدوداً، ولتمام علمه وكماله كتب ذلك وعلمه، فيقع على حسب كتابته وعلمه بلا زيادة ولا نقصان، وبالوقت المحدد الذي حدده الله له، فكل هذه الأمور تدل على كمال علمه ـ تعالى وتقدس ـ، وعلمه كامل لا يفوته شيء، ولا يستكمل علمه بوجود الموجودات، بل قد علمها قبل وجودها، وتوجد على وفق علمه، وكذلك على وفق مشيئته وقدرته، وكل ذلك يُعطي المؤمن قوةً في إيمانه، ومعرفةً بربه، وعظيم قدرته، وكمال علمه، فيوجب له السعي والاجتهاد فيه.

وأما أهل الجهل فيكسلون ويعتمدون على الكتابة، وهذا خطأ واضح، فيقولون: إذا كان كل شيء مكتوباً من الأزل فلا داعي للعمل!! فيقال: إذا كان قد كتب لك الولد؛ فلا داعي للزواج على قولك!! ولكن الأمور مكتوبة مع أسبابها، فلا يمكن أن تتخلف، فتعطيل الأسباب قدحٌ في الشرع، ونقصٌ في العقل، فلا بد من الاجتهاد والجد في السبب.

وكذلك يقال: إذا كان قد كتب أنك تكون طالب علم؛ فاجلس في بيتك ولا داعي للبحث والطلب على هذا القول الباطل!! فلا بد من بذل السبب، والذي يترك السبب؛ فمعناه أنه لم يعرف الشرع ولا القدر، ولا عرف الأمر الذي جعل الله عليه الخلق.

﴿٤٩﴾ وعن الوليد بن عبادة قال: دخلت على أبي وهو مريض أتخايل فيه الموت، فقلت: يا أبتاه! أوصني واجتهد لي. فقال: أجلسوني. فلما أجلسوه؛ قال: يا بني إنك لن تجد طعم الإيمان ولن تبلغ حقيقة العلم بالله ـ تبارك وتعالى ـ حتى تؤمن بالقدر خيره وشره. قلت: يا أبتاه! وكيف لي أن أعلم ما خيرُ القدر وشره؟ قال: تعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك، يا بني إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**أولَ ما خلق الله القلم قال: اكتب، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة**»، يا بُنيَّ إنْ مِتَّ ولستَ على ذلك دخلت النار. رواه أحمد[١].

الشرح

هذا الحديث فيه الإخبار عن أولية خلق القلم، وأنه أُمر بالكتابة، وأنه جرى بما أراده الله ـ جل وعلا ـ، والأمور التي يمكن للإنسان أن ينظر فيها ويقف عندها. وكثير من الناس لا يؤمن بهذا، يقولون: كيف القلم يكتب؟ وكيف يجري بكتابة كل شيء؟!

نقول: يكتب لما أمره الله ـ جل وعلا ـ، وكتب بإذنه، فإذا أمر الله بالشيء فهو مكونٌ له، فالقلم كتب بنفسه بأمر الله تعالى.

أما كيف يعرف القلم الأشياء وما أشبه ذلك من الأسئلة التي قد ترد؛ فنقول: كل ذلك عبارة عن علم الله، وأنه كتب هذه الأمور المستقبلة كلها إلى أن يستقر أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار، فكل حركة وكل شيء يحدث في الكون مكتوب، حتى نبض العروق الذي في بدن الإنسان، فلا توجد حركة إلا وهي مكتوبة في اللوح المحفوظ؛ لأن الله ـ جل وعلا ـ هو المالك لكل شيء، ولا يمكن أن يوجد شيء إلا بإرادته وبخلقه، فلتمام علمه

---

(١) «المسند» (٢٢٧٥٧)، وأخرجه أبو داود (٤٧١١)، والترمذي (٢١٥٥)، وصححه الألباني في «السنة» لابن أبي عاصم (١٠٢)..

كتب الذي يوجد كله في ذلك اللوح قبل الخلق بزمن طويل، ليبين لعباده أنه لا يخفى عليه شيء ولا يعجزه شيء.

وقد بيَّن الله ـ جل وعلا ـ ذلك في كتابه، فقال: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]، وهو الكتاب الذي كتبه.

والكتابات السابقة: منها التقدير العُمُري الذي يكون للمرء عند أول ما تُنفخ فيه الروح، بواسطة المَلَك. والروح هي التي بها الحياة، وهذه هي التي لا يُدرى ما هي؟ ما حقيقتها؟

أما آدم فالله نفخ فيه الروح بنفسه، وأما بنوه فإن الملائكة تنفخ فيهم الروح، فكل ما يقع لهذا الحي مسجلٌ قبلَ وجوده بآلاف السنين.

وقوله: «بخمسين ألف سنة قبل خلق السماوات والأرض» السماوات والأرض خلقت قبل آدم بأزمان طويلة، والله أعلم بالمدة، وكل هذا ليخبرنا ربنا ـ جل وعلا ـ عن تمام علمه الكامل.

ثم حدث في آخر زمن الصحابة إنكار علم الله السابق الأزلي، وهو معنى قولهم: **«الأمر أُنُف»**؛ أي: مستأنَف مستقبَل، ولم يُعلَمْ في الماضي، فكفَّر الصحابة من قال بهذا القول.

ولهذا يقول عبادة بن الصامت ﷺ لابنه: **«إن مت ولست على ذلك دخلت النار»**؛ يعني: من أنكر علم الله الأزلي المحيط بكل شيء؛ فإنه يكون كافراً.

ولده لما رأى فيه آثار الموت قال لأبيه: **«أوصني»**، فالوالد يجتهد لابنه، فأوصاه في هذا فقط؛ لأنه قد وقع في زمنه إنكار هذا الأصل.

وقوله: «أجلسوني» وذلك حتى يستطيع أن يجمع نفسه ويكلمه.

فقال: «يا بني»؛ أي: خطاباً لابنه، وهذا يدل على الشفقة والنصح، **«إنك لن تجد طعم الإيمان»** هذا يدل على أن الإيمان له طعم يوجد، وبعض الناس يجده وبعض الناس لا يجده، وطعم الإيمان حلو أحلى من كل ملتذ به.

وقوله: «ولن تبلغ حقيقة العلم بالله تبارك وتعالى»؛ لأن الإنسان إذا لم

يكن عالماً بالله، عارفاً بأسمائه وصفاته؛ فلن يكون مؤمناً الإيمان الواجب.

يقول: «**حتى تؤمن بالقدر خيره وشره**»؛ يعني: هذا لأجل أن يكون مستوعباً لكل شيء، والقدر هو قدرة الله، وهو بالنسبة لله خيرٌ وليس فيه شر، ولكن الشر بالنسبة للمخلوق، والمخلوق لا يصيبه الشر إلا بذنوبه، فهو شرٌّ للمخلوق، وخيرٌ من الله ـ جل وعلا ـ؛ لأنه جزاءٌ بالعدل، والعدل فضلٌ وخير.

ومقصوده: أن يُخبر أن كل شيء يقع ويصيب الإنسان في حياته أو ما يقع في الكون، سواء كان خيراً للعباد أو كان عقاباً لهم بذنوبهم؛ فهو مقدر عليهم ولا يمكن أن يتخلف، وواجبٌ الإيمان به.

ولهذا من الخطأ أن يقال عند حدوث المصائب: «لو أني فعلت كذا وكذا لما صار كذا» هذا لا يجوز؛ لأنه لا يمكن أن يتغير ما وقع له؛ لأنه أمرٌ مكتوب، والذي كتبه هو الله، فلا يمكن أن يتغير بحال من الأحوال.

وكذلك سبق في حديث ابن مسعود أن الملك يبعث لكتابة عمر الإنسان، فمن الخطأ كذلك أن يقال: «أطال الله عمرك» أو نحوها من الكلمات، فالعمر مكتوب ولا يمكن أن يزيد، ولكن قد يُبارك فيه ويكتسب فيه عملاً صالحاً، وقد يكتسب فيه أعمالاً سيئة تقربه إلى النار، ولهذا لما قالت أم حبيبة: «اللَّهُمَّ متعني بزوجي رسول الله، وبأبي أبي سفيان، وبأخي معاوية». فقال النبي ﷺ: «**إنكِ سألتِ الله لآجال مضروبة، وآثار موطوءة، وأرزاق مقسومة، لا يعجل شيئاً منها قبل حله، ولا يؤخر منها شيئاً بعد حله، ولو سألتِ الله أن يعافيك من عذاب في النار، وعذاب في القبر؛ لكان خيراً لك**»[1].

فالمقصود: أن الأمور كلها مقدرة، وإذا وقعت فإنه لا يمكن أن تتخلف، وكل شيء جُعل له سبب مقدر، فإذا وقع للعبد شيءٌ من هذا فليقل: «آمنت بالله، وهذا قدر الله، والحمد لله».

ثم ليس في هذا عذر للمذنب، فيقع بالذنب ويقول: «هذا قدر»، فنقول:

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٦٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

هذا لا يجوز، فإذا وقع العبد بالذنب فعليه التوبة والاستغفار، وأما إذا وقعت المصيبة فإنه يقول: «هذا قدرٌ قدره الله»، ويتسلى بذلك، ليس فيه حجة للمذنب، ولكن المصائب يمكن أن يحتج بها، أما المعائب فالخروج منها بالتوبة والرجوع والاستغفار، والمصيبة أمرٌ وقع لا يمكن استدراكه، فعلى هذا نقول: هذا قدر الله، وما شاء الله فعل، ونحن نؤمن به، ونسلم لربنا، ويؤجر الإنسان على ذلك، ولا يجوز أن يتأسف ويقول: «لو فعلت كذا وكذا»؛ لأن «لو» تدل على أنه لم يؤمن بالقدر، وأن هذا يمكن أن يتغير أو يتبدل، وكذلك يدل على التأسف والتضجر، ويفتح عمل الشيطان.

ولا يدخل في ذلك الإخبار عن الأحكام، والأمور التي يمكن أن تُفعل، مثل قول الرسول ﷺ: **«لو استقبلت من أمري ما استدبرت لما سُقت الهدي، ولجعلتها عمرة»**[1]، فهذا إخبارٌ عن حكم، وليس فيه ردٌّ للقضاء أو تسخُّط عليه أو أنه يمكن أن يتغير، بخلاف قول المنافقين: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ [آل عمران: ١٥٤]، وفي الحقيقة ليس لهم شيء من الأمر، ولهذا قال الله ـ جل وعلا ـ: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، فلا بد أن يأتي ما يخرجهم، فيقتلوا في الأماكن التي قتلوا فيها؛ لأنه أمرٌ مقدرٌ، حتمٌ لا بد منه.

فكل هذا يجب أن يكون المسلم مؤمناً به، مستسلماً لهذا منقاداً، ويتصور تمام التصور بأنه عبدٌ مُدَبرٌ مقهور، ليس له من الأمر شيء، ولا يلزم من هذا أنه لا قدرة له، بل له قدرة واختيار، وكثيراً ما نسمع من بعض الناس يقول: هل العبد مسيرٌ أو مخير؟

فنقول: لا مسير ولا مخير، بل هو تحت قدر الله، وله قدرة، وله استطاعة، ويجب أن يعمل بقدرته واستطاعته واختياره الذي أُمر به، فإن انكف عنه وامتنع؛ فاللوم عليه؛ لأنه امتنع عن شيء يستطيعه وقد أُمر به، فيستحق على ذلك العقاب، وإذا فعله استحق عليه الثواب، فهو يفعل باختياره وقدرته التي

---

(١) أخرجه مسلم (١٢١٨)، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

خلقها الله ـ جل وعلا ـ له، ومع ذلك لا يعدو تقدير الله ـ جل وعلا ـ فيه.

وهذا الحديث استدل به بعض أهل العلم على أن القلم هو أول المخلوقات؛ لقوله: «**أول ما خلق الله القلم**»، وكان يصح استدلالهم لو كان قوله: «**أول ما خلق الله القلم**» عبارة تامة مستقلة، ولكن الصواب أن هذه الجملة غير تامة، بل قوله: «**أول ما خلق الله القلم قال له: اكتب**» هذه جملة واحدة، فالمعنى أنه أُمر بالكتابة عند أول ما خُلق مباشرة بدون فاصل، وليس المعنى الإخبار عن أول المخلوقات، وإن كان هذا جاء في ألفاظ مختلفة، ولكنها بسبب اختلاف الرواة وتعبيرهم، وليس من تعبير رسول الله ﷺ؛ لأن الرسول ﷺ قال هذا مرةً واحدة، فجاء فيه: «**إن أول ما خلق الله القلم**» وجاء غير هذا، وأكثر الأحاديث جاءت مرويةً بالمعنى.

ولهذا لما قيل لشعبة بن الحجاج ـ وكان من أتقن رواة الحديث في حفظه ـ: هل كل ما تحدثنا به بلفظ الرسول؟ قال: لا، لو كان كل ما أحدثكم بلفظ الرسول لما حدثتكم إلا بعشرة أحاديث.

ومثل ذلك حديث عمران بن حصين الذي تقدم[١]، وفيه قوله: «**كان الله ولم يكن شيء قبله**»، وفي رواية: «**كان الله ولم يكن شيء معه**»، وفي رواية: «**كان الله ولم يكن شيء غيره**»، فغير ممكن أن يقول الرسول ذلك في مجلس واحد.

ومن ذلك حديث معاذ الذي في «الصحيحين» لما بعثه النبي ﷺ إلى اليمن، فقال له: «**إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله**»[٢]، وفي رواية: «**إلى عبادة الله**»[٣] وفي رواية: «**إلى أن يوحدوا الله**»[٤]، فهذه ألفاظ كلها في معنىً واحد، والتعبير لا يمكن أن يكون من الرسول هكذا، فالرسول عبر بعبارة واحدة.

وقد يحتج محتج ويقول: إنه جاء في هذا الحديث: «**إن أول ما خلق الله**

---

(١) برقم (٣٤).
(٢) أخرجه مسلم (١٩).
(٣) أخرجه مسلم (١٩).
(٤) أخرجها البخاري (٦٩٣٧).

القلم قال له: اكتب» فيكون نصاً في أنه أول المخلوقات.

فنقول: إن أحاديث الرسول ﷺ لا تتضارب ولا تختلف، فإذا جئنا بالحديث الذي في «صحيح مسلم»[1]: عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إن الله كتب مقادير الأشياء قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء»**، وفي رواية: **«وعرشه على الماء»**، فهذا ظاهر أن العرش والماء كانا قبل الكتابة، وهذا التقدير هو الكتابة المذكورة في هذا الحديث، فبهذا نقول: معنى هذا الحديث أن أول ما خُلق القلم أُمر بالكتابة مباشرة بدون فاصل، فالمقصود بالأولية: هي الكتابة، وليس أولية القلم، والله أعلم.



(١) برقم (٢٦٥٣).

﴿٥٠﴾ وعن أبي خزامة، عن أبيه، قال: قلت يا رسول الله! أرأيت رُقىً نسترقيها، ودواء نتداوى به، وتقاة نتقيها؛ **هل ترد من قدر الله شيئاً؟** قال: **«لا، هي من قدر الله»**. رواه أحمد، والترمذي وحسنه[١].

الشرح

في هذا الحديث بيان أن الأسباب مقدرة.

قوله: «وتقاة» التقاة الذي يكون مثل لباس يلبسه الإنسان للحرب أو ما يلبسه لئلا يصيبه الحصى أو الشوك أو العقارب أو ما أشبه ذلك، فكل هذه أسباب وهي مقدرة، ولا يمكن أن تختلف.

فالأسباب التي يفعلها الإنسان من التداوي والرقى وغيرها هي من القدر، وقد فهم الصحابة ﷺ ذلك كما أخبرهم الرسول ﷺ بهذا، ولما خرج عمر رضي الله عنه بالصحابة قاصداً الشام، فجاءه الخبر وهو في أثناء الطريق أن الطاعون وقع في الشام، فاستشار الصحابة أنمضي أم نرجع؟ فاختلفوا، فمنهم من يقول: خرجتَ لأمر فلا ترجع، ومنهم من قال: لا تذهب، فرجع، فجاءه أبو عبيدة بن الجراح وقال: أفرارٌ من قدر الله يا عمر؟ قال: لو قالها غيرك يا أبا عبيدة، نعم فرارٌ من قدر الله بقدر الله. ثم قال له: أرأيت لو كان لك إبل، وثمَّ مكان خِصب ومكان جدب، ففي أيهما ترعى؟ قال: أرعى في الخصب، قال: نحن كذلك. ثم جاءه محمد بن مسلمة وقال له: عندي في ذلك علم عن رسول الله ﷺ، قال: ما هو؟ قال: إن الرسول ﷺ يقول: **«إذا سمعتم به في أرض فلا تقدموها، وإذا وقع وأنتم في أرض فلا تخرجوا منها»**[٢]، فقال: الحمد لله الذي وفقنا لما قاله رسول الله ﷺ، فالمقصود: أن الأسباب مقدرة بقدر.

---

(١) «مسند أحمد» (١٥٥١٠)، «جامع الترمذي» (٢٠٦٥)، وأخرجه ابن ماجه (٣٤٣٧).

(٢) أخرجه البخاري (٥٣٩٧)، ومسلم (٢٢١٩)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

٥١ وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍّ خير، احرصْ على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تَعْجزَنّ، وإن أصابك شيء؛ فلا تقل: لو أني فعلت كذا كان كذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن «لو» تفتح عمل الشيطان**» رواه مسلم[1].

الشرح

هذا الحديث من أنفع ما يكون للإنسان، وهو بأمس الحاجة إليه.

قوله: «**المؤمن القوي خيرٌ وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف**» المراد بالقوة هنا: قوة الإرادة والعزيمة، وليس قوة البدن، فمن كانت إرادته وعزيمته قوية فهو أحب إلى الله ـ جل وعلا ـ، ومعلوم أن الإرادة والعزيمة مخلوقةٌ لله، خُلقت وجعلت في الإنسان، أما الضعيف فهو ضعيف العزيمة وضعيف الإرادة، وهذا يدعو إلى الكسل والخمول، وقد استعاذ الرسول ﷺ من الكسل والعجز[2]، وهذا يدعو الإنسان إلى أن يجتهد في العمل الذي يكون فيه رضا ربه.

وفي هذا الحديث: الحث على فعل ما ينفع العبد في دنياه ومعاده، ولا شك أن العبد تكتنفه أخطار كثيرة في الدنيا وبعد الموت، والأمر كبير يجب أن يهتم به، والعبد ضعيف على عذاب الله الذي يكون في القبر، فكيف بعذاب النار؟!

ثم قال: «**وفي كل خير**»؛ يعني: أن الضعيف أو القوي ما دام أنه مؤمن؛ ففيه الخير، وإذا مات على الإيمان فهو من السعداء وإن ناله ما ناله.

وقد تواترت الأحاديث عن الرسول ﷺ أنه يدخل النار أُناسٌ كثير من الموحدين، ثم يخرجون بالشفاعة وبرحمة الله، وكذلك ثبت في الأحاديث الكثيرة عذاب القبر، وأمرنا الرسول ﷺ أن نستعيذ من عذاب القبر في كل

---

(١) «صحيح مسلم» (٢٦٦٤).

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٠٧)، ومسلم (٥٨٩)، من حديث عائشة ﵂.

صلاة[١]، وقد أخبرنا عن أشياء مُعينة تكون سبباً لعذاب القبر، ففي حديث المنام لما أخبر النبي ﷺ عن أناس يعذبون، قال: «**إنه أتاني الليلة آتيان، وإنهما ابتعثاني، فقالا لي: انطلق انطلق. فانطلقت معهما، فجئنا إلى رجل قائم عليه رجل معه كلَوبٌ من حديد، فيُشَرْشَرُ شِدْقُه إلى قفاه، ومنخِرَه إلى قفاه، ثم يتحول إلى الشق الثاني فيفعل به كذلك، فإذا فرغ منه عاد الشق الأول كما كان، فيفعل به. فقلت: سبحان الله! ما هذا؟**

فقالا لي: انطلق انطلق. فانطلقنا، فأتينا على رجل نائم وعنده رجلٌ معه حجر كبير فيَثْلَغُ رأسه، ثم يَتَدَهْدَهُ الحجر، فيتبعه ويأخذه، فإذا أخذه وعاد إذا برأسه قد عاد كما كان، فيثلغ رأسه، فقلت: سبحان الله! ما هذا؟

فقالا لي: انطلق انطلق. فانطلقنا، فأتينا على نهر مثل الدم، وفيه رجلٌ يسبح، وعند ضفافه رجلٌ قائم عنده حجارة، فيسبح ثم يأتي ويَفْغَرُ فاه، فيُلقمه الحجر، ثم يعود يسبح، فقلت: سبحان الله! ما هذا؟

فقالا لي: انطلق انطلق. فانطلقنا، فأتينا إلى مثل التنور، أسفله واسع وأعلاه ضيق، وفيه رجالٌ ونساء عراة، فتأتيهم النار من أسفلهم فيضوضوا. فقلت: سبحان الله! ما هؤلاء؟ فقالا لي: انطلق». وذكر أشياء.

ثم فسروها له: «**قالوا: أما الرجل الذي رأيته يشرشر شدقه؛ فذاك الرجل يكذب الكذبة، فتنتشر في الناس، فهذا جزاؤه إلى يوم القيامة، وأما الرجل الذي رأيته يُثلغ رأسه؛ فهو الرجل يأخذ القرآن ثم ينام عن الصلاة المكتوبة، وأما الرجل الذي رأيته يسبح في النهر؛ فذلك آكل الربا، يُصنع به ذلك إلى يوم القيامة، وأما الرجال والنساء الذين في مثل التنور ويأتيهم النار؛ فأولئك الزناة والزواني**»[٢]، هذا عذابهم في البرزخ إلى يوم القيامة، وذكر

---

(١) أخرجه مسلم (٥٨٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، بلفظ: «**إذا تشهد أحدكم فليستعذ بالله من أربع، يقول: اللَّهُمَّ إني أعوذ بك من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن شر فتنة المسيح الدجال**».

(٢) أخرجه البخاري مطولاً (٦٦٤٠)، من حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه.

أشياء، وكلها بسبب الذنوب.

ومن ذلك ما في «الصحيحين» من حديث ابن عباس يقول: مَرَّ رسول الله ﷺ على قبرين، فقال: **«تسمعون ما أسمع؟»**، قالوا: لا. فقال: **«إنهما ليعذبان، وما يعذبان في كبير»**، ثم قال: **«بلى، إنه لكبير، أما أحدهما فكان لا يتنزه من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة»**[1]، فعدم التنزه من البول والنميمة من أسباب عذاب القبر. والذنوب كلها سبب للعذاب، ولكن بعضها يُعجل في البرزخ، وبعضها قد يؤخر إلى الموقف.

على كل حال؛ هذا الحديث فيه قوله ﷺ: **«احرص على ما ينفعك»** الحرص هو بذل الجهد في الأمر، فإذا كان الحرص على الشيء الذي ينفع فهذا الذي ينبغي، أما إذا كان الحرص على أمور أخرى؛ فقد يكون الحرص على شيء لا ينفع بل يضر، فيكون الأمر منعكساً.

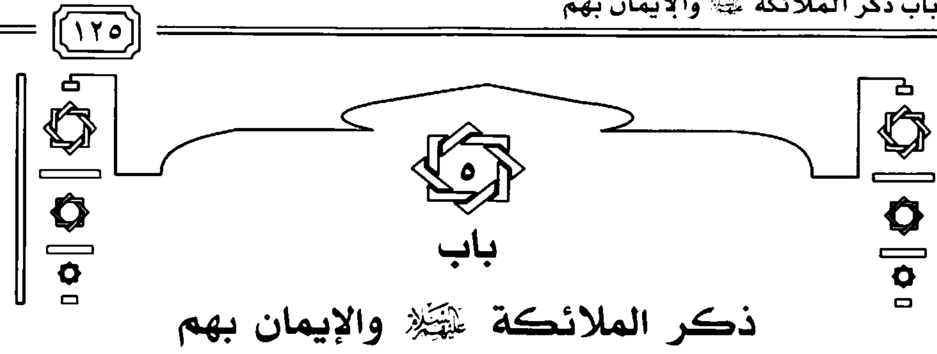
ثم قال: «واستعن بالله»؛ يعني: أنه لا بد أن يكون مع العمل والقوة الاستعانة بالله، وإذا لم يستعن بالله لم يُعن، ولن يُدرك ما يريد.

ثم قال: «ولا تَعْجِزَنّ»؛ يعني: لا تتقاصر عن العمل وتتكاسل، بل أقدم عليه بعزيمة قوية مع الاستعانة بالله.

قوله: «وإن أصابك شيء: فلا تقل: لو أني فعلت كذا كان كذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن «لو» تفتح عمل الشيطان»؛ يعني: إن أصابك خلاف ما تسعى إليه وتريده فلا تتأسف على ما مضى، ولا تقل: **«لو»**؛ لأنها من عمل الشيطان، ولا تقل: كيف فاتني ذلك؟ فالتأسف على الماضي والتفكير فيه لا يغير الواقع، وهو من عمل الشيطان؛ لأنه في الواقع لم يؤمن بالقدر كما ينبغي.

❁ ❁ ❁

(١) أخرجه البخاري (٢١٥)، ومسلم (٢٩٢)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.



باب
ذكر الملائكة عليهم السلام والإيمان بهم

الشرح

الإيمان بالملائكة من أركان الإيمان، والملائكة جمع ملك، ولفظة الملائكة تدل على أنهم رسل وأنهم عبادٌ مكلفون مأمورون بأمر الله ـ جل وعلا ـ، وهم من الخلق الغيبي الذي لا يُشاهد، فصار الطريق للإيمان بهم هو الوحي، فيجب أن نؤمن بهم على ضوء ما أُخبرنا عنهم.

والإيمان بهم يأتي مجملاً ومفصلاً:

فالمفصل فيمن ذكر بأسمائهم أو وظائفهم، مثل: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، فنؤمن بأعيانهم، وأعمالهم إضافةً إلى ذلك.

والإجمال أن نؤمن بهم عموماً بدون تفصيل.

وذكر الله ـ جل وعلا ـ عنهم أنهم ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦]، و﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الأنبياء: ١٩، ٢٠]، ومع هذا يخشونه ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، ومن أوصافهم أنهم ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

وهم يخافون من الله أشد الخوف، لهذا قال ـ جل وعلا ـ: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٢٩]، ولما خلقت النار أصبحوا لا يضحكون، وأكثرهم يبكي خوفاً من النار، فهم عباد الله، خلقهم لعبادته، وينفذون أوامره، وهي من عبادته.



وقول الله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

الشَّرْحُ

قوله: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾؛ يعني: استقبال الكعبة في الصلاة أو الدعاء، وهذا جاء عن اليهود أنهم كانوا يصلون إلى جهة، وقالوا للمسلمين: أنتم مرة تصلون هنا، ومرة تصلون هنا، فقال الله ـ جل وعلا ـ: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ...﴾ الآية.

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ الإيمان بالله هو فعل ما أمر به، والانتهاء عما نهى عنه، سواء أمرنا أن نصلي إلى المشرق أو إلى المغرب أو إلى أي جهة كانت، لهذا إذا أمرنا بشيء فإنه يجب علينا أن نفعله، فيكون هذا هو البر.

والبِرُّ هنا بمنزلة الإيمان، فالبر والتقوى والإيمان والإسلام إذا جاء أحدها مفرداً دخل فيه الخير كله، والأمر الذي أمر الله ـ جل وعلا ـ به.

ثم أخبر الله ﷻ أن من البر الإيمانَ باليوم الآخر، والملائكة، والكتب والرسل، فهذه من أصول الإيمان.



وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [فصلت: ٣٠].

الشرح

في الآية السابقة ذكر الإيمان بالملائكة على جهة الإجمال، وهذه الآية أخبر عن الذين يعملون حسب أمر الله لهم، وهم الملائكة الذين يتنزلون لقبض أرواح بني آدم، وهم ملائكة معينون، ويرأسهم ملك الموت ومعه ملائكة كثيرون، حيث يتولون الروح عند قبضها، فإما أن يكونوا ملائكة رحمة أو ملائكة عذاب.

وملائكة الرحمة يكون معهم حنوط من الجنة، وأكفان من الجنة، وأما ملائكة العذاب فيكون معهم حنوط من النار، ولباس من جهنم نسأل الله العافية.

ولهذا لما ذكر الله الاحتضار في آخر سورة الواقعة؛ ذكر ثلاثة أقسام للناس:

القسم الأول: ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الواقعة].

القسم الثاني: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَـٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾﴾ [الواقعة].

القسم الثالث: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾﴾ [الواقعة]، والنزل: هو الشيء الذي يُقدم للضيف أول ما ينزل، فأول ما يُقدم لهذا الخبيث هو الحميم وتصلية جحيم نسأل الله العافية.

فمعنى ذلك: أن الجحيم تكون في القبر، كما دلت على ذلك أحاديث عن رسول الله ﷺ، فالقبر تشاهده في الظاهر تراباً، وفي الحقيقة هو أحمى من النار التي نوقدها، فتأكله جهنم، ولو كَشَفْتَ عنه لرأيته لم يتغير؛ لأن هذا

أمر غيبي، وإذا شوهد ذهبت الحكمة التي من أجلها غُيّب عن الناس؛ لأن الذي يُعتبر هو الإيمان بالمغيب، وقد يُظهر الله شيئاً من ذلك المُغَيَّب آيةً وموعظةً لبعض من يشاء من عباده.

لما دُفن الأحنف بن قيس ووضع في اللحد سقطت قلنسوة[1] أحدهم في اللحد، فأدخل رأسه ليأخذها، فشاهد القبر متسعاً لا مدى له، وشاهد نوراً فيه، فصاح، فقالوا: ماذا بك؟ قال: شيء لا يتصور، أمر عظيم جداً، بسعته ونور فيه.

وللحافظ ابن رجب كتاب سماه «أهوال القبور وأحوال أهلها إلى النشور»، ذكر أشياء من ذلك، وفيه مواعظ وفوائد، وأمور ينبغي أن يؤمن بها الإنسان.

على كل حال، الملائكة هؤلاء خصصوا لقبض الأرواح وتولي الروح، فذُكروا بوظيفتهم في هذه الآية.

قوله: ﴿الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ استقاموا على الحق، فلم يميلوا يميناً وشمالاً كمذهب أهل البدع، بل استقاموا على الحق الذي جاءهم، فهؤلاء ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾؛ أي: ملائكة الرحمة، يُطمئنونهم ويؤمنونهم فيقولون لهم: ﴿أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ الخوف يكون من المستقبل، والحزن يكون على الشيء الماضي، فيقولون: لا تخافوا من الشيء الذي تستقبلونه فأنتم آمنون، ولا تحزنوا على ما تركتموه من مال وولد، فسوف تشاهدون ما ينسيكم من الجزاء والنعيم والفضل من الله ـ جل وعلا ـ.

قوله: ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ﴾ فإذا بشر بالجنة تمنى الموت، وطلب السرعة، وهذا تقوله الملائكة له وهو في بيته وعلى فراشه، قبل أن تخرج روحه من بدنه، ولكن لا يسمع كلام الملائكة إلا هو، فالذين يحضرونه لا يسمعونهم لا يشاهدونهم، ولهذا إذا بشروه سهُل خروج الروح، فتخرج بسهولة، بل بشفقة ومحبة، ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾.

---

(١) الطاقية.

وقوله تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢].

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنبياء].

وقوله تعالىٰ: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ [فاطر: ١].

الشَّرْحُ

وقوله: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ﴾ الاستنكاف هو الاستكبار والترفع عن الشيء، فمن استنكف عن عبادة الله فجزاؤه جهنم، والملائكة على عظمتها ذليلة خاضعة لله عابدة له، ومعنى ذلك أنه يخبرنا ـ جل وعلا ـ أن الملائكة عبادٌ خاضعون ذالون لله، خائفون من عذابه.

وأما قوله: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ﴾؛ أي: الملائكة، وهذا دليل على أن بعض العباد عند الله أقرب من بعض، فالذين في السماء أقرب إليه من الذين في الأرض.

وقوله: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ الاستكبار الترفع، أما الاستحسار فهو العجز والكسل، فهذا لا يكون عندهم، فهم ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾، وهذا من وصف الملائكة. فنحن نؤمن بهذا الذي أخبرنا الله ـ جل وعلا ـ عنه.

وقوله: ﴿أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾؛ أي: الملائكة لهم أجنحة متعددة مثنى وثلاث ورباع، وجاء أن جبريل له ست مئة جناح[1]، وهذا حال المخلوق فكيف بالخالق تعالى وتقدس؟

سمع أحد العلماء أحد تلامذته يتكلم في شيء من صفات الله، فدعاه

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٣٢، ٤٨٥٦، ٤٨٥٧)، ومسلم (١٧٤)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه موقوفاً.

وقال له: جبريل عليه السلام له أكثر من ست مئة جناح، أخبرني أين الأجنحة؟ في أي مكان منه؟ يقول: جناحان في الجنب وجناحان فوق، والباقي أين هي؟ قال: لا أدري. فقال: يا عجباً! لا تدري عن مخلوق من مخلوقات الله، وتتكلم في الله ـ جل وعلا ـ؟! فصارت هذه الكلمة رادعاً له؛ لأن الخوض في صفات الله خطير جداً، وعلى الإنسان أن لا يتكلم إلا بعلم يتيقنه، وإلا كذب على الله.

فالذي يتكلم في الأحكام بلا علم قد يتكلم بباطل، ويقول الله له: «كذبت»، ولهذا جعل الله القول عليه بلا علم أعظمَ من الشرك، وقد توعد مَنْ تكلم فيه بلا علم، فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ إلى أن قال: ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

أحد العلماء كتب تفسيراً للقرآن، فلما وصل إلى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الحاقة]؛ قال: أخشى أني تكلمت في شيء وهو خلاف الحق، فأخذ كتابه وحرقه؛ خوفاً من الله ـ جل وعلا ـ، وخوفاً من الوعيد الشديد.

فالمقصود: أن الملائكة لها أجنحة وهي متعددة، وبعض الملائكة له جناحان، وبعضهم له أربعة، وبعضهم أكثر من ذلك.



وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [غافر: ٧].



وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ﴾ وهم الملائكة، فالعرش له حملة، وليس معنى هذا أن الله محتاجٌ إلى ذلك، ولكن هذا لحكمة يريدها الله تعالى، وإلا العرش يحمله الله بقدرته، وهو ليس محتاجاً للعرش ولا لغيره تعالى وتقدس.

وقوله: ﴿وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ﴾؛ يعني: هناك ملائكة حول العرش يعبدون الله ويطوفون به، وأخبر أنهم يحفون بالعرش.

قوله: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾؛ أي: يمتثلون أمره، ويجتنبون نهيه، ويخافونه أشد الخوف، وهذا هو الإيمان.

وقوله: ﴿وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ أي: من بني آدم، وذكر استغفارهم: ﴿فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾.

❀ ❀ ❀

﴿٥٢﴾ وعن عائشة ﵂ قالت: قال رسول الله ﷺ: **«خُلِقَتِ الملائكة من النور، وخُلِقَ الجانُّ من مارجٍ من نار، وخُلِقَ آدمُ مما وُصِفَ لكم»** رواه مسلم[١].

﴿٥٣﴾ وثبت في بعض أحاديث المعراج أنه ﷺ رفع له البيت المعمور الذي هو في السماء السابعة، وقيل: في السادسة، بمنزلة الكعبة في الأرض، وهو بحيال الكعبة، وحرمته في السماء كحرمة الكعبة في الأرض، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، ثم لا يعودون إليه آخر ما عليهم[٢].

الشَّرْحُ

هذا الحديث يدل على أنهم خلقوا من مادة، فالملائكة خُلِقَتْ من نور، والجن ـ الذي هو الشيطان وهو أبوهم ـ خلق من مارج من نار، والمارج هو اللهب الذي يكون فوق النار وقد اختلط بالدخان، ولهذا صار من طبيعته النارية الشر والطغيان والتكبر، وهذا الذي دعاه إلى أن يتكبر عن السجود لآدم، مع أن السجود لآدم سجود لله ـ جل وعلا ـ؛ لأنه هو الذي أمر به، فهو طاعة لله تعالى.

وقوله: «وخُلق آدم مما وصف لكم»؛ يعني: أنه خُلق من الطين.

وقوله: «حيال الكعبة»؛ يعني: فوقها، فجعله بيتاً تتعبد فيه الملائكة، كما يتعبد بنو آدم بالكعبة ويطوفون حولها، وسماه **«البيت المعمور»**؛ يعني: تعمره الملائكة بالطاعة، فالعمارة تكون بالطاعة، والإفساد يكون بالمعاصي.

يقول: «وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، ثم لا يعودون إليه»؛ وذلك أنهم لا تأتيهم النوبة لكثرة الملائكة.

---

(١) «صحيح مسلم» (٢٩٩٦).

(٢) انظر: حادثة الإسراء والمعراج في «صحيح البخاري» (٣٢٠٧)، و«صحيح مسلم» (١٦٤).

والمقصود بهذا: الإخبار بكثرة الملائكة، فهم كثيرون جداً، فكل يوم يدخل هذا البيت سبعون ألف ملك لم يسبق أنهم دخلوه ولن يدخلوه مرة أخرى إلى يوم القيامة، وهذا لأنها لا تأتي لهم الفرصة إلا مرةً واحدة لكثرة الملائكة، وهذا يدلنا على أن الملائكة كثيرون جداً، خلقهم الله لعبادته.



﴿٥٤﴾ وعن عائشة ﷺ قالت: قال رسول الله ﷺ: «**ما في السماء موضع قدم إلا عليه ملك ساجد أو ملك قائم، فذلك قول الملائكة: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾** [الصافات]». رواه محمد بن نصر، وابن أبي حاتم، وابن جرير، وأبو الشيخ[١].



يعني هذا الأمر ذكره الله ـ جل وعلا ـ في كتابه، والرسول ﷺ يقول: «**ألا تصفون كما تصف الملائكة؟**» فقالوا: كيف تصف الملائكة؟ قال: «**يكملون الصف الأول ويتراصون**»[٢].

فالملائكة يُصَلُّون، ويسبحون، ويَصُفُّون عند ربهم خضوعاً وذلاً وتسبيحاً، فهم خُلِقوا لعبادة الله ـ جل وعلا ـ.

❁ ❁ ❁

---

(١) أخرجه محمد بن نصر في «الصلاة» (١/ ٢٦٠)، والطبري في «جامع البيان» (٢٣/ ١١١)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٥٠٨).

(٢) أخرجه مسلم (٤٣٠)، من حديث جابر بن سمرة ﷺ.

﴿٥٥﴾ وروى الطبراني، عن جابر بن عبد الله ﵄ قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما في السماوات السبع موضع قدم ولا شبر ولا كف؛ إلا وفيه ملك قائم أو ملك ساجد أو ملك راكع، فإذا كان يوم القيامة قالوا جميعاً: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك، إلا أنا لا نشرك بك شيئاً»**[(١)].

الشرح

وهذا الحديث يدل على أنهم لا يفترون عن العبادة أبداً، كما أخبر الله ـ جل وعلا ـ عنهم، فهم دائمو التسبيح والتكبير والتهليل، ولا يأكلون ولا يشربون، وإنما أكلهم وشربهم التكبير والتسبيح والتهليل والتحميد، ولا يفترون منه أبداً منذ خلقوا إلى أن تقوم القيامة.

فخلقهم الله ـ جل وعلا ـ لعبادته، فقاموا بذلك وهم الذين عند الله ـ جل وعلا ـ في السماوات، وجعل السماوات مملوءة بهم، وهم عُمَّار السماء، يَعْمرونها بالطاعة.



---

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٧٥١).

﴿٥٦﴾ وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«أُذِنَ لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش: ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرةُ سبعِ مئة عام»** رواه أبو داود، والبيهقي في «الأسماء والصفات»، والضياء في «المختارة»(١).

فمن سادتهم: جبرائيل عليه السلام قد وصفه الله تعالى بالأمانة وحسن الخلق والقوة، فقال تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦﴾ [النجم].

ومن شدة قوته: أنه رفع مدائن قوم لوط عليه السلام ـ وكُنَّ سبعاً ـ بمن فيهن من الأمم، وكانوا قريباً من أربع مئة ألف، وما معهم من الدّواب والحيوانات، وما لتلك المدائن من الأراضي والعمارات، على طرف جناحه، حتى بلغ بهن عَنان السماء، حتى سمعت الملائكة نباح كلابهم وصياح ديكتهم، ثم قلبها فجعل عاليها سافلها، فهذا هو شديد القوى.

الشَّرح

في هذا الحديث بيان عظمة الملائكة، وذكر وصف أحد الملائكة الذين يحملون عرش الله ـ جل وعلا ـ.

قوله: «أذن لي»؛ يعني: أن الله أذن له بذلك، والإذن هنا هو الأمر بأن يحدث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش. **«ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبع مئة عام»** تصور هذا الكبر العظيم الهائل، والعاتق هو الكتف، من الكتف إلى الأذن هذه المسيرة الهائلة فكيف بالباقي؟ فلا شك أنه عظيم جداً لا يُتصور. وهذا أيضاً يعطينا سعة السماء السابعة وما فوقها، فهي واسعةٌ جداً لا تتصور؛ لأن هذا أحد الملائكة الذين هم فيها فقط.

(١) «سنن أبي داود» (٤٧٢٩)، «الأسماء والصفات» للبيهقي (٨٤٦).

وقول المصنف: «**فمن ساداتهم جبرائيل**» هذا وصف أقرب الملائكة إلى الله وهو جبريل، وهو الذي يكون واسطة بين ربه وبين الرسل مِنْ أولهم إلى آخرهم، واليهود يتخذونه عدواً لهم؛ لأنه يأتي بالعذاب!! فهو يأتي بالعذاب ويأتي بالنعيم، ويأتي بالهدى والنور، ولكن اليهود أشرار وأعداء لله - جل وعلا -.

ووصف عليه السلام من قوته أنه احتمل الأرض التي عليها مدائن قوم لوط على طرف جناحة، فطار بها إلى أن سمع الملائكة الذين في السحاب نباح الكلاب وصياح الديكة، فكل ما في هذه المدائن من حيوانات وبشر وعمارات وغيرها قلبها وجعل عاليها أسفلها، ثم أُمطروا بحجارة من سجيل على كل واحد منهم، وهذا شيء من عذاب الله تعالىٰ بواسطة ملائكته.

ومن صفته أنه صاح صيحةً في ثمود قوم صالح، فتقطعت قلوبهم في أجوافهم فخمدوا جميعاً، فهو الذي يأتي بعذاب الله - جل وعلا - إذا أمره الله بذلك.

فالمقصود: أن من ملائكة الله القوي العظيم، وكذلك وصف جبريل بما ذُكر.



وقوله: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾؛ أي: ذو خَلْقٍ حَسَن، وبهاء وسناء، وقوة شديدة، قال معناه ابن عباس رضي الله عنهما.

وقال غيره: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾؛ أي: ذو قوة.

وقال تعالى في صفته: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾ [التكوير]؛ أي: له قوة وبأس شديد، وله مكانة ومنزلة عالية رفيعة عند ذي العرش ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ﴾؛ أي: مطاع في الملأ الأعلى ﴿أَمِينٍ﴾؛ أي: ذي أمانة عظيمة، ولهذا كان هو السفير بين الله وبين رسله.

٥٧ وقد كان يأتي إلى رسول الله ﷺ في صفات متعددة وقد رآه على صفته التي خلقه الله عليها مرتين وله ست مئة جناح روى ذلك البخاري عن ابن مسعود[1] رضي الله عنه.

الشرح

وقوله: «**كان يأتي إلى رسول الله ﷺ في صفات متعددة**» فالنبي ﷺ رأى جبريل عليه السلام علىٰ صورته التي خلقه الله عليه مرتين:

الأولى: في الأرض.

والثانية: في السماء.

ومع ذلك يقول ﷺ: «**مررت ليلة أسري بي بالملأ الأعلى، وجبريل كالحلس البالي من خشية الله**»[2]؛ يعني: من شدة خوفه وخشيته من ربه ـ جل وعلا ـ.

ورؤية الرسول ﷺ له في مكة في أول الأمر لما أتاه في صورة رجل عادي، فدخل عليه وهو في غار حراء، إذ كان معتزلاً في الغار عن المشركين وعما كانوا يفعلون؛ لأنه كان يكرههم ويكره أفعالهم، فيعتزلهم ويبقى وحده

---

(١) تقدم تخريجه ص١٢٩.

(٢) أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط»، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

يفكر في خلق الله ومخلوقاته، ولم يكن عنده شيء من العلم، إلا أن الله جبله على النفور من الشرك، ويعلم أنه باطل.

فجاءه جبريل بغتة، فدخل عليه في الغار فضمه ضمة قوية، حتى أجهده ثم أرسله، فقال جبريل: «**اقرأ**»، فقال النبي ﷺ: «**ما أنا بقارئ**»؛ يعني: لا أُحسن القراءة. ثم ضمه مرة أخرى أشد من الأولى، ثم أرسله، وقال: «**اقرأ**»، فقال: «**ما أنا بقارئ**»، ثم ضمه الثالثة وهي أشد، ثم أرسله، وقال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤﴾ [العلق]، هذه الآيات أول ما أوحي إليه. ثم رجع إلى أهله ترتعد فرائصه، فقال لأهله: «**دثروني زملوني**»؛ لأن الخائف إذا تدثر بدثار وتزمل قد يهدأ.

ثم بعد ذلك أخبر زوجته خديجة الخبر، وكانت نعم الزوجة، فكانت تواسيه وتساعده على الدعوة، فقال: «**خشيتُ على نفسي**»؛ يعني: خشي أن يكون ذلك شيطاناً.

فقالت: لا والله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكَلَّ، وتكسب المعدوم، وتقْري الضيف، وتعين على نوائب الحق. فاستدلت بأعماله على أن الله يكرمه، وهذا دليل على عقلها ومعرفتها.

ثم أخذته وذهبت به إلى ابن عمها ورقة بن نوفل، وكان قد دخل في النصرانية، وقرأ الكتب: التوراة والإنجيل، وهو كبير في السن، فلما أخبره بالأمر؛ قال له ورقة: هذا الناموس الذي كان يأتي موسى. ثم قال: ليتني فيها جذعاً حين يخرجك قومك.

فقال له النبي ﷺ: «**أوَمُخْرِجِيَّ هم؟**» فقال ورقة: لم يأتِ رجل قط بما جئت به إلا عُوديَ ـ يعني: نظراً لحال الرسل السابقين ـ، ثم قال: وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً. ثم لم يلبث ورقة أن مات، ثم فتر الوحي[١].

---

(١) أخرجه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

فكان الرسول ﷺ عنده شوق إلى لقاء جبريل وإلى وحيه، وكان يخرج يتطلع، فلا يرى شيئاً، وفي يوم سمع صوتاً، فالتفت فلم يرَ أحداً، التفت يميناً وشمالاً فلم ير أحداً. ثم سمع الصوت: يا محمد، فلم يرَ أحداً، فرفع رأسه، فإذا جبريل جالس على كرسي بين السماء والأرض، فهاله ذلك، ورجع إلى أهله وقال: **«دثروني»**. فجاء إليه، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾ [المدثر] الآيات[1]، فهذا أول ما أمر به.

ولهذا يقول شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله: «نُبئ باقرأ، وأُرسل بالمدثر»[2]؛ يعني: كان نبياً ابتداءً؛ لأن قوله: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾ ليس فيه أمر، وإنما فيه الأمر بالقراءة فقط، وهو وحي جاءه من الله، فهو نبيٌّ وليس رسولاً، ثم لما جاء في هذه المرة أمره بالنذارة: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾ [المدثر]، فصار بهذا نبياً رسولاً.

ثم المرة الثانية لما عُرج به رآه على صورته الحقيقية، وكان كثيراً ما يأتيه في صورة رجل، وفي المدينة أتاه عدة مرات بصورة دحية الكلبي، وهو رجل جميل مستقيم الخلقة، فيأتي بهذه الصورة، وكان مرة واقفاً مع الرسول ﷺ عند بيته، ورأته عائشة رضي الله عنها، فسألت عنه النبي ﷺ، فقال: **«نعم، ذاك جبريل عليه السلام، وهو يقرئك السلام»**[3].

وحديث عمر رضي الله عنه في «صحيح مسلم»، وكذلك في «صحيح البخاري» لكنه عن أبي هريرة: بينما نحن جلوس، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر.. وذكر الحديث، ثم قال النبي ﷺ: **«هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم»**[4].

---

(١) أخرجه البخاري (٤)، ومسلم (١٦١)، من حديث عائشة رضي الله عنها.
(٢) «الأصول الثلاثة» للشيخ محمد بن عبد الوهاب.
(٣) أخرجه البخاري (٣٥٥٧).
(٤) أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٨).

﴿٥٨﴾ وروى الإمام أحمد، عن عبد الله ﵁ قال: رأى رسول الله ﷺ جبريل ؈ في صورته له ست مئة جناح، كل جناح منها قد سد الأفق، يسقط من جناحه من التهاويل والدر والياقوت ما الله به عليم[١]. إسناده قوي.

﴿٥٩﴾ وعن عبد الله بن مسعود ﵁ قال: رأى رسول الله ﷺ جبريل في حلة خضراء قد ملأ ما بين السماء والأرض. رواه مسلم[٢].

الشَّرْحُ

قوله: «يسقط من جناحه من التهاويل..» أي: أنه لا يستطيع أحدٌ أن يصف هذا الذي يسقط من جناحه، وهذه كرامة من الله له، وكذلك كونه على خلق جميل بهيّ يدل على قربه من الله، وقد وصفه الله بأنه قوي، وبأنه كريم، وبأنه أمين، فهو أمينٌ على الوحي.

والمقصود: وصفُ جبريل ؈، والإيمان بذلك؛ لأن هذا جاءنا مفصلاً، فيجب أن نؤمن به مفصلاً كما جاء.

أما بقية الملائكة، فلا نعرفهم إلا بأسمائهم أو بوظائفهم: عبادة الله وامتثال أمره، فنؤمن بهم على أنهم عبادٌ لله، لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون، وليس لهم من الأمر شيء، ولا يشفعون إلا لمن ارتضاه الله تعالى.



(١) أخرجه أحمد (٤٣٩٦، ٣٩١٥، ٤٣٩٦).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٢٨٣).

﴿٦٠﴾ وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «**رأيت جبريل منهبطاً قد ملأ ما بين الخافقين، عليه ثياب سندس معلق بها اللؤلؤ والياقوت**». رواه أبو الشيخ[(١)].

﴿٦١﴾ ولابن جرير[(٢)] عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «جبرائيل عبد الله، وميكائيل عبيد الله، وكل اسم فيه «إيل» فهو عبد الله».

﴿٦٢﴾ وله عن علي بن الحسين مثله، وزاد: «وإسرافيل عبد الرحمٰن».

﴿٦٣﴾ وروى الطبراني[(٣)]، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألا أخبركم بأفضل الملائكة؟ جبرائيل عليه السلام**».

الشرح

قوله: «**إيل**» هذه كلمة أعجمية ليست عربية، فسَّرها ابن عباس بأن معناها: «عبد»، فيقول: كل ما في آخره «**إيل**» فهو تعبيد لله ـ جل وعلا ـ، ليس هذا من الأسماء العربية، ولهذا لا ينصرف جبريل؛ للعلمية والعجمة، وجبريل وجبرائيل سواء.

وقوله: «**أفضل الملائكة**»؛ أي: أقربهم عند الله ـ جل وعلا ـ، ومعنى ذلك أن الملائكة يتفاضلون كبني آدم، يقول الله ـ جل وعلا ـ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، فمن كان أتقى لله؛ فهو أقرب إلى الله، وليست العبرة بكثرة المال ولا المناصب ولا غير ذلك، فمن كان لله أطوع وأتقى؛ فهو إلى الله أقرب.

* * *

(١) أخرجه أحمد (٢٤٨٨٥)، وبنحوه مسلم (١٧٧)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٤٩٥).

(٢) «جامع البيان» للطبري (٢/ ٣٩٠).

(٣) «المعجم الكبير» (١١٣٦١).

﴿٦٤﴾ وعن أبي عمران الجوني أنه بلغه أن جبرائيل أتى النبي ﷺ وهو يبكي، فقال له رسول الله ﷺ: «**ما يبكيك؟**». قال: «وما لي لا أبكي، فوالله ما جفت لي عين منذ خلق الله النار؛ مخافةَ أن أعصيه فيقذفني فيها» رواه الإمام أحمد في «الزهد»[1].

﴿٦٥﴾ وللبخاري، عن ابن عباس - رضي الله تعالى عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ لجبريل: «**ألا تزورنا أكثر مما تزورنا؟**» فنزلت: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا﴾ [مريم: ٦٤][2].

ومن ساداتهم: ميكائيل ﷺ، وهو موكل بالقطر والنبات.

﴿٦٦﴾ وروى الإمام أحمد، عن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال لجبرائيل: «**ما لي لم أرَ ميكائيل ضاحكاً قط؟ قال: ما ضحك ميكائيل منذ خلقت النار**»[3].

الشرح

قوله: «**ما جفت لي عين**» هذا مع كبره وعظمه لا تجف له عين من البكاء؛ خوفاً من الله - جل وعلا -، وهكذا الملائكة، ومعنى ذلك أنه فُضل على الملائكة بزيادة العبادة والخوف والخشية من الله - جل وعلا -.

وكذلك ميكائيل وغيرهما من ملائكة الله يبكون خوفاً من الله، فإن من كان بالله أعرف؛ فهو له أخوف، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨].

❁ ❁ ❁

---

(١) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٩١٥).

(٢) أخرجه البخاري (٣٠٤٦).

(٣) أخرجه أحمد (١٣٣٦٧).

ومن ساداتهم: إسرافيل، وهو أحد حملة العرش، وهو الذي ينفخ في الصور.

﴿٦٧﴾ وروى الترمذي وحسنه، والحاكم، عن أبي سعيد الخدري - رضي الله تعالى عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «**كيف أنعم وصاحب الصور قد التقم القَرْن، وحنى جبهته، وأصغى سمعه، ينتظر متى يؤمر فينفخ**». قالوا: فما نقول يا رسول الله؟ قال: قولوا: «**حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا**»[1].

﴿٦٨﴾ وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**إن ملكاً من حملة العرش يقال له: إسرافيل، زاوية من زوايا العرش على كاهله، قد مرقت قدماه في الأرض السابعة السفلى، ومرق رأسه من السماء السابعة العليا**». رواه أبو الشيخ، وأبو نعيم في «الحلية»[2].

﴿٦٩﴾ وروى أبو الشيخ عن الأوزاعي قال: «ليس أحد من خلق الله أحسنَ صوتاً من إسرافيل، فإذا أخذ في التسبيح قطع على أهل سبع سماوات صلاتهم وتسبيحهم»[3].

الشرح

قول المصنف: «**ومن ساداتهم إسرافيل**» وهو الذي ينفخ في الصور. وقد جاء وصفه أنه قد حنى جبهته ورفع رأسه ينتظر متى يأمره الله - جل وعلا - فينفخ في الصور، فإذا نفخ في الصور انقلبت الأمور كلها، فصارت الجبال هباءً منثوراً، وكل حي يموت، والجبال تصير كالعهن المنفوش من الزلازل والاضطرابات الشديدة الهائلة جداً.

---

(١) «العظمة» (٢٧)، «حلية الأولياء» (٦/ ٦٦).
(٢) «العظمة» (٤٠٠).
(٣) «جامع الترمذي» (٢٤٣١).

وينفخ النفخة الأولى فيموت كل حي، ثم ينفخ الثانية فتذهب كل روح إلى جسدها، فالصحيح أن النفخ في الصور مرتان فقط وليس ثلاثاً، كما قال الله ـ جل وعلا ـ: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧﴾ [النازعات]، فالرجفة الأولى هي النفخة الأولى، والرادفة هي النفخة الثانية.

وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ۝٦٨﴾ [الزمر: ٦٨]، فالكل صَعِق؛ أي: مات كل من في السماوات ومن في الأرض، ويبقى الحي القيوم ـ جل وعلا ـ، ويبقى أيضاً إسرافيل.

ثم يقول الله ـ جل وعلا ـ: «مُت»[1]، فيموت، فلا يبقى إلا الواحد القهار، يقبض السماوات والأرضين وكل خلقه، ثم يهزهن ويقول: «**أنا القهار الجبار، أين المتكبرون؟ أين المتجبرون؟ لمن الملك اليوم؟**»[2]، فلا يجيب أحد، عندها لا يوجد أي مخلوق، فيجيب نفسه ـ جل وعلا ـ فيقول: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

يعني: أن إسرافيل استعدَّ للنفخ في الصور، وهذا قريب، ولا يدري متى يؤمر إلا الله ـ جل وعلا ـ فالنفخ في الصور هو نهاية الدنيا وفناؤها، بل نهاية كل حي، والله ـ جل وعلا ـ جعل هذه الأمور لحكمة، حتى يخبر عباده، فمنهم من يؤمن ومنهم من لا يؤمن، كثير من الناس ما يقبل هذه الأشياء؛ لأن عقله لا يستوعبها، ولا يقبلها إلا من هداه الله ـ جل وعلا ـ وسبقت له السعادة من الله ـ جل وعلا ـ؛ لأن أكثر الناس لا يؤمن إلا بما يشاهده.



---

(١) أخرجه إسحاق بن راهويه في «المسند» (١٠)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٣٨٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٧٠٧٥)، ومسلم (٢٧٨٦)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

ومن ساداتهم: ملك الموت ولم يَجِئْ مصرحاً باسمه في القرآن ولا في الأحاديث الصحيحة، وقد جاء في بعض الآثار تسميته بعزرائيل فالله أعلم، قاله الحافظ ابن كثير.

وقال: «إنهم بالنسبة إلى ما هيأهم الله له أقسام: فمنهم حملة العرش، ومنهم الكروبيون الذين هم حول العرش، وهم مع حملة العرش أشرف الملائكة، وهم الملائكة المقربون كما قال تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢].

ومنهم سكان السماوات السبع يعمرونها عبادةً دائمةً ليلاً ونهاراً، صباحاً ومساءً، كما قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنبياء]، ومنهم الذين يتعاقبون إلى البيت المعمور.

قلت: الظاهر أن الذين يتعاقبون إلى البيت المعمور سكان السماوات.



الشرح

سكان السماوات هم الملائكة كلهم، وهم الذين يتعاقبون إلى هذا البيت، ولهذا لا تأتي الفرصة لأحد منهم إلا مرة واحدة فقط لكثرتهم.

قوله: «**ومنهم سكان السماوات السبع**» وقد ملؤوها، ووظيفتهم العبادة والتسبيح والتكبير، وكذلك الطواف بالبيت المعمور.

* * *

ومنهم: موكلون بالجنان وإعداد الكرامات لأهلها، وتهيئة الضيافة لساكنيها، من ملابس ومآكل ومشارب ومصاغ ومساكن وغير ذلك؛ مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

ومنهم: الموكلون بالنار - أعاذنا الله منها - وهم الزبانية، ومقدَّموهم تسعة عشر، وخازنها مالك، وهو مقدم على الخزنة، وهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۝٤٩﴾ [غافر].

وقال تعالى: ﴿وَنَادَوْاْ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ ۝٧٧﴾ [الزخرف].

وقال تعالى: ﴿عَلَيْهَا مَلَـٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

وقال تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ۝٣٠ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَـٰٓئِكَةً﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣٠، ٣١].

الشرح

قوله: «**الموكلون بالجنان**» هم خزنة الجنة الذين يخدمون فيها، وهم يدخلون على المؤمنين من كل باب قائلين لأهل الجنة: ﴿سَلَـٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ۝٢٤﴾ [الرعد].

وقوله: «**الموكلون بالنار**» هم خزنة النار الذين يتولون تعذيب الكفار، وهم في النار لا تضرهم النار، ولا يتأثرون بها.

والوظائف التي ذكرت في القرآن كثيرة لهم، والمقصود من ذلك وجوب الإيمان بهم على هذا الوصف الذي ذكره الله - جل وعلا - عنهم.

ومنهم: الموكلون بحفظ بني آدم، كما قال تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ [الرعد: ١١].

﴿٧٠﴾ قال ابن عباس: «ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه، فإذا جاء أمر الله خَلَّوا عنه»[١].

﴿٧١﴾ وقال مجاهد: «ما من عبد إلا وملك موكل بحفظه في نومه ويقظته من الجن والإنس والهوامّ، فما منها شيء يأتيه يريده إلا قال له: وراءك، إلا شيء يأذن الله تعالى فيه فيصيبه»[٢].

ومنهم: الموكلون بحفظ أعمال العباد، كما قال تعالى: ﴿إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ ﴿١٧﴾ مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ﴿١٨﴾﴾ [ق].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الانفطار].

الشرح

وقوله: «الموكلون بحفظ بني آدم»؛ أي: وُكِّل بحفظ بني آدم، فيحفظه من بين يديه ومن خلفه.

وهنا كذلك ذكر جملة من الملائكة على حسب ما ذكرهم الله ـ جل وعلا ـ، فيجب علينا أن نؤمن بهم على هذا الوصف وعلى هذه الطريقة، وهم على قسمين:

الأول: قسمٌ مسمّىً لنا باسمه وبعمله، فنؤمن به باسمه وعمله.

الثاني: قسم منهم لَمْ يُسَمَّ وإنما ذُكر بالأعمال والأماكن فقط، فنؤمن به كذلك.

فمنهم: من وكل ببني آدم، سواء بحفظه أو بحفظ عمله أو بقبض روحه

---

(١) أخرجه الطبري في «التفسير» (١٦/ ٣٧١).

(٢) «البداية والنهاية» لابن كثير (١/ ٥٠).

أو بنفخ الروح فيه.

وقسم منهم أيضاً يسيرون جماعات يطلبون حِلَق الذِّكر، فإذا وجدوها حفّوا بها، وقالوا: هلمَّ إلى طلبَتِكم، ينادي بعضهم بعضاً، ويحفون بها، ويجلسون معهم، ثم يصعدون إلى ربهم، فيقول الله ـ جل وعلا ـ وهو أعلم بهم : **«من أين أتيتم؟»**.

فيقولون: جئنا من عباد لك يذكرونك ويسبحونك ويكبرونك، ويسألونك الجنة ويعوذون بك من النار. فيقول ـ جل وعلا ـ: **«وهل رأوهما؟»**. فيقولون: لا، ولو رأوهما لكانوا أشد طلباً للجنة، وهرباً من النار. فيقول: **«ماذا يطلبون؟»**. فيقولون: يطلبون المغفرة والعفو.

فيقول: **«أشهدكم أني قد غفرت لهم»**. فيقولون: إن فيهم فلاناً ليس منهم، وإنما جاء لحاجة فجلس. فقال: **«هم القوم لا يشقى جليسهم، وله قد غفرت»**[1]. وهذا قد صح عن رسول الله ﷺ.



(١) أخرجه البخاري (٦٠٤٥)، ومسلم (٢٦٨٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿٧٢﴾ روى البزار، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله ينهاكم عن التعرّي، فاستحيوا من ملائكة الله الذين معكم؛ الكرام الكاتبين الذين لا يفارقونكم إلا عند إحدى ثلاث حالات: الغائط والجنابة والغسل، فإذا اغتسل أحدكم بالعراء؛ فليستتر بثوبه أو بجِذْم حائطٍ أو بغيره»**[1].

قال الحافظ ابن كثير: «ومعنى إكرامهم: أن يَسْتَحْيي منهم، فلا يملي عليهم الأعمال القبيحة التي يكتبونها، فإن الله خلقهم كراماً في خلقهم وأخلاقهم».

ثم قال ما معناه: إن من كرمهم أنهم لا يدخلون بيتاً فيه كلب ولا صورة ولا جنب ولا تمثال، ولا يصحبون رفقة معهم كلب أو جرس.

الشرح

هذه من أوصاف الملائكة، والله ـ جل وعلا ـ أمرنا بإكرامهم، فقال: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾﴾ [الانفطار]؛ يعني: كراماً على الله، فإذا كانوا على الله كراماً؛ ففيه إشارة إلى أننا نكرمهم، ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾؛ يعني: لا يخفى عليهم عمل من أعمالكم فاستحيوا منهم، فلو كان الرجل معه أحد، فإنه لا يمكن أن يتعرى أمامه أو أن يعمل الشيء القبيح، ولكن مخالفة هذا تدل على عدم الإيمان بهم أو ضعف الإيمان، ، ولو كان قوياً لما عمل شيئاً يُستحيىٰ منه.

وذكر أنه لا ينبغي أن يواجههم بشيء يكرهونه، وأنهم لا يفارقون الإنسان إلا في إحدى ثلاث حالات:

الحالة الأولى: عند قضاء الحاجة؛ لأن الأماكن القذرة الخبيثة لا يدخلون فيها، ولكن يفارقونه، ولا يفارقونه مفارقةً كاملة، وإنما يجلسون عند

---

(١) أخرجه البزار في «المسند» (٤٧٩٩) وحُكم عليه بالضعف.

الباب أو في مكان ما، فإذا تكلم اضطروا إلى أنهم يأتوا ويسجلون هذه الكلمة، فلهذا لا يجوز للإنسان أن يتكلم وهو على حاجته؛ لأنه يشق عليهم ذلك كثيراً.

الحالة الثانية: عندما يأتي زوجته، فإنهم يفارقونه ولا ينظرون إلى العورات، فلهذا نُهي الإنسان عن الكلام في هذه الحالة؛ لأنه إذا تكلم اضطُرتِ الملائكة إلى أنها تأتي وتسجل الكلام، ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق].

الحالة الثالثة: عند الغسل، فمن كرم الملائكة أنهم لا يشاهدون العورات ولا يألفون الأماكن الخبيثة، وإنما يألفها الشياطين، فمقرهم الحمامات الخبيثة الكريهة؛ لأنها تناسبهم، ولهذا شُرع لمن أراد أن يدخل الحمام أن يُسمي، ويتعوذ بالله من الخُبُث والخبائث[1]، والخُبُث ذكورهم والخبائث إناثهم.

وكذلك إذا أراد أن يدخل البيت فإنه يتعوذ بالله منهم.

والملائكة لا يدخلون البيت الذي فيه كلب أو صورة، والبيوت في هذه الأيام مملوءة من ذلك، وهذه مصيبة.

والملائكة التي لا تدخل هم الملائكة السيارة، وملائكة الرحمة، أما الملائكة الذين يسجلون فهم يضطرون إلى الدخول، فيكون الإنسان أيضاً مذنباً بذلك، حيث شق على الكرام على الله ـ جل وعلا ـ بالدخول.



(١) أخرجه البخاري (١٤٢)، ومسلم (٣٧٥)، من حديث أنس رضي الله عنه.

﴿٧٣﴾ وروى مالك والبخاري ومسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم، فيسألهم وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون»**.

﴿٧٤﴾ وفي رواية: أن أبا هريرة قال: اقرأوا إن شئتم: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨](١).

﴿٧٥﴾ وروى الإمام أحمد ومسلم حديث: **«ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم؛ إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده، ومن بطأ به عمله؛ لم يسرع به نسبه»**(٢).

الشرح

قوله تعالى: ﴿مَشْهُودًا﴾؛ يعني: تشهده الملائكة.

وقوله: «**ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله**» هذه الاجتماعات أفضلها مدارسة العلم، فإن تعلم العلم أفضل من كونه يجلس للذكر فيقول: «سبحان الله.. والحمد لله.. والله أكبر..»؛ لأنه لا يمكن معرفة الشرع الذي جاء به الرسول إلا بالعلم، وهذا هو أفضل المجالس، فهم يحفون بمثل هذه المجالس، وأيضاً يغفر الله ـ جل وعلا ـ لهم عندما تكون النيات صالحة، ويُقصد بذلك وجه الله ﷻ.

❊ ❊ ❊

(١) أخرجه مالك (٥٩٠)، والبخاري (٥٣٠)، ومسلم (٦٣٢)، والرواية الثانية أخرجها البخاري (٦٢١)، ومسلم (٦٤٩).

(٢) أخرجه أحمد (١١٩١٠)، ومسلم (٢٦٩٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿٧٦﴾ وفي «المسند» و«السنن» حديث: **«إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً لما يصنع»**[1].

والأحاديث في ذكرهم عليهم السلام كثيرة جداً.



والمقصود من هذا الباب: أنه ينبغي أن يُؤمن بهم على حسب ما جاءت به النصوص في كتاب الله، وفي أحاديث رسوله ﷺ.

❁ ❁ ❁

(١) أخرجه أحمد (٢٤٠)، والترمذي (٣٥٣٥)، والنسائي (١٥٨)، من حديث صفوان رضي الله عنه.



باب
الوصية بكتاب الله

وقوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾ [الأعراف].

الشرح

الوصية هي الحض على الأخذ بما هو مهم، ويجب أن يُعض عليه بالنواجذ؛ لأنه مهم نافع، ولا أنفع من كتاب الله ـ جل وعلا ـ.

ومعنى الوصية بكتاب الله: العمل بأوامره، واجتناب نواهيه، وتلاوته، والإيمان بأنه كلام الله حقاً، وأن التالي له يريد بذلك وجه الله، فكل حرف عشر حسنات، كما يقول النبي ﷺ: «**لا أقول: ﴿الٓمٓ﴾ حرف، ولكن ألفٌ حرف، ولامٌ حرف، وميمٌ حرف**»[1]، وفيها ثلاثون حسنة.

وهذا أيضاً من الأمور التي تدعو الإنسان إلى الإقبال على كتاب الله، وهذا لمن يتفكر فيه ويؤمن به ويعمل بما جاء به، أما إذا كانت التلاوة لأمر آخر فليس للإنسان إلا ما أراد ونوى.



(١) أخرجه الترمذي (٢٩١٠)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

٧٧ عن زيد بن أرقم رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ خطب، فحَمِد الله وأثنى عليه، ثم قال: «**أما بعد: ألا أيها الناس! فإنما أنا بشر يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب، وأنا تارك فيكم ثَقلين: أولهما: كتاب الله، فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله وتمسكوا به**». فحث على كتاب الله ورغب فيه، ثم قال: «**وأهل بيتي**».

٧٨ وفي لفظ: «**كتاب الله: هو حبل الله المتين، من اتبعه كان على الهدى، ومن تركه كان على الضلالة**» رواه مسلم[1].

الشَّرْحُ

قوله: «**وأهل بيتي**»؛ يعني: الوصاية بهم لإكرامهم وإعطائهم حقوقهم التي لهم. أما ما يقوله بعض المخرفين من التمسك بهم أو التمسح بهم أو التوسل بهم؛ فهذا باطل، ولكنه ﷺ أوصى بأهل بيته أن يُحفظوا ويُعرف حقهم ويكرموا بكرامة رسول الله ﷺ؛ لأن الله أعلمه بما سيقع من العداء والبغض لهم، فمن الناس من أهدر هذا الأمر ولم يعرف حق رسول الله ﷺ في أهل بيته، فالحسين رضي الله عنه قُتل، فكيف يُقتل وهو ابن رسول الله ﷺ؟! قتله عُباد الدنيا والفجار الذين لا خير فيهم، وهذه الوصية التي أوصى بها لم ينتفعوا بها، ولكن انتفع بها أهل الحق الذين علموا أن قتله من أعظم الباطل، ومن أعظم ما يُحزن رسول الله ﷺ، فأوصىٰ بهم؛ لأنه علم ما سيقع لهم بما علمه الله ـ جل وعلا ـ.

وهذه الخطبة كانت في منصرفه من حجة الوداع، فجاء في مكان يقال له: «غدير خُم» بين مكة والمدينة، نزل هناك وخطب هذه الخطبة.

قوله ﷺ: «**رسول ربي**»؛ يعني: ملك الموت.

وقوله: «**وأنا تارك فيكم ثقلين: أولهما: كتاب الله**»، وفي رواية «**كتاب الله**

---

(١) أخرجه مسلم (٢٤٠٨).

وسُنَّتي»[١]، وفي رواية: «**وعترتي**»[٢]، وإن كان بعض العلماء قدح في رواية «**وعترتي**»، على كل حال؛ هذا أمر يجب أن يُتمسك به وأن يُعرف حق الرسول ﷺ فيه.

وأهل بيته لا يزالون موجودين إلى الآن، وهم الذين حُرمت عليهم الصدقة «الزكاة»، فيجب أن يُعرف حقهم وحق رسول الله ﷺ بوصيته.

أما قوله: «كتاب الله، فيه الهدى والنور»؛ أي: كما أخبر الرسول ﷺ، وربنا أخبر بذلك أنه ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٢]، وأن فيه شفاء ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء]، ولهذا يقول بعض السلف: ما جالس القرآنَ أحدٌ فسَلِمَ، إما أن يغنم أو يغرم؛ لأنه قال: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾.



(١) أخرجه مالك بنحوه (١٥٩٤).

(٢) أخرجها الترمذي (٣٧٨٦، ٣٧٨٨).

﴿٧٩﴾ وله في حديث جابر الطويل، أن النبي ﷺ قال في خطبة يوم عرفة: **«وقد تركت فيكم ما لن تضلوا إن اعتصمتم به: كتاب الله، وأنتم تسألون عني، فما أنتم قائلون؟»** قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت. فقال بأصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس: **«اللَّهُمَّ اشهد»** ثلاث مرات[(١)].



وهذا أيضاً فيه الوصية بكتاب الله ـ جل وعلا ـ، ومن ذلك أيضاً وصيته بسُنَّته ﷺ، فقد أوصى بها، فقال: **«تمسكوا بها، وعَضّوا عليها بالنواجذ»**[(٢)]، فهذه وصية بالتمسك بما جاء به ﷺ، فهي وصية بالشرع الذي جاء به، فيجب أن يُتمسك به كله، ولا يجوز أن يأخذ الإنسان منه شيئاً ويترك شيئاً، فإنه يكون داخلاً في قوله تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَـٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍۚ﴾ [البقرة: ٨٥].

❁ ❁ ❁

(١) أخرجه مسلم (١٢١٨).
(٢) أخرجه أحمد (١٧١٨٢)، وأبو داود (٤٦٠٩)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢)، من حديث العرباض بن سارية ﷺ.

﴿٨٠﴾ وعن علي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ألا إنها ستكون فتنة**». قلت: ما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: «**كتاب الله، فيه نبأ ما كان قبلكم، وخبرُ ما بعدكم، وحَكَمُ ما بينكم، هو الفصل، ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله، هو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا تشبع منه العلماء، ولا يَخْلَقُ عن كثرة الرّدّ، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا:** ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ [الجن: ١، ٢]، **من قال به صَدق، ومن عمل به أُجر، ومن حَكَم به عَدَل، ومن دعا إليه هُدي إلى صراط مستقيم**» رواه الترمذي، وقال: غريب[١].

الشَّرْحُ

الصحيح أنه موقوف على علي رضي الله عنه، وليس مرفوعاً إلى النبي ﷺ؛ أي: ليس من قوله.

وفي سنده الحارث الأعور[٢]، والكلام فيه معروف، ولكنه كلام حسن جميل في وصف كتاب الله، فلا يشك مَنْ يؤمن بالله ورسوله بأن الخير كله في الدنيا والآخرة بالتمسك بكتاب الله تعالىٰ، ففي ذلك سعادة الدنيا والآخرة، ولهذا لما كانت الأمة تطبق كتاب الله كانت لها السيادة والقيادة، وكلما زاد تمسكهم به زاد عزهم وقوتهم، والعكس بالعكس، وأعداء دينه قد عرفوا ذلك، فحَرَصوا كل الحرص على إبعاد المسلمين عن التمسك بكتاب ربهم، ولا يزالون يعملون كل ما في وسعهم لذلك.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٩٥٦).

(٢) قال الحافظ ابن حجر العسقلاني رحمه الله عنه: «صاحب علي، كذبه الشعبي في رأيه، ورُمي بالرفض، وفي حديثه ضعف، وليس له عند النسائي سوى حديثين، مات في خلافة ابن الزبير». «تقريب التهذيب» (١٠٢٩).

﴿٨١﴾ وعن أبي الدرداء رضي الله عنه مرفوعاً: «**ما أحل الله في كتابه فهو حلال، وما حرم فهو حرام، وما سكت عنه فهو عافية، فاقبلوا من الله عافيته، فإن الله لم يكن لينسى شيئاً**»، ثم تلا: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤]. رواه البزار، وابن أبي حاتم، والطبراني[1].

الشرح

يعني: أن كتاب الله ـ جل وعلا ـ فيه كل ما أُمرنا به وما نهينا عنه، فالشيء الذي ليس في كتاب الله لا نتكلفه ولا نطلبه ولا نعمل به، فهذا حقٌّ يجب أن نتمسك به، وذلك أن العبادة لا بد أن تكون من أمر الله ـ جل وعلا ـ، وإلا فلا تكون عبادة، فلا يجوز للإنسان أن يتعبد بشيء حتى يعلم أنه أمر من الله أو من رسوله ﷺ، فالأصل في العبادات التوقيف والمنع إلا إن وُجد دليل على ذلك، وهذا أمر متفق عليه ولا خلاف فيه، لهذا جاءت البدع مِنْ ترك التمسك بهذه القاعدة.

والتحليل والتحريم لله وحده، فما أحله الله وجب اتباعه وأخذه، وما حرمه وجب تحريمه اعتقاداً وعملاً، وهذا يتوقف على فهم ذلك والحرص على معرفته.



(١) «مسند البزار» (٤٠٨٢)، «مسند الشاميين» للطبراني (٢١٠٢)، وأخرجه الدارقطني (١٢)، والحاكم (٢٦٨٩).

﴿٨٢﴾ وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً، وعلى جَنَبَتَي الصراط سورانِ فيهما أبواب مُفَتحة، وعلى الأبواب سُتور مُرْخاة، وعند رأس الصراط داعٍ يقول: استقيموا على الصراط ولا تَعُوجوا، وفوق ذلك داعٍ يدعو، كلما هَمَّ عبد أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب؛ قال: ويحك لا تفتحه، فإنك إن تفتحه تلجه» ثم فسره، فأخبر «أن الصراط هو الإسلام، وأن الأبواب المفتحة محارم الله، وأن الستور المرخاة حدود الله، وأن الداعي على رأس الصراط هو القرآن، وأن الداعي من فوقه هو واعظ الله في قلب كل مؤمن» رواه رَزينٌ، ورواه أحمد، والترمذي، عن النواس بن سمعان بنحوه[1].

الشَّرْحُ

هذا مثل ضربه الرسول ﷺ، مثلٌ للقرآن وللواعظ الذي في قلب المؤمن؛ لأن كل عبد معه ملك يأمره بالخير، ومعه شيطان يأمره بالشر ويعده به، وكذلك جعل الله فيه الفطرة التي تقبل الحق، فهذا هو واعظ الله ـ جل وعلا ـ.

وكذلك الحدود والمحارم أمامه، فكونها مُفتحة أمامه فلا أحد يمنعه منها إلا خوف الله ـ جل وعلا ـ ومراقبته. والستر الموضوع عليها هو أوامر الله، يمكن أن ينتهكها ويدخل فيها ويمكن أن يتركها، فإن دخل فيها ولجها.

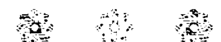
فعلى كل حال؛ هو مثل يدل على وجوب التمسك بالشرع الذي جاء به المصطفى، وأن المسلم لا يجوز له أن يحيد عنه يميناً أو شمالاً.

وقوله: «ولا تَعُوجوا»؛ يعني: لا تذهبوا هنا أو هناك عنه، وتتركون الصراط.

---

(١) «مسند أحمد» (١٧٦٧١)، وأخرجه الطبراني في «مسند الشاميين» (١١٤٧)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٧٢١٦).

وهذا التمثيل يدل على حسن تعليم الرسول وبلاغته، واستيعابه لمعانٍ كثيرة بالكلمات القليلة، وحرصه على هداية الناس، فيبرز المعاني بما هو محسوس.



﴿٨٣﴾ وعن عائشة رضي الله عنها قالت: تلا رسول الله ﷺ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾، فقرأ إلى قوله: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧]، قالت: قال: «**إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه؛ فأولئك الذين سمى الله، فاحذروهم**» متفق عليه[(١)].

الشرح

الآية هي قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾﴾ [آل عمران].

فالقرآن على قسمين:

الأول: محكم جلي واضح لا يحتمل غير ما قيل فيه، كقوله تعالىٰ: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾.

الثاني: فيه احتمال، وهذا المتشابه، والتشابه هنا يكون احتمالاً لبعض المعاني، فإذا أُرجع إلى المحكم الجلي زال الاشتباه، فهو متفقٌ معه، ولكن الذي في قلبه مرض وهوىً قد يتعلق بهذا المشتبه.

وهذه من المحن التي امتحن الله ـ جل وعلا ـ بها عباده، ولهذا تجد أهل الضلال يستدلون بالقرآن على ضلالهم، والقرآن لا يدل على الضلالة أبداً، ولكن لأنه جاء مجملاً وفيه احتمالات، بل حتى النصارى يستدلون على التثليث بشيء من القرآن، فيقولون: القرآن فيه ﴿نَحْنُ﴾ و﴿إِنَّا﴾، وهذا خطاب الجماعة، فإذاً الثلاثة كلهم آلهة، وهذا لا يقوله إلا من كان في غاية الضلال، ومثل هذا الذي يقوله النصارى نعيده إلى قوله: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ﴾ [البقرة: ١٦٣]، فيزول الاشتباه في هذا.

(١) أخرجه البخاري (٤٢٧٣)، ومسلم (٢٦٦٥).

فالمقصود: أن الرسول حذرنا من الذين يتبعون المتشابه، والمتشابه يكون نسبياً، فيكون متشابهاً عند قوم، ولا يكون متشابهاً عند آخرين.

ثم هذا الاشتباه إذا أُعيد إلى المحكم زال، فليس فيه اشتباه، فيكون متفقاً مع المحكم، فالمقصود: أنه إذا كان هناك شيء من الاشتباه؛ فإنه يعاد إلى المحكم الجلي، فيحصل الاتفاق.



﴿٨٤﴾ وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: خط لنا رسول الله ﷺ خطّاً بيده، ثم قال: «**هذا سبيل الله**» ثم خط خطّاً عن يمينه وعن شماله وقال: «**هذه سبل، على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه**». وقرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام]. رواه أحمد، والدارمي، والنسائي(١).

الشَّرْحُ

وهذا أيضاً مَثلٌ بالفعل، فخط الخط المستقيم، ثم جعل خطوطاً عن يمينه، وعن شماله، **وقال**: «**هذا سبيل الله**»؛ أي: الطريق المستقيم العدل. **و«هذه سبل»**؛ أي: التي عن اليمين والشمال، وهي سبل الشيطان.

ولهذا جاء وصف الباطل بأنه مجموع؛ لأنه طرقٌ متعددةٌ، وكل طريق مهلك، بخلاف الطريق الحق، فهو واحد لا يختلف، وهو مستقيم، فإذا استقام عليه العبد استقام على الحق، واستقام على الصراط الذي يُنصب فوق جهنم، وسلم من المحذور ومن العذاب.

سبل الشيطان

سبيل الله

سبل الشيطان



(١) أخرجه الدارمي (٢٠٢).

﴿٨٥﴾ وعن أبي هريرة ﷺ قال: كان ناس من أصحاب النبي ﷺ يكتبون من التوراة، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: «**إن أحمق الحمق وأضل الضلالة قوم رغبوا عما جاء به نبيهم إليهم إلى نبي غير نبيهم، وإلى أمة غير أمتهم**». ثم أنزل الله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [العنكبوت]. رواه الإسماعيلي في «معجمه»، وابن مردويه[١].



هذا يدلنا على وجوب التمسك بما جاءنا به رسولنا ﷺ، والاستغناء به، وعدم الالتفات إلى غيره، حتى وإن كانت التوراة والإنجيل، فكيف بكلام الفلاسفة وغيرهم؟ فهذا أعظم ضلالةً وأبعد عن الهدى.

ويبين كذلك أن أعظم الحمق والضلالة العدول إلى النظر إلى غير ما جاء به رسولنا ﷺ، إذْ فيما جاء به الهدى والسعادة في الدنيا والآخرة، وكتابنا مهيمن على جميع الكتب وناسخ لها، فلا يجوز أن نطلب من غيره الهدى والعلم.

❁ ❁ ❁

(١) «معجم الإسماعيلي» (٣٩٤)

﴿٨٦﴾ وعن عبد الله بن ثابت بن الحارث الأنصاري رضي الله عنه قال: دخل عمر رضي الله عنه على النبي ﷺ بكتاب فيه مواضع من التوراة، فقال: هذه أصبتها مع رجل من أهل الكتاب أعرضها عليك، فتغير وجه رسول الله ﷺ تغيراً شديداً لم أرَ مثله قط، فقال عبد الله بن الحارث لعمر رضي الله عنهما: أما ترى وجه رسول الله ﷺ؟ فقال عمر رضي الله عنه: رضينا بالله ربّاً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبيّاً. فَسُرِّيَ عن رسول الله ﷺ، وقال: «**لو نزل موسى فاتبعتموه وتركتموني لَضَلَلْتُم، أنا حظكم من النبيين، وأنتم حظي من الأمم**» رواه عبد الرزاق، وابن سعد، والحاكم في «الكنى»[(١)].

الشَّرْح

يعني: أنه يجب أن نكتفي بما جاءنا به رسولنا ﷺ، ولا نلتفت إلى غيره، وعمر رضي الله عنه أعجبه هذا الشيء الذي وجده في التوراة، وكانت التوراة معربة، وقد دخلها التغيير والتبديل، والذي لم يدخله تغيير أو تبديل نسخه الله ـ جل وعلا ـ بالقرآن الذي أنزله على نبيه ﷺ، فلا يجوز النظر فيها.

والكتب السماوية السابقة تنقسم إلى أقسام:

القسم الأول: يتفق مع ما في كتاب الله وأحاديث الرسول ﷺ، فهذا نؤمن به وهو حق.

القسم الثاني: لا يتفق مع ما عندنا بل يكذبه، وهذا يجب أن نكذبه ونرده؛ كالطعن في الأنبياء عليهم السلام ونحو ذلك، لأن كتب الله كلها حق، ويصدق بعضها بعضاً.

القسم الثالث: مسكوتٌ عنه، وهذا لا نصدقه ولا نكذبه، ونقول: آمنا بما أنزل الله من كتاب، أما أن نأخذه ونقرأه ونتفكر فيه؛ فلا؛ لأن عندنا ما يُغنينا وهو الذي جاء النهي عنه في هذا الحديث ونحوه.

---

(١) «مصنف عبد الرزاق» (١٠١٦٤)، وأخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٥٢٠١).



حقوق النبي ﷺ

وقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ الآية [النساء: ٥٩].

الشرح

قال رحمه الله تعالى: «**باب حقوق النبي ﷺ**»، وجعلها مجموعة «حقوق» ولا فرق بين الجمع وبين الإفراد في حق النبي؛ لأن المفرد إذا أضيف فإنه يكون عاماً؛ كقوله جل وعلا: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ [إبراهيم: ٣٤]؛ يعني: نعم الله.

وكثيراً ما يأتي في الكتب التي تُقرأ أن المؤلف يذكر جزء من الآية، ثم يقول: «الآية»، ومعناه: «اقرأ الآية»؛ لأنهم كانوا يكتبون بأيديهم، فيرون أن فيه اختصاراً؛ لأن المفروض أن القارئ يكون حافظاً للقرآن، ولهذا لم يكونوا يكتبونها، ولو تصوروا أن القارئ لا يحفظ لم يقولوا: «الآية»، ولأكملوها.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ وجه حق الرسول في هذه الآية: أن الله أمر بطاعة الرسول مع طاعة الله، والخطاب موجه للمؤمنين؛ لأنهم هم الذين يمتثلون ذلك، وإلا فهذا للخلق كلهم، والذين لا يطيعون الله ولا يطيعون رسوله قد أُعِدَّتْ لهم النار، ثم هذا عام مطلق لا يخرج منه أي أمر يأمر به، فيجب أن يطاع في كل أمر.

قال: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾ وأطلق، وكذلك مثله ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾، فكرر لفظ: «الطاعة»؛ ليدل على أن طاعة الرسول ﷺ كطاعة الله، ومن أطاع الله ولم يطع

الرسول فهو عاصٍ. ولم يعد لفظ الطاعة لأولي الأمر، والسبب: أن طاعتهم تبع لطاعة الرسول ﷺ.

يقول علماء التفسير: إن أولي الأمر هم العلماء والأمراء، فهم ينفذون أمر الرسول ﷺ.

قال: ﴿وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾؛ يعني: أطيعوهم، وقد جاء الحث من المصطفى ﷺ على طاعة ولي الأمر، وعدم الخروج عليه في أحاديث كثيرة، وهذا يدلنا على أنه رسول، وأن هذا من آياته؛ أي: معجزاته؛ لأنه عَلم أنه سيأتي خلل في هذا الأمر عند كثير من المؤمنين، وكرر هذا وأكثر منه وبالغ فيه، فقال ﷺ: **«لو تأمر عليكم عبد حبشي مجدَّع الأطراف، فاسمعوا له وأطيعوا»**[(١)]، وقال أيضاً: **«من أطاع أميري فقد أطاعني، ومن عصاه فقد عصاني»**[(٢)].

ومعلوم أن طاعة المخلوق مقيدة، ولو كانت أمك أو أبوك، فهي مقيدة بطاعة الله ـ جل وعلا ـ، أما المعصية فلا طاعة فيها، فـ**«لا طاعة لمخلوق في معصية الله»**[(٣)]، ولكن كثير من الناس لا يعرف المعصية، ويرى أنها إذا جاءت مخالفة للعادة فإنها معصية، وسبب هذا القصور. ثم كذلك لا يفرقون بين المعاصي، لما أخبر الرسول ﷺ أنه **«سيكون أمراء، فتعرفون وتنكرون»**؛ فقال الصحابة: ألا نقاتلهم؟ قال: **«لا، ما صلوا»**[(٤)].



---

(١) أخرجه أحمد (١٦٧٠٠، ٢٣٢٨٢)، والنسائي (٤١٩٢)، وابن ماجه (٢٨٦١)، من حديث أم الحصين رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البخاري (٦٧١٨)، ومسلم (١٨٣٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أحمد (١٠٩٥، ٣٨٨٩)، من حديث علي، وابن مسعود رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه مسلم (١٨٥٤)، من حديث أم سلمة رضي الله عنها.

وقول الله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝٥٦﴾ [النور: ٥٦].

وقول الله تعالى: ﴿وَمَا ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ الآية [الحشر: ٧].

٨٧ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، ويؤمنوا بي، وبما جئت به، فإذا فعلوا ذلك؛ عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله عز وجل»** رواه مسلم[1].

الشرح

وقول الله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝٥٦﴾ فيه أمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الرسول ﷺ، وجعل هذا من أسباب الرحمة؛ لأن التعليل من ربنا ـ جل وعلا ـ أمر واقع، أما التعليل من عندنا ففيه الترجي، أما من الله فليس فيه تَرَجٍّ؛ لأنه علام الغيوب.

ومعنى إقامة الصلاة: أن نأتي بها تامة، ليس فيها اعوجاج أو نقص، وتكون تامة بخشوعها وشروطها وواجباتها، ومن الواجب فيها حضور القلب، وليس للإنسان من صلاته إلا ما حضر، أما الخشوع فيها فمستحب وليس واجباً، وأما حضور القلب فهو واجب، ومعنى حضور القلب: أن تعرف أين أنت؟ وماذا تقول؟ وما يقال؟ تعرف ما معنى الركوع؟ كيف تركع؟ وهكذا تتصور هذه الأمور.

والرسول ﷺ يقول: **«إذا قام أحدكم إلى الصلاة فلا يبصق أمامه، فإنما يناجي الله»**[2]، فمناجاة الرب ـ جل وعلا ـ ليست سهلة، فأمرها عظيم،

---

(١) «صحيح مسلم» (٢١).

(٢) أخرجه البخاري (٤٠٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وينبغي للإنسان أن يستحضر مناجاة الجبار الكبير تعالى وتقدس، وهذا لا يحظى به إلا المؤمن، وأكثر الناس عن ذلك غافلون، وهذا كرم الله يكرم به من يشاء، وينبغي أن نتأمل قوله جل وعلا: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿١٨﴾﴾ [الحج]؛ يعني: الذي لا يسجد قد أهانه الله ـ جل وعلا ـ، فالسجود إكرام من الله للعبد، فينبغي أن يرتبط بهذا ويتصوره.

الشاهد من هذه الآية قوله: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ وطاعة الرسول يجب أن تكون مطلقة في كل ما يأمر به، وليس للعبد فيها خيار، وعلل ذلك بقوله ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [النور]؛ يعني: أنها تكون سبباً لرحمة الله ـ جل وعلا ـ.

وقوله: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ يدخل فيه كل ما قاله الرسول ﷺ، وما أمر به، وما فعله، فيجب أن نأخذه وأن ننتهي عما نهى عنه، وإن لم نفعل ذلك فقد عصينا.

وقوله ﷺ: «**ويؤمنوا بي وبما جئت به**»، فالإيمان به هو طاعته، واتباعه صلوات الله وسلامه عليه، فيكون هذا مثل الآية السابقة.



٨٨ ولهما عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاث مَنْ كُنَّ فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه، كما يكره أن يقذف في النار**»[1].

الشرح

قوله: «**ثلاث**» ابتدأ بالنكرة، مع أنه لا يجوز الابتداء بها، وذلك أنها موصوفة، «**ثلاث من كنّ فيه**» هذا هو الوصف.

وقوله: «**كنّ**» هنا تامة؛ أي: لا تتطلب اسماً ولا خبراً، وتكتفي بمفعولها.

قوله: «**وجد بهن حلاوة الإيمان**» يدل هذا على أن للإيمان حلاوة، وأن بعض المسلمين يجدها وبعضهم لا يجدها، فالذي فيه هذه الخصال الثلاث على الوجه الذي يتأثر بها ويعرفها؛ فإنه يجد حلاوة الإيمان.

وقوله: «**سواهما**» فيه إشكال في لفظه وليس في معناه، وذلك أن خطيباً خطب بين يدي النبي ﷺ فقال: ومن يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوىٰ. فقال ﷺ: «**بئس خطيب القوم أنت، قل: ومن يعص الله ورسوله**»[2]، فأنكر عليه أن يجمع بين الضميرين، وهنا في هذا الحديث جمع بينهما، فكيف التوفيق؟

أجاب العلماء بأجوبة عديدة، **ومن أحسنها قولهم**: إن معصية الله أو معصية الرسول؛ كل واحد منهما تكفي في ضلال الإنسان، فلا يجمع بينهما، فإذا عصى الله فقد غوى، وإذا عصى الرسول فقد غوى.

الجواب الثاني: أن إنكار النبي ﷺ على الخطيب من باب الأدب وفعل

---

(١) أخرجه البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣).

(٢) أخرجه مسلم (٨٧٠)، من حديث عدي بن حاتم ﷺ.

الأكمل، وأن قول النبي ﷺ: «سواهما» من باب الجواز، والجواب الأول أحسن وأولى، وهناك أجوبة غير هذه، والله أعلم[١].

فالمقصود من هذا الحديث: أنه جعل طاعة الرسول ﷺ طاعةً لله، ومعصيته ﷺ معصيةً لله، ودل على وجوب طاعته في كل شيء.

وفيه وجوب محبة الله ومحبة رسوله ﷺ، أما محبة الله تعالى؛ فهي محبة ذل وتعظيم وعبادة. وأما محبة الرسول ﷺ فهي لله وفي الله، فنحبه لأن الله يحبه وأمرنا بحبه، فمحبته تابعة لمحبة الله تعالى، وليست محبة مع الله، فالمحبة معه شرك وخروج عن الإسلام.



(١) انظر: «المفهم لما أشكل من تلخيص مسلم» للقرطبي (٣/ ٣٨٣)، «شرح صحيح مسلم» للنووي (٦/ ١٥٩)، «فتح الباري» لابن حجر (١/ ٦١).

﴿٨٩﴾ ولهما عنه مرفوعاً: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكونَ أحبَّ إليه من ولده ووالده والناس أجمعين**»[١].

الشرح

قوله: «**لا يؤمن**» نفي للإيمان، والنفي المعتاد الذي جاء في كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ يكون لأمر واجب متعين، ولا يمكن أن يكون من أجل نفي شيء مستحب، وأقل ما يقال فيه: إنه واجب، إن لم يكن فرضاً لازماً، إذا انتفى فإنه يعذب به الإنسان؛ لأنه نقص في إيمانه أو ذهاب له.

قوله: «**حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين**» وهذا الحب حقيقي، وليس كما يقول بعض المتكلمين: إنه حب عقلي، بل هو حب حقيقي يجب أن يكون متحلياً به، وقد جاء تفسيره في أحاديث أخرى، كالذي في البخاري عن عمر رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله!: لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي. فقال: «**لا يا عمر حتى أكون أحب إليك من نفسك**». قال: والله لأنت أحب إلي الآن حتى من نفسي. فقال: «**الآن**»[٢]؛ أي: الآن أديت الواجب الذي عليك، فالحب على ظاهره، ويجب أن يكون الرسول أحب إليه حتى من نفسه وولده ووالده وماله.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة].

ومعنى هذه الآية: إنه إذا كانت هذه الأمور الثمانية: الآباء، والأبناء، والإخوان، والأزواج، والعشيرة والأموال، والمساكن، والتجارة؛ أحبَّ إلى الإنسان من الله ومن رسوله ومن الجهاد في سبيله؛ يقول: فلينتظر عذاب الله،

---

(١) أخرجه البخاري (١٥)، ومسلم (٤٤).

(٢) أخرجه البخاري (٦٢٥٧).

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾؛ يعني: إذا تصور الإنسان هذا هل سيكون حاله هكذا؟

ومعناه: أنهم تركوا أمراً واجباً يتعين عليهم، ولكن بتركهم هذا الواجب صاروا ناقصي الإيمان وليسوا كفاراً، والفاسق هو الذي خرج عن الطاعة مطلقاً، وقد يكون كافراً، وقد يكون عاصياً فقط.

ويجب أن نفرق بين حب الله وحب الرسول، فحب الرسول ﷺ حب في الله ولله، فمحبته تبع لمحبة الله، أما حب الله فهو حب عبادة وتأله، وحب ذل وخضوع، وهذا لا يكون إلا لله ـ جل وعلا ـ.

ولهذا يقول العلماء: المحبة تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: محبة خاصة، وهي التي تكون لله ـ جل وعلا ـ، وهي محبة الذل والعبادة والخضوع والتعظيم، أما ما يكمّلها فهو محبة ما يحبه الله؛ أي: محبة طاعته ومحبة أوليائه، ومن أول ما يدخل في هذا: محبة الرسول ﷺ، فهي تابعة لمحبة الله ـ جل وعلا ـ.

القسم الثاني: محبة مشتركة، وهي الموزعة بين الناس، فلا ضير على الإنسان فيها، وهي أنواع، منها:

المحبة الطبيعية، وهي التي طُبع الإنسان على حبها، مثل الأكل والشرب والشهوة وما أشبه ذلك.

ومحبة الألفة، فالإنسان إذا كان يألف شخصاً ويجلس معه ويذهب معه ويدرس معه، فتكون بينهما محبة، وهذه تسمى محبة الألفة، وهذه تقع بين الحيوانات أيضاً.

ومحبة حنو وإشفاق، كمحبة الوالد لولده الصغير.

ومحبة تقدير وإجلال، كمحبة الولد لوالده.

وكلها لا بأس بها، ولكن المحبة الخاصة هي التي لا يجوز أن تكون إلا لله ـ جل وعلا ـ، وهذا يجب أن يُعرف، ويفرق بين هذه الأشياء.

﴿٩٠﴾ وعن المِقْدام بن مَعْدِي كَرِب الكِنْدي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**يوشك الرجل متكئاً على أريكته يُحدِّث بحديث من حديثي، فيقول: بيننا وبينكم كتاب الله عز وجل، فما وجدنا فيه من حلال استحللناه، وما وجدنا فيه من حرام حرمناه. ألا وإنَّ ما حرّم رسول الله ﷺ مثلُ ما حرم الله**» رواه الترمذي، وابن ماجه[1].

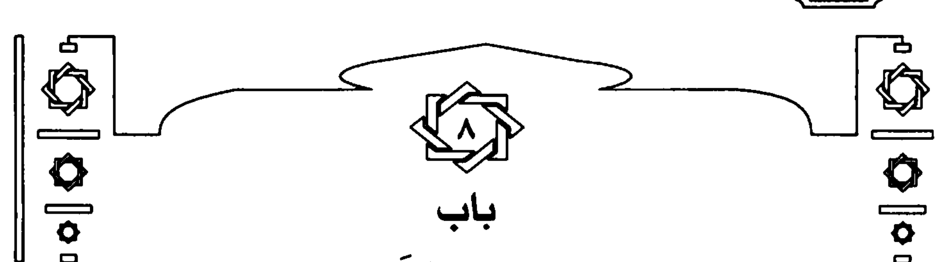
الشَّرْحُ

إنَ من حقوق الرسول ﷺ أن تطيعه في كل ما جاء به، وتجعل طاعته كطاعة الله؛ لأنها طاعة لله ـ جل وعلا ـ، كما قال: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

وكل ما جاء به الرسول ﷺ فإنه يجب أن يُقبل ويعمل به ويُتلقى بالقبول، وكذلك ما نهى عنه، فإنه يجب أن يُجتنب، وهذا معنى شهادة أن محمداً رسول الله؛ يعني: أن تعلم أنه رسول حقاً، جاء من عند الله، وأن لا تعبد الله إلا بما جاء به، وأن تعلم أنه ليس له مع الله شِرْكة في الأمر والتَّأَلُّه، وإنما هو كُلِّف بإبلاغ الرسالة، وهو عبْد تعبَّدك الله ـ جل وعلا ـ بطاعته، ويجب عليك أن تحبه أكثر من محبة نفسك وما دونها.



(١) «جامع الترمذي» (٢٦٥٧)، «سنن ابن ماجه» (١٢)، وأخرجه أحمد (١٧٢٣٣)، والدارمي (٥٨٦).



باب
تحريضه ﷺ على لزوم السُّنَّة، والترغيب في ذلك وترك البدع والتفرق والاختلاف، والتحذير من ذلك

الشرح

قوله: «**تحريضه**» التحريض هو الأمر المبالغ فيه، حرض يعني: بالغ في الأمر، وحرضه كرره على لزوم السُّنَّة، وهذا جاء مبالغاً فيه من الرسول ﷺ.

وقوله: «**لزوم**»؛ أي: الاهتمام به والتمسك به أكثر من غيره.

و«**السُّنَّة**»: هي الطريقة المتبعة، وهي عبارة عن الشرع الذي جاء به الرسول ﷺ، سواء شُرعت بقوله أو بقول الله ـ جل وعلا ـ.

و«**الترغيب**»؛ يعني: ذكر الفضل الذي يرغب فيه الإنسان من النعيم الذي يترتب على ذلك.

و«**البدع**» هي الدين الجديد، فكل ما لم يأتِ به الرسول ﷺ فهو بدعة، سواء من الأفعال أو الأقوال.

و«**التفرق**» هو أن يكون لكل قوم طريق ومنهج وجماعات، فوجود الجماعات من التفرق وعدم الاجتماع، والاعتزاء إليها والتعصب للمذهب أو للشخص، فهذا كله من التفرق المنهي عنه الذي يُعاقب عليه الإنسان إن لم يتب منه.

ولهذا في إحدى مغازي رسول الله ﷺ كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار. فقال المهاجري: يا لَلْمهاجرين! وقال الأنصاري: يا لَلْأنصار!

فسمعهم الرسول ﷺ، فقال: «**ما بال دعوى الجاهلية؟ دَعوها فإنها منتنة**»[١] مع أنها أسماء محبوبة لله ـ جل وعلا ـ، ولكن فيها شيء من التعصب للقوم.

فكل شيء يخالف الاجتماع والائتلاف والمحبة ويدعو إلى ذلك فهو من أمر الجاهلية ومن التفرق، والله حذرنا من هذا فقال: ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٣]، فأوعد المتفرقين بالعذاب العظيم، ثم قال: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦] فالذين تبيض وجوههم هم أهل الأُلفة والاجتماع، والذين تسود وجوههم يوم القيامة هم أهل التفرق والاختلاف، فهذا أمر مهم جداً.

ونحن نشاهد المسلمين اليوم للأسف يقول بعضهم: هذا جماعة.. وهذا جماعة.. فإن كان الاجتماع على الخير وعلى الدعوة؛ فهذا أمر مطلوب، ولكن الاجتماع الذي يدعو إلى التحزب والتعصب، فيقال: الجماعة الفلانية والجماعة الفلانية؛ فهذا لا يجوز، وهذا من دواعي التفرق والتفكك، والله أمرنا بأن نجتمع جميعاً ولا نتفرق ولا نتنازع، وإلا نفشل وتذهب قوتنا.



(١) أخرجه البخاري (٣٣١٥)، ومسلم (٢٥٨٤)، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

وقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ الآية [الأنعام: ١٥٩].

وقوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ الآية [الشورى: ١٣].

الشرح

قوله تعالى: ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ الأسوة الاقتداء؛ أي: أن تتأسى به وتقتدي به، فالرسول ﷺ ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ ينبغي أنكم تتبعونها، ولكن هذا ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾، والرجاء هنا هو التيقن والإيمان، وليس التردد بين أمرين كما يعرفه بعض الناس. أما قوله: ﴿وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾ فهو الجزاء، ﴿وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ فيه الحض على الذكر.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا﴾ الشيع هو أن يتحزب إلى شيعته، والشيعة التناصر، شايع فلاناً يعني: ناصره.

وقوله: ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾؛ يعني: أنهم قد بلغوا مبلغاً يستحقون الترك والعذاب من الله ـ جل وعلا ـ.

وقوله: ﴿أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ يدلنا على وجوب الاجتماع، وأن دين الرسل واحد، وهذا في أصل الإيمان بالله ـ جل وعلا ـ وبرسله وبتوحيد العبادة، وإن كان يقع الاختلاف في الشرائع كما هو معلوم.



﴿٩١﴾ وعن العرباض بن سارية ﷺ قال: وعظنا رسول الله ﷺ موعِظةً بليغة، ذَرَفَتْ منها العيون، ووَجِلتْ منها القلوب، فقال قائل: يا رسول الله! كأن هذه موعظة مودع، فما تعهده إلينا؟ فقال: «**أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة وإن كان عبداً حبشياً، فإنه من يَعِشْ منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسُنَّتي وسُنَّةِ الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها، وعَضُّوا عليها بالنواجِذ، وإياكم ومحدثاتِ الأمور، فإن كل محدثةٍ بِدعةٌ، وكل بدعةٍ ضلالة**» رواه أبو داود، والترمذي وصححه، وابن ماجه[1].

﴿٩٢﴾ وفي رواية له: «**لقد تركتكم على البيضاء، ليلُها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك، ومن يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً**» ثم ذكره بمعناه[2].

﴿٩٣﴾ ولمسلم عن جابر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أما بعد: فخير الحديث كتاب الله، وخير الهدى هدى محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة**»[3].

الشَّرْح

الوصية هي التقدم بأمر مهم يجب أن يُتمسك به، لهذا فالوصايا التي تكون عند الموت يجتمع عليها وتكون مهمة جداً.

قال: «**أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة**» فنسمع ونطيع وإن كان في أصله وفي خلقه ليس من جنسنا وليس من قومنا، فإذا تأمر علينا؛ فإنه يجب علينا أن نطيعه ونتبعه ما دام يقودنا بكتاب الله وسُنَّة رسوله، «**وإن كان عبداً**»

---

(١) «سنن أبي داود» (٤٦٠٩)، «جامع الترمذي» (٢٦٧٦)، «سنن ابن ماجه» (٤٢).
(٢) أخرجها أحمد (١٧١٨٢).
(٣) أخرجه مسلم (٨٦٧)، من حديث جابر ﷺ.

يُباع ويشترى، فلا تجوز المنازعة، ولا يجوز أن يُخرج عليه؛ لأن هذا فيه قوة للمسلمين، والخروج على الأمير فيه الضعف والاختلاف، وتترتب عليه أمور فظيعةٌ جداً؛ كسفك الدماء، وانتهاب الأموال، وانتهاك الأعراض، وغير ذلك، ولهذا حذر من هذا كثيراً.

ومن المؤسف أن كثيراً من الناس صار عندهم خلل في هذا الأمر، فإذا رأوا معصيةً من ولي الأمر أو أمراً من الأمور التي لا يرتضونها؛ صاروا يحضون على الخروج عليه وعلى معصيته. والواجب أنه إذا رأى شيئاً من ذلك أن يبادر بالنصح له بالخفاء، وليس بالشهرة، ويزال هذا المنكر، وأن يجتهد في النصح له، وأما إن لم يستطع؛ فعليه بالطاعة بالمعروف، وأن لا ينزع يداً من طاعة، وإلا دخل في الوعيد الشديد، نسأل الله العافية.

ثم قوله ﷺ: «**فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً**» هذا دليل من أدلة النبوة؛ لأنه وقع الاختلاف الكثير، ووقعت المنازعة، وصار القتال العظيم بين أمير المؤمنين علي رضي الله عنه وبين أهل الشام، وقُتل آلاف المسلمين، ولم يقاتل عدواً، بل طمعت الأعداء في بلاد المسلمين، وصاروا يُؤخذون من أطراف البلاد؛ بسبب القتال بينهم، وأي فائدة تعود على المسلمين في هذا؟ لا فائدة من ذلك إلا الضرر.

وإن كان الذي نازع في الأمر مفضولاً؛ فإنه يكون أقوى وأولى وأحسن، ولكن الأمر الذي قدره الله لا بد منه، وهذا الذي قُدر ووقع بين الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ، ويجب أن نُعرض عنه ولا نتكلم فيه؛ لأنه أمر وقع ولا فائدة في الخوض فيه إلا إيغال الصدور، وتكون هناك حزازات، ولماذا ما صار كذا؟ ولماذا كان كذا؟ الصحابة هم أفضل الناس ويجب أن يُعرض عن هذا.

ثم يقول: «**فعليكم بسُنَّتي**» هذا تحريض؛ يعني: تمسكوا بها، وسُنَّته ﷺ هي الدين الذي جاء به.

ثم قال: «**وسُنَّة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي**» الخلفاء الراشدون جاء تعيينهم بالنص، وليس بالاجتهاد، فقال النبي ﷺ: «**الخلافة في أمتي**

ثلاثون سنة»[١]، فإذا حُسب وجُد أن الخلفاء الأربعة هم الخلفاء الراشدون: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وستة أشهر للحسن بن علي[٢]، فبذلك تكمل ثلاثون سنة، ولما تنازل لمعاوية صار معاوية ملكاً، وليس من الخلفاء، وهو أول ملوك المسلمين، وهو أفضل الملوك وأحسنهم.

فالمقصود: أن هذا فيه الحث على التمسك بسُنَّته ﷺ وكذلك سُنَّة الخلفاء الراشدين، وليس معنى ذلك أن الخلفاء يأتون بشيء جديد يسنونه، وإنما معناه اتبعوهم فإنهم على سُنَّة المصطفى، ولهذا قال: «**وإياكم ومحدثات الأمور**» ولو أنهم يأتون بشيء لم يأتِ به الرسول لكان هذا تناقضاً، فكيف يأمرنا باتباعهم ثم يقول: «**إياكم ومحدثات الأمور**»؟ فدل هذا على أن سُنَّتهم إنما هي نشر لسُنَّة الرسول ﷺ والتمسك بها، ولكن حث على ذلك ترغيباً في اتباعهم، وكذلك العلم بأنهم على الحق ولم يخرجوا عنه.

وكتاب الله وسنة رسوله لا يفترقان، بل السنة تشرح الكتاب وتبينه، وكتاب الله هو خير الكلام وأهداه، وفيه خير الدنيا والآخرة. وهدى الرسول ﷺ هو سنته واتباعه والاقتداء به، وهو واجب على كل مكلف ولا سعادة إلا بذلك، وبمخالفته يكون العذاب والشقاء.

وقوله: «**فإن كل محدثة بدعة**» البدعة هي الشيء الجديد الذي جاء مُبتدَعاً ولم يُسبق، وهذا إذا كان في الدين فهو ضلالة، والضلالات كلها في النار.

وقوله: «**تركتكم على البيضاء**» يعني: على الجادة وعلى الطريق الذي سُلك وصار سهلاً متبعاً واضحاً لا اعوجاج فيه، وليس فيه ما يُعثر به السائر، ولهذا **قال**: «**ليلها كنهارها**»؛ يعني: أنها لا تخفى، فالرسول بيَّنها ووضَّحها، لهذا إذا ادعى مدّعٍ أن ما جاء به الرسول فيه شيء من الخفاء فهو كاذب،

---

(١) أخرجه أحمد (٢١٩٦٩)، والترمذي (٢٢٢٦)، من حديث سفينة ﷺ مولى النبي ﷺ.

(٢) خلافة أبي بكر: سنتان وثلاثة أشهر، وعمر: عشر سنوات وشهران. وعثمان: اثنتا عشرة سنة وأربعة أشهر، وعلي: أربع سنوات وتسعة أشهر، والحسن ستة أشهر.

فالنبي وصف سُنَّته بهذا الوصف الظاهر الواضح.

يقول: «**لا يزيغ عنها**»؛ يعني: لا يحيد عنها ويميل إلى غيرها، «**إلا هالك**»؛ يعني: بعذاب الله ـ جل وعلا ـ، وهذا فيه وعيد.

وقوله: «**ومن يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً**»؛ يعني: اختلافاً في العقائد واختلافاً في المنهج، واختلافاً في الاجتماع، فيتفرقون، وكل هذا تحذير من رسولنا ﷺ بأن لا نتفرق، ولا نترك شيئاً من سُنَّته، والأمر لله ـ جل وعلا ـ.



﴿٩٤﴾ وللبخاري، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى**». قيل: ومن يأبى؟ قال: «**من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى**»(١).

﴿٩٥﴾ ولهما عن أنسٍ رضي الله عنه قال: جاء ثلاثةُ رهْط إلى أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أُخبروا بها كأنهم تقالُّوها. فقالوا: أين نحن من النبي ﷺ؟ قد غُفِر له ما تقدم من ذنبهِ وما تأخر. فقال أحدهم: أما أنا فأصلي الليل أبداً. وقال الآخر: أنا أصوم النهار ولا أُفطر. وقال الآخر: أنا أعتزل النساء، فلا أتزوج أبداً. فجاء النبي ﷺ إليهم، فقال: «**أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سُنَّتي فليس مني**»(٢).

الشرح

قوله: «من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني دخل النار» هذا فيه الترغيب في طاعة الرسول ﷺ، والتحذير من معصيته، وأن معصيته من أسباب دخول النار، بل هي من دواعيها ومن الطرق إليها، وهذا أمرٌ لا شك فيه، فمن يعصيه يدخل النار، ومن يطيعه يدخل الجنة، فدل على أن طاعته تستقل بالسعادة، ومعصيته تستقل بالشقاء.

وقوله: «فمن رغب عن سُنَّتي فليس مني» هذا فيه التحذير من الغلو والزيادة في الأمر، وأن الغلو وتجاوز أمر الرسول ﷺ وما جاء به مثل تركه، فكلاهما مهلك، فيجب على الإنسان أن يكون متبعاً، لا جافياً ولا غالياً متنطعاً.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٨٥١).

(٢) أخرجه البخاري (٤٧٧٦)، ومسلم (١٤٠١).

﴿٩٦﴾ وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**بدأ الإسلام غريباً، وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء**» رواه مسلم[(١)].

﴿٩٧﴾ وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به**». رواه البغوي في «شرح السُّنَّة»، وصححه النووي[(٢)].

الشَّرْحُ

قوله: «**غريباً**» الغريب هو الذي لا نظير له، فالإسلام قد بدأ بالرسول ﷺ، وهو أول من أسلم وليس معه أحد، ثم دخل الرجل والمرأة والرجلان وهكذا، واحداً بعد واحد، زوجته كانت معه، ثم أبو بكر وبلال وعلي، وهكذا، ويدخلون على خوف من قومهم أن يفتنوهم.

يقول: «**وسيعود غريباً كما بدأ**»؛ يعني: يكون الواحد والاثنين، وهذا حق كما أخبر به الرسول ﷺ، ومعنى ذلك الإخبار والتحذير من الابتعاد عن دين الرسول ﷺ، وأن لا يكون الإنسان قد خرج وانفرد في الإسلام.

وقوله: «**لا يؤمن أحدكم**» هذا نفي، والنفي ـ كما سبق ـ لا يكون لشيء مستحب، وإنما يكون لأمر واجب يُعذب الإنسان على تركه ويُلام.

وقوله: «**هواه**» الهوى هو الشهوة، وما يهواه الإنسان وتميل إليه نفسه، فيجب أن يكون الإنسان محباً للشرع والدين محبةً أكثر من محبته لما يشتهيه من الطعام وغيره، فإن لم يكن كذلك فمعنى ذلك أنه لم يتحلَّ بالإيمان الكامل.

---

(١) «صحيح مسلم» (١٤٥).

(٢) «شرح السُّنَّة» (١٠٤)، أخرجه وابن أبي عاصم في «السُّنَّة» (١٥)، الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» (٤/٣٦٨)، وابن الجوزي في «ذم الهوى» ص١٨، وصححه النووي في «الأربعين النووية» (٤١).

﴿٩٨﴾ وعنه أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: **«ليأتين على أمتي كما أتى على بني إسرائيل حذو النعل بالنعل، حتى إن كان فيهم من أتى أمه علانية؛ لكان في أمتي من يصنع ذلك! وإن بني إسرائيل افترقت على اثنتين وسبعين ملة، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة، كلهم في النار إلا واحدة»**. قالوا: من هي يا رسول الله؟ قال: **«ما أنا عليه وأصحابي»** رواه الترمذي[1].

الشَّرْحُ

هذا الحديث فيه الإخبار عن شيء مستقبل، وهو من آيات الله ـ جل وعلا ـ الدالة على صدق الرسول ﷺ؛ لأنه يخبر بشيء لم يقع فيقع كما أخبر به.

وقوله: «**بني إسرائيل**»؛ يعني: اليهود والنصارى.

وقوله: «**حذو النعل بالنعل**»؛ يعني: أنهم لا يختلفون عما أتى به، النعل اليمين تساوى الشمال، لا تزيد واحدة عن الأخرى، ومعنى ذلك أن هذه الأمة ستعمل كما عملت اليهود والنصارى، وليس هذا إذناً وإنما تحذيراً.

وقوله: «**حتى إن كان فيهم من أتى أمه علانية**»؛ يعني: إذا قدر أن ذلك وُجد فيهم فسيوجد في هذه الأمة! نسأل الله العافية.

وقوله: «**لكان في أمتي من يصنع ذلك**» مبالغة في ذلك، فإذا كان وقع من اليهود والنصارى مثل ذلك؛ فإنه سيقع في هذه الأمة.

والمقصود **بقوله:** «**أمتي**» أمة الإجابة؛ يعني: الذين استجابوا له، وليس أمة الدعوة؛ لأن أمة الدعوة يدخل فيهم اليهود والنصارى والمجوس وجميع من على وجه الأرض، ولكن المقصود في هذا الحديث هم الذين استجابوا له وصاروا أمة إجابة.

وهذا العدد أنهم «**سيفترقون على ثلاث وسبعين فرقة**» غير معلوم بأعيان

---

(١) «جامع الترمذي» (٢٦٤١).

الفرق، وإن كان بعض العلماء عينها، وقالوا: أصل الفرق أربع: الخوارج والقدرية والمرجئة والرافضة. وكذلك الفرق المختلفة؛ يعني: هؤلاء الأربع وكل واحدة منها قسموها إلى أقسام إلى أن بلغت اثنتين وسبعين، ولكن هذا اجتهاد، وليس متعيناً، فإذا جاءت فرق أخرى؛ فإنه يجوز أن تدخل في هذا.

أما قوله: «**كلها في النار إلا واحدة**» يدل على أن واحدة منها هي التي على السُّنَّة، وهذا يعطينا العلم بأن المقصود بالتفرق الأمة التي استجابت له ﷺ، وهو من نصوص الوعيد.

قوله: «**كلها في النار**»، الغريب أن بعض الذين لم يعرفوا الحديث ولا أسانيده عكسوا هذا النص، وقالوا: كلها في الجنة إلا واحدة!!



٩٩ ولمسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «**من دعا إلى هدىً كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً**»[١].

الشَّرْحُ

هذا فيه التحذير من البدع والمعاصي التي يُقتدى بها أو لا يُقتدى بها؛ لأن الإنسان إذا عمل شيئاً؛ فإنه يُجزى به وحده، لكن إذا توبع على ذلك صار الثواب أو العذاب أكثر. ولهذا جاء أن كل نفس تُقتل فإن على ابن آدم الأول ـ قابيل ـ كفلاً منها ومن إثمها[٢]، وهو الذي سن القتل، لما قتل أخاه هابيل، وقبله لم يكن قتل، وهو أول من قتل من بني آدم، فصار عليه الإثم إلى يوم القيامة، فكل من يُقتل ظلماً فعليه كفلٌ من إثمه.

وكذلك إذا دعا الإنسان إلى ضلالة؛ لأن الضلالة أعظم من القتل، فكون الإنسان يضل عن دينه أعظم من كونه يُقتل، إذا قتل وهو مسلم فهو سهل، ولكن المسلم إذا خرج من دينه فهو هالك، فيكون هذا أعظم.

وكذلك في المقابل من دعا إلى الخير والهدى نال من الأجر مثل أجور من اهتدى بدعوته إلى يوم القيامة من غير أن يَنْقُصَ من أجورهم شيئاً، وفضل الله واسع، وهذا يدلنا على كثرة الأجور التي تكون للنبي ﷺ، فكل عمل تعمله الأمة فله مثله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ، ولهذا لا يحتاج أننا نحج عنه أو نتصدق عنه أو نزكي عنه أو نضحي له؛ لأن أي عمل تعمله فله مثل عملك إذا كان العمل مقبولاً صالحاً.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٧٤).

(٢) أخرجه مسلم (١٦٧٧)، بلفظ: «**لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها؛ لأنه كان أول من سن القتل**»، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

﴿١٠٠﴾ وله عن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ، قال: إنه أُبْدِعَ بي، فاحملني. فقال: **«ما عندي»**. فقال رجل: يا رسول الله! أنا أدله على من يحمله. فقال رسول الله ﷺ: **«من دل على خير؛ فله مثل أجر فاعله»**(١).

﴿١٠١﴾ وعن عمرو بن عوف رضي الله عنه مرفوعاً: **«من أحيا سُنَّة من سُنَّتي قد أميتت بعدي؛ فإن له من الأجر مثل أجر من عمل بها من الناس، لا ينقص من أجور الناس شيئاً، ومن ابتدع بدعة لا يرضاها الله ورسوله؛ فإن عليه إثمَ مَن عَمِلَ بها من الناس، لا يَنْقُص من آثام الناس شيئاً»** رواه الترمذي وحسنه، وابن ماجه، وهذا لفظه(٢).

الشَّرْحُ

هذا الرجل جاء يُخبر أنه فقير ليس عنده شيء فيحمله في الجهاد، **فقال له النبي ﷺ**: **«ما عندي»**؛ أي: ليس عندي شيء أحملك عليه، فالذي دلّ الفقير على الحامل قال له ﷺ: **«من دل على خير فله مثل أجر فاعله»**؛ يعني: يكون لك من الأجر مثل أجر الفاعل، فمعنى ذلك أن الذي يدل على الخير؛ فإنه يكون له مثل أجر فاعل الخير، فالدال على الخير كفاعله وهذا تكثير للخير، وفيه سعة فضل الله تعالى. وهذا فيه الترغيب في الدلالة على الخير، ولكن يجب أن يُعرف هل هو خير أو ليس بخير، فكذلك إذا كان هو داخلاً في الدعوة إلى الخير.

والحديث الثاني كالأول، إلا أن **قوله**: **«ابتدع بدعة لا يرضاها الله»** لا توجد بدعة يرضاها الله ويرضاها رسوله، ولكن هذا وصفها، وهذا كقوله ـ جل وعلا ـ: ﴿وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران: ١١٢] فقتل الأنبياء لا يكون بحق أصلاً، ولكن ذُكر على الوضع الذي يفعلونه، فهذا مثله.

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٩٣).

(٢) «جامع الترمذي» (٢٦٧٧)، «سنن ابن ماجه» (٢١٠).

﴿١٠٢﴾ وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: كيف أنتم إذا لَبِسَتْكُمْ فتنةٌ يربو فيها الصغير ويهرم فيها الكبير، وتتخذ سُنَّة يجري الناس عليها، فإذا غير منها شيء قيل: تُركت السُّنَّة. قيل: متى ذلك يا أبا عبد الرحمٰن؟ قال: إذا كثر قراؤكم، وقلَّ فقهاؤكم، وكثرت أموالكم، وقل أمناؤكم، والتمست الدنيا بعمل الآخرة، وتُفُقِّه لغير الدين. رواه الدارمي[1].

الشرح

هذا أثر موقوف على ابن مسعود، وله حكم الرفع، والظاهر أنه مرفوع؛ لأنه فيه إخبار عن أمور مستقبلة ولا تكون باجتهاد.

فقوله: «كيف أنتم إذا لبستكم فتنة»؛ يعني: عَمّتكم ودخلتكم، **«يربو فيها الصغير»**؛ يعني: أنها تطول، والصغير يَكْبَر في هذه الفتنة. **«ويهرم فيها الكبير»** مثل ذلك. **«وتُتخذ»**؛ يعني: البدعة **«سُنَّة يجري الناس عليها»**؛ يعني: يعيشون عليها. **«فإذا غُير منها شيء قيل: تُركت السُّنَّة»**؛ يعني: العادة التي اعتادوها ويرون أنها سُنَّة، وهذا يدل على الجهل، فهم اتخذوا البدع كأنها شرع وسنن.

ثم سألوه: **«متى ذلك؟ قال: إذا كثر قراؤكم، وقل فقهاكم»**؛ يعني: القراء الذين يحفظون القرآن وكذلك يحفظون غير القرآن، وإنما يقرؤون قراءة بدون فقه، وهذا يدلنا على أن الفقه هو المهم، والفقه هو معرفة المقاصد التي أُريدت بالخطاب. **«وكثرت أموالكم»** كثرة الأموال تدعو إلى ترك السنن، وهذه عادة، قال الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ [العلق].

قوله: «وقل أمناؤكم»؛ يعني: الذين يؤتمنون على الأعمال وعلى الأموال وعلى غير ذلك، فهم يَقِلّون. وهذا أيضا جاءت فيه النصوص. **«والتُمست الدنيا بعمل الآخرة»**؛ يعني: أعمال الآخرة يكون المقصود بها الدنيا، وهذه واقعة كثيراً في المسلمين نسأل الله العافية.

---

(١) «سنن الدارمي» (١٨٥)، وأخرجه الشاشي في «المسند» (٥٦١)، والحاكم في «المستدرك» (٨٥٧٠)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٦٩٥١).

﴿١٠٣﴾ وعن زياد بن حُدير ﷺ قال: قال لي عمر: «هل تعرف ما يهدم الإسلام؟». قلت: لا. قال: «يهدمه زلة العالم، وجدال المنافق بالكتاب، وحكم الأئمة المضلين». رواه الدارمي أيضاً[١].

﴿١٠٤﴾ وعن حذيفة قال: «كل عبادة لا يتعبدها أصحاب رسول الله ﷺ فلا تعبدوها، فإن الأول لم يدع للآخر مقالاً، فاتقوا الله يا معشر القراء، وخذوا طريق مَنْ كان قبلكم». رواه أبو داود[٢].

الشَّرْحُ

قول عمر ﷺ: «**يهدم الإسلام زلة العالم**»؛ يعني: قد يُسأل فيفتي بخلاف الحق، أو يتكلم بخلاف الحق فيُتبع، فهذا هدم الإسلام؛ لأنه يُتخذ كأنه هو الدين، فيكون الناس ابتعدوا عنه، وليس معنى ذلك ـ كما يقول بعض الناس ـ أنه إذا استفتى أحداً فأفتى بباطل أو بخلاف الحق فإن الإثم يكون على المفتي!! فليس الإثم عليه فقط، بل حتى على المستفتي أيضاً، فيجب أن يتحرز من هذا، ويتحرى الحق، ويسأل الذي يرى أنه أعلم، وأنه يفتي بالحق، فإن لم يتأكد فإنه لا يسأل حتى يتأكد، أما أن يفرح الإنسان بالشيء الذي يُناسبه أو أنه يسأل حتى يجد من يفتيه بما يوافق هواه؛ فهذا يكون الإثم على المفتي وعلى المستفتي، والمقصود أن فقد العلم والعمل به هو أساس الهلاك.

كذلك «**جدال المنافق**» عليم اللسان الذي يعلم الكتاب والسُّنَّة؛ لأنه يتحرى مكامن الضعف والشبهات، فيلقيها على الذي يجادله، فيكون في ذلك إضلال له.

وكذلك «**حكم الأئمة المضلين**»، وهم العلماء، والمنفذون للحكم إذا

---

(١) «سنن الدارمي» (٢١٤).

(٢) أخرجه البخاري (٧٢٨٢) بلفظ آخر، وهو غير موجود في «سنن أبي داود».

حكموا، فحكمهم يُتبع غالباً، والناس تبعٌ لهم.

وقول حذيفة: «كل عبادة لا يتعبدها أصحاب رسول الله.. إلخ» ليس معنى ذلك أن أصحاب رسول الله ﷺ جاؤوا بشيء مبتدع، ولكنهم اتبعوا السُّنَّة وهم أعلم بها، فالأمر الذي لا يفعلونه يكون بدعة، سواء كان في الأفعال أو في الأقوال، وذلك أنهم حفظوا عن رسول الله ﷺ كل ما بلغهم إياه، وهو ما ترك شيئاً يقرب إلى الله والجنة إلا ودلهم عليه، ولا شيئاً فيه مضرةٌ في الدنيا والآخرة إلا وحذرهم منه.



﴿١٠٥﴾ وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: من كان مستناً فليستَنَّ بمن قد مات؛ فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة، أولئك أصحاب محمدٍ ﷺ، كانوا أفضل هذه الأمة؛ أبرها قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً، اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ ولإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبِعوهم على أثرهم، وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم وسِيرهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم. رواه رزِين[١].

﴿١٠٦﴾ وعن عمرو بن شعيبٍ، عن أبِيه، عن جده، قال: سمع النبي ﷺ قوماً يتدارؤون في القرآن، فقال: «**إنما هلك من كان قبلكم بهذا؛ ضربوا كتاب الله بعضه ببعض، وإنما نُزِّلَ كتاب الله يصدق بعضه بعضاً، فلا تكذبوا بعضه ببعض، فما علمتم منه فقولوا، وما جهِلتم فكِلوه إلى عالمه**» رواه أحمد، وابن ماجه[٢].

الشَّرْحُ

وكلام ابن مسعود رضي الله عنه مثل ما سبق، فلا يقال هذا بالاجتهاد والرأي؛ لأنه إخبار عن حكم يجب أن يُفعل ويُتبع، غير أن ما وصف به أصحاب رسول الله ﷺ ظاهرٌ لا يخفى إلا على جاهل أو متجاهل، وقد كثر الثناء عليهم في كتاب الله.

قال: «من كان مستناً»؛ يعني: متبعاً ومقتدياً لأحد؛ فليقتدِ بأصحاب الرسول ﷺ، فإنهم أخذوا الدين عن الرسول ﷺ، وقد عرفوا أنه لا يجوز الخروج عن ذلك، وكذلك وَصَفَهُم بالعقل وبالعلم والفقه، وأن الله اختارهم لنبيه ﷺ على علم؛ لأنهم في ذلك يكونون أفضل الناس. وهو كما قال رضي الله عنه

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٣٠٥)، ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١٨١٠).

(٢) أخرجه عبد الرزاق (٢٠٣٦٧)، وأحمد (٦٧٤١).

يجب أن نتمسك بهذا.

وقوله: «يتدارؤون في القرآن» وهذا أمر يجب أن نحذر منه، فلا يجادل بعضنا بعضاً في الآية، ويقول: الآية هذه تدل على كذا، وهذا كذا، وهذا كذا، وهذا يخالف كذا؛ لأن هذا يدعو إلى أن يُعتقد أن القرآن فيه شيء من الاختلاف، والاختلاف يكون فيه قصور العلم، والقرآن كلام الله، وبعضه يصدق بعضاً، كما قال ﷺ، فإذا علم الإنسان ذلك وإلا وجب عليه أن يسكت ويكِلَه إلى من يعلمه؛ حتى لا يفتح باب شر للناس ولغيره، فيُتَّبَع أو يكون مسلوكاً.





باب
التحريض على طلب العلم وكيفية الطلب

﴿١٠٧﴾ فيه حديث «الصحيحين» في فتنة القبر أن المنعّم يقول: «**جاءنا بالبينات والهدى، فآمنا واتبعنا وأجبنا**»، وأن المنافق يقول: «**سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته**»[١].

﴿١٠٨﴾ وفيهما عن معاوية ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**من يرد الله به خيراً؛ يفقهه في الدين**»[٢].

الشرح

قوله: «**جاءنا بالبينات والهدى**» وذلك أن الحق لا بد أن يكون مأخوذاً من الوحي، أما الذي يأخذ من الناس فهو يُعذب، وهذا يشمل كلَّ ما جاء به الرسول ﷺ من العقيدة والعمل، وهو يدل على أنه لا نجاة من العذاب إلا بالعلم الذي جاء به الرسول ﷺ.

وقوله: «**من يرد الله به خيراً..**» مفهومه أن من لم يُفَقَّه في الدين فإن الله لم يُرِدْ به خيراً.

وهذا فيه الحض على الفقه في الدين، ولا يكن مجرد همك أنك تعلم أو تحفظ فقط، والفقه هو معرفة ما دلت عليه النصوص من الأحكام والأوامر والنواهي وغيرها، مع العمل بذلك، وهو المقصود، أما العلم فهو وسيلة إليه.

---

(١) أخرجه البخاري (٨٦)، ومسلم (٩٠٥)، من حديث عائشة ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري (٧١)، ومسلم (١٠٣٧).

﴿١٠٩﴾ وفيهما عن أبي موسى ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً، فكانت منها طائفة طيبة قَبِلَتِ الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادبُ أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا وَسَقَوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قِيعانٌ لا تمسك ماء، ولا تنبت كلأً، فذلك مَثَلُ مَنْ فَقُهَ في دين الله ونفعه ما بعثني الله به، فَعَلِمَ وعلّم، ومَثَلُ من لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبل هدى الله الذي أُرْسلتُ به**»[١].

﴿١١٠﴾ ولهما عن عائشة مرفوعاً: «**إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه؛ فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم**[٢]».

الشَّرْح

في هذا الحديث قسم الناس إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: من هو حافظ، وأدى ما حفظه إلى مَنْ هو أعلم وأفقه منه، وهو كمثل الأرض التي أمسكت الماء، فشرب الناس وارتووا، ففقهه ليس عنده، وليس معنى ذلك أن المؤدي لا يعلم، بل لابد أن يكون عنده من العلم الذي يهتدي به.

القسم الثاني: من هو فقيه استنتج الأحكام من النصوص، وهو مثل الأرض الطيبة التي قبلت الماء وأنبتت الكلأ، فيكتفي بالنصوص القليلة لاستخراج الأحكام الكثيرة.

القسم الثالث: لا خير فيه، فهو مثل السبخة التي لا تُمسك الماء ولا تُنبت الكلأ، وهؤلاء هم الهالكون.

أما القسمان الأولان فكلاهما ناجٍ، ولكن فرق بين الفقيه وبين الحافظ.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٩)، ومسلم (٢٢٨٢).

(٢) أخرجه البخاري (٤٢٧٣)، ومسلم (٢٦٦٥).

وقوله: «**إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه...**»؛ يعني: الذين يتبعون ما تشابه من القرآن؛ لأنك إذا رأيت الذي يترك الواضح الجلي ويأخذ بالأمور المشتبهة؛ فاعلم أنهم هم الذين عناهم الله بقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ [آل عمران: ٧]، فمقصودهم الاستدلال على مرادهم، وليس امتثالَ أمر الله وأمر رسوله، ولذلك يسخرون النصوص لتدل على أهوائهم .



﴿١١١﴾ وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما من نبي بعثه الله في أمته قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسُنَّته، ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلُفُ من بعدهم خُلوفٌ يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل»** رواه مسلم[1].

﴿١١٢﴾ وعن جابر رضي الله عنه أن عمر رضي الله عنه قال: يا رسول الله! إنا نسمع أحاديث من يهود تعجبنا، أفترى أن نكتب بعضها؟ فقال ﷺ: **«أمتهوّكون أنتم كما تهوّكت اليهود والنصارى؟! لقد جئتكم بها بيضاءَ نقية، ولو كان موسى حياً ما وسعه إلا اتباعي»** رواه أحمد[2].

الشَّرْحُ

قوله: «خلوف»؛ يعني: هذه الخلوف التي تخلف مخالفةٌ لما سبقها من السنن والأمور الواضحة، فهم **«يقولون ما لا يفعلون»**؛ يعني: أن ألسنتهم تكذب أفعالهم، وأفعالهم تكذب ألسنتهم، فيفعلون ما لا يؤمرون به من أمر الشرع الذي جاء به الرسول ﷺ.

ثم رغب في جهادهم، فقال: **«فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن»**، والجهاد يكون بالقول، ويكون بالكتابة، ويكون بالفعل.

وقوله: «ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل» هذا واضح في أن الجهاد بالقلب هو بغضهم والبعد عن أعمالهم وكراهة ما هم عليه فقط، أما الجهاد باليد واللسان فإنه يتعدى نفعه إلى غيره، وهذا يعطينا أنه لا بد من كراهة الباطل، ولا بد أن يكره الظلم ويبتعد عنه، وإلا يكون هالكاً؛ لأنه قال: **«وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل»**.

---

(١) «صحيح مسلم» (٥٠).

(٢) «مسند أحمد» (١٥١٩٥).

وأما قوله: «**لقد جئتكم بها بيضاء نقية..**» فهذا يدلنا على وجوب اتباع الرسول ﷺ والإعراض عما جاء به غيره، فإذا كان يحذرنا من التوراة التي هي كتاب الله جل وعلا، فكيف بأقوال الناس وآرائهم واستدلالاتهم؟! فلا شك أن هذا أعظم من ذلك ضلالاً وأبعد عن الحق.

والتهوك كالتهور، وهو الوقوع في المحذور بغير رَوِيَّة.



﴿١١٣﴾ وعن أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه مرفوعاً: «**إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها، وحدّ حدوداً فلا تعتدوها، وحرم أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة لكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها**» حديث حسن، رواه الدارقطني وغيره[1].

الشرح

وهذا الحديث فيه جوامع كثيرة من المعاني.

قال: «**إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها**» فيجب أن نتمسك بها ونؤديها، والفرض؛ يعني: الإلزام.

وقوله: «**وحد حدوداً فلا تعتدوها**»؛ يعني: المحرمات التي حرمها علينا، فيجب أن نقف عند الحدود التي حُدت لنا، وهي واضحة وجلية في كتاب الله - جل وعلا -.

قال: «**وحرم أشياء فلا تنتهكوها**»، وهذا يدل على أن التحريم أشمل من الحدود.

قال: «**وسكت عن أشياء**»؛ يعني: لم ينص عليها بنهي عنها أو بأمر بها، **وقال**: «**رحمةً لكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها**»؛ يعني: أنكم لا تبحثوا عن حرمتها وحلها؛ لأنها مباحة، وهذا كله لا يوصل إليه إلا بالعلم، فيدل على لزوم طلب العلم الذي تُعرف به الفرائض والحدود والمحرمات، وما سكت الله عنه فهو رحمة لنا.



---

(١) أخرجه الدارقطني في «السنن» (٤٢)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٨٤٤١)، وأبو نعيم في «الحلية» (٩/ ١٧)، والبيهقي في «السنن» (١٩٥٠٩).

﴿١١٤﴾ وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة مسائلهم، واختلافهم على أنبيائهم»**(١).

الشرح

وهذا الحديث أيضاً فيه وجوب التمسك بالسُّنَّة، وما جاء به الرسول ﷺ، ولكن فيه أن الواجب ألزم من الترك، والترك سهل؛ لأنه ليس عملاً، وإنما هو تركٌ واجتناب، ولهذا **قال**: «**وما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم**» فعلق الفعل بالاستطاعة، وهذا من فضل الله.

أما النهي **فقال**: «**اجتنبوه**»، وليس فيه استطاعة؛ لأن النهي سهل، فهو مجرد ترك، فلا يؤذن لك أن تفعل شيئاً من المنهي عنه أصلاً.

وهذا أخذ منه العلماء قاعدة أن النهي يقدم على الأمر، وهذه القاعدة إذا تعارضت أمور من هذا القبيل؛ فإنه يُقدم جانب التحريم، مثال ذلك أن الرسول ﷺ نهانا أن نصلي في أوقات معينة، مثل بعد صلاة الفجر أو العصر، وجاء الأمر بصلاة ركعتين عند دخول المسجد، فهذا فيه تعارض في الظاهر، فالذين يأخذون بهذه القاعدة يقولون: يُقدم جانب النهي؛ لأنه تحريم، فصلاة ركعتين سُنَّة، فمن تركه فلا إثم عليه، فكيف يفعل سُنَّة ويرتكب محرماً، والأمثلة على ذلك كثيرة.

وفي الحديث: الحث على طلب العلم؛ لأن به يُعلم ما جاء به الرسول ﷺ من الواجب والمحرم والمأمور به والمنهي عنه وغير ذلك.

* * *

(١) أخرجه البخاري (٦٨٥٨)، ومسلم (١٣٣٧)، واللفظ له.

﴿١١٥﴾ وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**نضَّر الله عبداً سمع مقالتي فحفظها ووعاها وأداها، فرُبَّ حامل فقه غير فقيه، ورُبَّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ثلاث لا يَغِلُّ عليهن قلب مسلم: إخلاص العمل لله، والنصيحة للمسلمين، ولزوم جماعتهم، فإن دعوتهم تحيط مِن ورائهم**». رواه الشافعي، والبيهقي في «المدخل». ورواه أحمد، وابن ماجه، والدارمي، عن زيد بن ثابت[(١)].

الشَّرْحُ

قوله: «**نضر**»؛ يعني: من النضارة، وهذا دعاء من النبي ﷺ بأن الله يُنعمه ويُنضره.

وقوله: «**من سمع مقالتي فحفظها ووعاها**» فيه الحض على حفظ قول الرسول ﷺ بلفظه، وكذلك حضٌّ على فهم مقالته وفقهها؛ لأن **قوله**: «**ووعاها**»؛ أي: فَقِه فيها وعرف معناها وما أراده.

ثم **قال**: «**أداها**»؛ يعني: بلَّغها الناس ونشرها بينهم.

وقوله: «**فرب حامل فقه غير فقيه**»؛ يعني: من يحمل الحديث أو النص ولكنه لا يفقهه كما يفقهه من يؤديه إليه، وليس معنى ذلك أن لا يعلم معناه الظاهر من لفظه، ولكن لا يستخرج منه ما يستخرجه الفقيه.

وقوله: «**ثلاثٌ لا يَغِل عليهن قلب مسلم**»؛ يعني: أن قلب المسلم لا يكتم هذه الأشياء ولا يفعل خلافها؛ لأن الغلول هو الجحد والأخذ بالشيء قبل حله، فهذه من الأمور التي يكون المسلم فيها أمره واضحاً، ويأتي بها على

---

(١) أخرجه الشافعي في «المسند» (١١٩٠)، والترمذي (٢٦٥٨)، والحميدي في «المسند» (٨٨)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٥١٧٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٣٣١)، والبيهقي في «معرفة السنن» (٥).

وحديث زيد بن ثابت أخرجه أحمد (٢١٦٣٠)، وأبو داود (٣٦٦٢)، والترمذي (٢٦٥٦)، وابن ماجه (٢٣٠)، والدارمي (٢٢٩).

الوجه المطلوب، وهو «**إخلاص العمل لله**»؛ أي: الذي يقوم به.

وكذلك «**النصيحة للمسلمين**» والنصيحة أُخذت من التنقية؛ لأن الذي يغسل الثياب يقال له: ناصح، فهي التنقية والتصفية فيقدم هذا الأمر للمسلمين، وقد جاءت نصوص كثيرة في هذا.

وكذلك «**لزوم جماعتهم**» وعدم التفرق وعدم الدعوة إلى التفرق أو العمل الذي يدعو إلى ذلك، «**فإن دعوتهم تحيط من ورائهم**»؛ يعني: أن دعوة المسلمين يجب أن تكون واحدة، ولا يجوز أن يخرج منهم أحد عما هم عليه من الحق.



﴿١١٦﴾ وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**العلم ثلاث: آية محكمة، أو سُنَّة قائمة، أو فريضة عادلة، وما كان سوى ذلك فهو فضل**» رواه الدارمي، وأبو داود[١].

﴿١١٧﴾ وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**من قال في القرآن برأيه؛ فليتبوأ مقعده من النار**» رواه الترمذي[٢].

﴿١١٨﴾ وفي رواية: «**من قال في القرآن بغير علم؛ فليتبوأ مقعده من النار**» رواه الترمذي[٣].

﴿١١٩﴾ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من أُفتي بغير علم؛ فإنما إثمه على من أفتاه، ومن أشار على أخيه بأمر يعلم أن الرشد في غيره؛ فقد خانه**» رواه أبو داود[٤].

الشَّرْح

قوله: «**آية محكمة**»؛ يعني: التي لم تُنسخ، فتعرف أنها حق وتعلمها.

وأما «**السُنَّة القائمة**» فهي التي جاء بها الرسول ﷺ وسَنَّها.

وأما «**الفريضة العادلة**» فهي كذلك الأمر الذي أمر الله ـ جل وعلا ـ به، سواء كانت من الفرائض أو من غيرها، وما سوى هذه الأمور اللازمة تكون نوافل، فيكون فيها فضل، وإذا لم يفعلها؛ فليس عليه إثم.

وأما **قوله**: «**فليتبوأ مقعده من النار**» هذا فيه تهديد شديد لمن يتكلم في آيات الله ـ جل وعلا ـ بلا علم؛ لأنه «**قال برأيه**»؛ يعني: بهواه، وبدون علم. **وقوله**: «**فليتبوأ**» هو أمر؛ يعني: أنه قد تهيأ مكانه في النار، وهذا وعيدٌ شديد.

---

(١) «سنن أبي داود» (٢٨٨٧)، وأخرجه ابن ماجه (٥٤).
(٢) «جامع الترمذي» (٢٩٥٢).
(٣) «جامع الترمذي» (٢٩٥٠).
(٤) «سنن أبي داود» (٣٦٥٩).

وقوله: **«فإنما إثمه على من أفتاه»** ليس معنى ذلك أن الذي استفتى قد سلم من الإثم، بل هو مشارك للمفتي إلا أن لا يعلم، فإن اجتهد وبذل وسعه فأُفتي وهو لا يعلم؛ فإنه يكون معذوراً.



﴿١٢٠﴾ وعن معاوية ﷺ أن النبي ﷺ نهى عن الأُغْلوطات، رواه أبو داود أيضاً[١].



قوله: **«الأغلوطات»**؛ أي: الأمور التي يقصد بها التعمية، أو يُقصد بها الامتحان، أو يقصد بها أن يغلط الإنسان فيها، فهذه لا يجوز أن يتخذها الإنسان، فلا يجوز أن يسأل من باب الامتحان أو من باب التعمية، ويجب أن يكون عنده نصح وبيان، ولا يجوز أن يُعمّي شيئاً من الحق الذي جاء به المصطفى ﷺ.

ويدخل في الأغلوطات ما لا يدل عليه كتاب الله وسنة رسوله، سواء في العقائد أو غيرها، كذلك مسالك المتكلمين فإنها كلها أغلوطات.

❁ ❁ ❁

(١) «سنن أبي داود» (٣٦٥٨).

١٢١ وعن كثير بن قيس قال: كنت جالساً مع أبي الدرداء في مسجد دمشق، فجاء رجل فقال: يا أبا الدرداء! إني جئتك من مدينة الرسول ﷺ لحديث بلغني عنك أنك تحدثه عن رسول الله ﷺ، ما جئتك لحاجة. قال: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من سلك طريقاً يطلب فيه علماً؛ سلك الله به طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاً لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض والحيتان في جوف الماء، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورّثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورّثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر**» رواه أحمد، والدارمي، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه(١).

الشرح

هذا الحديث فيه الترغيب في طلب العلم، والوعد على ذلك وعد كريم عظيم.

قوله: «**من سلك طريقاً**» هذا يدل على أنه ليس طريقاً واحداً، فالطرق التي يُلتمس بها العلم متعددة، فقد تكون بالسفر والمجيء والجلوس في مكان يطلب فيه العلم، وقد تكون في قراءة الكتب وما أشبه ذلك، فالطرق متعددة في هذا، وإن كان بعضها يُفضل على بعض.

قوله: «**سلك الله به طريقاً إلى الجنة**» فالله جل وعلا ييسر له العمل الصالح الذي يكون سبباً لدخول الجنة، وقد يكون أيضاً من الأمور المحسوسة، فيدخله يوم القيامة الجنة في طريق سهل ميسور.

وقوله: «**إن الملائكة..**» إلخ، هذا من فضل العالم الذي يعمل بعلمه، فإنه

---

(١) «مسند أحمد» (٢١٧٦٣)، «سنن أبي داود» (٣٦٤٣)، «جامع الترمذي» (٢٦٨٢)، «سنن ابن ماجه» (٢٢٣).

يكون بهذه المنزلة، وينشره بين الناس، ويكون قدوةً لهم، ويكون أيضاً داعياً لهم للخير ويدخلون في ذلك بسببه. ولهذا **قال**: «**إن فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب**»، هذا معناه: أنه يدل على الخير؛ لأن القمر فيه النور والاهتداء في المسير، أما إذا لم يكن كذلك فلا يكون له هذا الفضل.

وفيه دليل على أن الحيتان عندها شعور ومعرفة، وكذلك غيرها من الحيوانات، ولذلك تستغفر له، وكذلك «**من في السماوات**» يُقصد بهم الملائكة، وقد يقصد بهم ما هو أعم من ذلك.



﴿١٢٢﴾ وعن أبي هريرة مرفوعاً: «**الكلمة الحكمة ضالة المؤمن، فحيث وجدها فهو أحق بها**» رواه الترمذي وقال: غريب، وابن ماجه[1].

﴿١٢٣﴾ وعن علي ﷺ قال: «إن الفقيه كل الفقيه من لم يقنّط الناس من رحمة الله، ولم يرخص لهم في معاصي الله، ولم يُؤمِّنْهم من عذاب الله، ولم يَدَعِ القرآن رغبة عنه إلى غيره، إنه لا خير في عبادة لا علم فيها، ولا علمٍ لا فَهْمَ فيه، ولا قراءةٍ لا تدبرَ فيها»[2].

الشرح

قوله: «الكلمة الحكمة ضالة المؤمن» هذا يدلنا على وجوب أخذ الحق ممن قاله، ولو كان عدواً لك، فإذا وجدت الحق، فإنه يجب أن تقبله.

وقول علي ﷺ: «والفقيه هو الذي لا يقنط الناس من رحمة الله»؛ يعني: لا ينبغي أن يكون ممن لا يذكر لهم إلا أسباب العذاب فييأس الإنسان ويقنط، بل يجب أن يرغب الناس في العمل ويرغبهم في التوبة والخروج من الذنوب، ويخبرهم بأن الله يحب التائب، وإن كان الإنسان يعمل الذنوب في اليوم عدة مرات فإنه يجب عليه أن يتوب؛ لأن الله ـ جل وعلا ـ رغب في ذلك، وكذلك يكون من الخير أنه يدعو الناس بعلم وحكمة واهتداء، ولا يدعو إلى باطل أو إلى أمر يكون غيره أفضل وأحسن منه.

كذلك الفهم بالقراءة؛ لأنه يقرأ للفهم والتفهم والتدبر، سواء في القرآن أو في أحاديث الرسول ﷺ، ثم يعمل بما علم ويدعو إليه وينشره بين عباد الله اقتداءً برسول الله ﷺ، واتباعاً لطريقه، قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف].

❁ ❁ ❁

(١) «جامع الترمذي» (٢٦٨٧)، «سنن ابن ماجه» (٤١٦٩).

(٢) أخرجه الدارمي (٢٩٧، ٢٩٨).

﴿١٢٤﴾ وعن الحسن ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من جاءه الموت وهو يطلب العلم ليحيي به الإسلام؛ فبينه وبين النبيين درجة واحدة في الجنة**» رواهما الدارمي(١).



قوله: «**من جاءه الموت وهو يطلب العلم..**» هذا إذا صح فهو فضل عظيم، ولكن فيه وجوب إخلاص النية الحسنة؛ لأنه **يقول**: «**ليحيي به الإسلام**» يقصد بذلك الدعوة إلى الله، وهو أول من يجب عليه العمل به، فيعمل به ويدعو إليه.

❁ ❁ ❁

(١) «سنن الدارمي» (٣٥٤).



باب قبض العلم

﴿١٢٥﴾ عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ، فَشَخَصَ بصرُه إلى السماء، ثم قال: «**هذا أوان يُختلس فيه العلم من الناس حتى لا يقدروا منه على شيء**» رواه الترمذي(١).

﴿١٢٦﴾ وعن زياد بن لَبيد رضي الله عنه قال: ذكر النبي ﷺ شيئاً، فقال: «**ذلك عند أوان ذهاب العلم**». قلت: يا رسول الله! كيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن ونقرئه أبناءنا، ويقرئه أبناؤنا أبناءهم إلى يوم القيامة؟! قال: «**ثكلتك أمك يا زياد! إن كنتُ لأراك من أفقه رجل في المدينة، أوَليس هذه اليهود والنصارى يقرؤون التوراة والإنجيل لا يعملون بشيء مما فيهما؟**» رواه أحمد، وابن ماجه(٢).

الشرح

قوله: «يختلس فيه العلم..» هذا دليل على أن العلم يُرفع، وجاءت في هذا النصوص الكثيرة عن النبي ﷺ، حتى أنه أخبر أنه لا تقوم الساعه وأحد يعرف ربه(٣)، ففيه التحذير من ذهاب العلم وكون الإنسان ينتهز الأمر ويتعلم

---

(١) «جامع الترمذي» (٢٦٥٣).

(٢) «مسند أحمد» (١٧٥٠٨)، «سنن ابن ماجه» (٤٠٤٨)، وأخرجه كذلك الترمذي (٢٦٥٣).

(٣) أخرجه مسلم (١٤٨)، من حديث أنس أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض: الله الله**».

قبل أن يُرفع؛ لأن رفع العلم بموت العلماء، فالكتب قد لا تفيد إذا فُقد الفهم والفقه ومقاصد المتكلم؛ لأنها لا تجدي شيئاً عند فقد الفهم، فهذا يدلنا على وجوب تفهم النصوص، ومعرفة المقاصد منها؛ لأن هذا هو أهم شيء يتعلمه.



١٢٧ وعن ابن مسعود ﷺ قال: «عليكم بالعلم قبل أن يقبض، وقبضه ذهاب أهله، عليكم بالعلم فإن أحدكم لا يدري متى يُفتقر إليه أو يفتقر إلى ما عنده، وستجدون أقواماً يزعمون أنهم يدعون إلى كتاب الله، وقد نبذوه وراء ظهورهم، عليكم بالعلم وإياكم والبدعَ والتنطع والتعمق، وعليكم بالعتيق». رواه الدارمي بنحوه[1].

الشرح

هذا أيضاً من كلام ابن مسعود ﷺ، وفيه أمور مهمة جداً دلت عليها النصوص. و«**العلم**»؛ معناه: أنه يتحلى به، فيعلمه حقيقة ويعمل به ثم يدعو به إلى الله.

وقوله: «**لا يدري متى يُفتقر إليه**»؛ يعني: يحتاج الناس إليه، فمعنى ذلك الحث على طلبه ما دام في الصغر قبل أن يكبَرَ فيُحتاج إليه، فإذا احتيج إليه وهو ليس عنده علم، أفتى بضلال.

كذلك **قوله**: «**ستجدون أقواماً يزعمون أنهم يدعون إلى كتاب الله وقد نبذوه**»؛ يعني: يجب أن ننظر إلى الإنسان الذي نتعلم منه أو يعلمنا ماذا يعمل في كتاب الله؟ هل هو يقوم به أو أنه جانَبَه؟ فإذا كان مجانباً له فكيف يُعطي الخير وهو فاقده؟!

وأما «**التنطع والتعمق**» فهو أيضاً من علامات الانحراف، والتنطع هو المبالغة في الشيء، مأخوذ من النطع، وهو أقصى الحلق، و«**التعمق**» كذلك يدل على التكلف، وهذا يكون بالفعل وبالقول.

وقوله: «**عليكم بالعتيق**»؛ يعني: القديم، فيُحذر من البدع والأمور التي تحدث، فالقديم هو الذي جاء به الرسول ﷺ، وفهمه صحابته وجاؤوا به، وأخذه عنهم العلماء.

---

(١) «سنن الدارمي» (١٤٥).

﴿١٢٨﴾ وفي «الصحيحين» عن ابن عمرو مرفوعاً: «**إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بموت العلماء، حتى إذا لم يَبْقَ عالم اتخذ الناس رؤوساً جهالاً، فسُئلوا فأفْتَوا بغير علم، فضلّوا وأضلوا**»[١].

﴿١٢٩﴾ وعن علي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يوشك أن يأتي على الناس زمان لا يبقى من الإسلام إلا اسمه، ولا يبقى من القرآن إلا رسمه، مساجدهم عامرة وهي خراب من الهدى، علماؤهم شر من تحت أديم السماء، مِنْ عندهم تخرج الفتنة، وفيهم تعود**» رواه البيهقي في «شعب الإيمان»[٢].

الشَّرْح

قوله: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً..» هذا مثل ما سبق، فيه تحذير من الانحراف في العلم، وكذلك سبر الذي يؤخذ منه العلم وحالته، فيجب أن يكون متحلياً بالعلم، عاملاً به، وإلا فلن يجدي شيئاً ولن ينفع، وفيه أن ذهاب العلم بموت أهله.

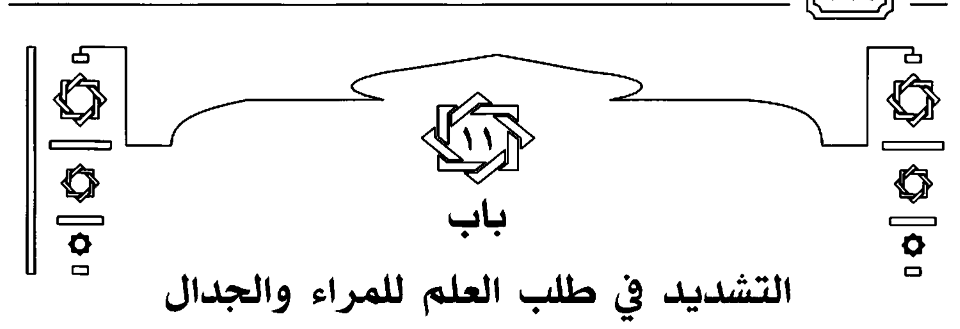
وقوله: «يوشك أن يأتي على الناس زمان لا يبقى من الإسلام إلا اسمه..» هذا معناه التحذير من هؤلاء، وجاء وصفهم في حديث حذيفة أنهم دعاة على أبواب جهنم، وأنهم من بني جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا[٣]، وعندهم من التلبيس والتدليس الشيء الذي يغرّون به غيرهم، وهذا يعطينا الحذر من بعض الذين يتكلمون في الأمور التي أفعالهم تخالفها، والميزان كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، ولكن الهلاك عدم العلم بما في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

---

(١) أخرجه البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣).

(٢) (١٩٠٨).

(٣) أخرجه البخاري (٣٤١١)، ومسلم (١٨٤٧).



١١ باب
التشديد في طلب العلم للمراء والجدال

١٣٠ عن كعب بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«من طلب العلم لِيُجاريَ به العلماء، أو لِيُماريَ به السفهاء، أو يصرف به وجوه الناس إليه؛ أدخله الله النار»** رواه الترمذي(١).

الشرح

قوله: «ليجاري به العلماء» المجاراة هي أن يُماريهم ويجادلهم ويريهم أنه يغلبهم أو أنه عنده استطاعة على ذلك؛ لأنه تحصل ما لم يحصلوه.

وأما **قوله: «ليماري به السفهاء»** يُظهر أنه عالم بين الجهال.

وقوله: «أو يصرف به وجوه الناس»؛ يعني: أنهم يُثْنون عليه ويمدحونه، ويقولون: إنه عالم.

وهذا الحديث فيه وجوب الحذر من هذه الأمور، وأن يكون طلبه للعلم حتى يهتدي به ويعرف به ربه ودينه، ويبين الحق ويدعو إليه مخلصاً عمله لله في ذلك كله.



(١) «جامع الترمذي» (٢٦٥٤).

﴿١٣١﴾ عن أبي أمامة مرفوعاً: «**ما ضل قوم بعد هدىً كانوا عليه إلا أوتوا الجدل**». ثم تلا قوله: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨]. رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه[١].

﴿١٣٢﴾ وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**إن أبغض الرجال إلى الله الألدّ الخَصِم**» متفق عليه[٢].

﴿١٣٣﴾ وعن أبي وائل، عن عبد الله رضي الله عنه قال: «من طلب العلم لأربع دخل النار ـ أو نحو هذه الكلمة ـ: ليباهيَ به العلماء، أو ليماري به السفهاء، أو ليصرف به وجوه الناس إليه، أو ليأخذ به من الأمراء» رواه الدارمي[٣].

الشَّرْحُ

قوله: «ما ضل قوم بعد هدىً كانوا عليه إلا أوتوا الجدل» في هذا تحذير من المجادلة؛ لأنها تدعو إلى المنابذة، وتدعو إلى الفرقة والبغضاء، وقد تكون بحق، ولكن يجب أن تكون بالتي هي أحسن، إلا من ظُلِمَ، فكون الإنسان يجادل من لا ينتفع لا يَحسُن؛ لأنه إذا لم يقبل منك فإنه لا يحسن أنك تجادله، وإنما تبين الحق وتسكت، فإذا قبله فهذا هو المطلوب، وإذا لم يقبله فلا يضرك.

وقوله ﷺ: «الألد»؛ يعني: الخصم القوي الذي يخاصم في الشيء، فهو ألد؛ يعني: أنه واقف في موقفه لا ينثني عنه، وهذا يُبغضه الله؛ لأن المؤمن هين لين، ويجب أن يكون عنده حسن خلق، وكذلك حسن جواب، وحسن عطاء؛ لأنه يجب أن يكون مقصده نفع الغير، وليس إظهار نفسه وقوته وعلمه.

(١) «مسند أحمد» (٢٢٢١٨)، «جامع الترمذي» (٣٢٥٣)، «سنن ابن ماجه» (٤٨).
(٢) أخرجه البخاري (٢٣٢٥، ٤٢٥١، ٦٧٦٥)، ومسلم (٢٦٦٨).
(٣) «سنن الدارمي» (٣٦٧).

وقول ابن مسعود: «ليأخذ به من الأمراء» هذا أمرٌ آخر زائد على ما ورد في الحديث السابق، أي: أنه يحذر من الذي يتعلم ليأخذ به المال ويتكسب به، وهذا وعيد شديد لمن يعمل بذلك.



﴿١٣٤﴾ وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال لقوم سمعهم يتمارَوْن في الدين: «أما علمتم أن لله عباداً أسكتتهم خشية الله من غير صمم ولا بكم؟ وإنهم لهم العلماء والفصحاء، والطلقاء والنبلاء، العلماء بأيام الله، غير أنهم إذا تذكروا عظمة الله طاشت عقولهم، وانكسرت قلوبهم، وانقطعت ألسنتهم، حتى إذا استفاقوا من ذلك تسارعوا إلى الله بالأعمال الزاكية، يعدون أنفسهم مع المفرطين، وإنهم لأكياس أقوياء، ومع الضالين والخطائين، وإنهم لأبرار برآء؛ ألا إنهم لا يستكثرون له الكثير، ولا يرضون له بالقليل، ولا يدلون عليه بأعمالهم، حيث ما لقيتهم مهتمون مشفقون، وجلون خائفون» رواه أبو نعيم[(١)].

﴿١٣٥﴾ قال الحسن ـ وسمع قوماً يتجادلون ـ: «هؤلاء قوم ملوا العبادة، وخف عليهم القول، وقل ورعهم فتكلموا»[(٢)].

الشرح

كلام ابن عباس رضي الله عنهما فيه الحث على خشية الله ـ جل وعلا ـ والخوف منه، وأن يكون العلم داعياً العبد إلى أن يخضع لله ويذل، وأنه يتجنب الكبر وازدراء الناس ومجادلاتهم، ويكون همه خوف الله ـ جل وعلا ـ وتحصيل ما عنده من الفضل والخير، والسلامة من عذابه، فكلما قوي علم الإنسان صار له مقرباً إلى الخير مبعداً له عن العذاب، ومعنى ذلك أن الذي لا ينتفع بعلمه فإن عدم العلم أفضل وأحسن له.

وأما كلام الحسن البصري؛ ففيه حكمة؛ يعني: أن العالم يكون خائفاً، وإن تكلم فإنه لا يتكلم إلا بما ينفع، ولا يجادل.

---

(١) «حلية الأولياء» (١/ ٣٢٥).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢/ ١٥٧).



باب
التجوز في القول وترك التكلف والتنطع

١٣٦ عن أبي أمامة ﷺ مرفوعاً: «**الحياء والعِيُّ شعبتان من الإيمان، والبَذَاء والبيان شعبتان من النفاق**» رواه الترمذي(١).

الشَّرْح

قوله: «**الحياء**» هو الذي يمنع المرء من فعل المكروه، فيَسْتحيي من فعله عند من ينظر إليه من أهل الخير والاستقامة، ويستحيي من ربه تعالى، فهذا من الإيمان.

أما «**العي**»، فهو عدم البيان، وليس معنى ذلك أن يكون هذا خلقه، ولكنه يتركه خوفاً من الوقوع في الأمور التي قد تكون سبباً لكسب الذنوب، فهو يكون خائفاً.

أما **قوله**: «**من الإيمان**»؛ يعني: أن الحامل على هذه الأمور هو الإيمان.

وقوله: «**البذاء**»؛ يعني: الأمور التي تخرج من الإنسان، وهي مؤذية للغير سواء فعلاً أو قولاً مما فيها أذىً وخلاف الأدب.

وقوله: «**والبيان**»؛ يعني: أن يكون الإنسان عنده فصاحة في لسانه، ولكنه على خلاف ذلك. وهذا يدل عليه قول الله ـ جل وعلا ـ: ﴿وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ [المنافقون: ٤] يدل على أن المنافقين عندهم بلاغة وفصاحة.

(١) «جامع الترمذي» (٢٠٢٧).

١٣٧ وعن أبي ثعلبة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إن أحبكم إلي وأقربكم مني يوم القيامة أحاسنُكم أخلاقاً، وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني مساوئُكم أخلاقاً، الثرثارون المتشدّقون المتفيهقون**» رواه البيهقي في «شعب الإيمان». وللترمذي نحوه عن جابر رضي الله عنه[1].

الشَّرْحُ

هذا الحديث فيه الحث على حسن الخلق، وهو قسمان:

القسم الأول: جعله الله في الإنسان وخلقه له، ووهبه إياه.

القسم الثاني: خلق يكتسبه الإنسان ويتكلف فيه؛ يعني: يجاهد نفسه ويجبرها على أن لا تأتي إلا بالخير الذي ينفع الناس، ولا يقول إلا ما ينفع، وهذا القسم يحتاج إلى مجاهدة، وإذا جاهد الإنسان نفسه على ذلك فربما يكون خلقاً بعد ما كان تخلقاً، ويثيبه الله ـ جل وعلا ـ على ذلك.

قوله: «**إن أحبكم إلي وأقربكم مني يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً**»، هذا فيه أنه من كان كذلك؛ فإنه يكون أقرب المؤمنين مجلساً من رسول الله ﷺ يوم القيامة، وهذا فضل عظيم. وقد جاء في حسن الخلق فضائل عظيمة، وأن حسن الخلق يكون في أرفع الدرجات يوم القيامة؛ لأنه يمنع الإنسان من اقتراف أشياء كثيرة مكروهة، ويحمله على التساهل مع الناس والعفو والتسامح ونحوها، بخلاف عكسه.

وقوله: «**وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني مساوئكم أخلاقاً**» مساوئ الأخلاق لا حصر لها، فهي كثيرة جداً، وهي خلاف المحاسن.

وقوله: «**الثرثارون**» هم كثيرو الكلام.

وقوله: «**المتفيهقون**» هم المتكلفون في الكلام، أو المبالغون في فصاحتهم وبلاغتهم.

---

(١) «شعب الإيمان» (٤٩٦٩)، وحديث جابر عند الترمذي (٢٠١٨).

﴿١٣٨﴾ وعن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى يخرج قوم يأكلون بألسنتهم كما تأكل البقر بألسنتها**» رواه أبو داود، والترمذي[(١)].

﴿١٣٩﴾ وعن عبد الله بن عمرو ﷺ مرفوعاً: «**إن الله يُبغض البليغ من الرجال الذي يتخلل بلسانه كما تَخَلَّلُ البقرة بلسانها**» رواه الترمذي، وأبو داود[(٢)].

الشَّرْح

قوله: «يأكلون بألسنتهم كما تأكل البقر بألسنتها» هذا قد يكون على ظاهره، وقد يكون معناه: يأكلون بألسنتهم؛ أي: يتكسبون بألسنتهم، فكلا الأمرين محذورٌ منه.

قوله: «إن الله يبغض البليغ من الرجل»؛ يعني: البلاغة في وصف الباطل ودفع الحق، أما إذا كانت البلاغة في الانتصار للحق ونشره بين الناس فهي محمودة، ولهذا **قال: «كما تتخلل البقرة بلسانها»** والبقرة معروف كيف تصنع بلسانها، فدل على أنه لا تجوز المبالغة في الكلام المتكلف، وفي الأمور التي تدعو إلى أن يقول الناس: هذا رجلٌ فصيح، أو هذا رجل بليغ، هذا يستطيع أن يتكلم.. إلخ.

على كل حال؛ إن كان يُقصد بهذا باطلاً أو يَقصد به الاشتهار فهو المذموم.

❁ ❁ ❁

(١) أخرجه أحمد (١٥٩٧).

(٢) «سنن أبي داود» (٥٠٠٧)، «جامع الترمذي» (٢٨٥٣).

﴿١٤٠﴾ وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من تعلم صرفَ الكلام ليَسْبِيَ به قلوب الرجال أو الناس؛ لم يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً**» رواه أبو داود[١].

﴿١٤١﴾ وعن عائشة ﷺ قالت: «كان كلام رسول الله ﷺ فَصْلاً يفهمه كل من يسمعه»[٢]. وقالت: «كان يحدثنا حديثاً لو عدَّه العادُّ لأحصاه»[٣]. وقالت: «إنه لم يكن يسرد الحديث كسردكم»[٤]. روى أبو داود بعضه.

الشَّرْحُ

قوله: «صرف الكلام»؛ يعني: أنواع الكلام والتصرفات فيه، كيف يستطيع أن يأتي بأنواع الكلمات المترادفة أو البليغة وغير ذلك، وإنما يتعلم لأجل لفت أنظار الناس إليه؛ حتى يُثنوا عليه ويمدحوه ويقولوا: إنه البليغ العالم.

ولهذا توعده بأن الله «**لا يقبل منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً**»، الصرف هو النوافل، والعدل: الفرائض، وهذا وعيد شديد، فلا يقبل منه عملٌ يوم القيامة.

وقوله عائشة ﷺ: «فصلاً»؛ يعني: أنه يفصله ويوضحه، فلا يدمج بعضه ببعض؛ لأنه يريد الحفظ والفهم صلوات الله وسلامه عليه.

فإذا تكلم بالكلمة أعادها ثلاثاً حتى تُحفظ؛ لأنه جاء مبلِّغاً هادياً إلى الرشد داعياً إليه، ومع ذلك كانت كلماته جامعة، فالكلمة الواحدة تحتها من

---

(١) «سنن أبي داود» (٥٠٠٨).
(٢) أخرجه أبو داود (٤٨٤١).
(٣) أخرجه البخاري (٣٣٧٤)، ومسلم (٢٤٩٣).
(٤) أخرجه البخاري (٣٣٧٥)، ومسلم (٢٤٩٣).

المعاني الشيء الكثير، وقد أخبر ﷺ أنه أُوتي جوامع الكلم، فقال: «**أعطيت جوامع الكلم**»[١]، وجوامع الكلم أن تكون الحروف قليلة ولكن معانيها كثيرة، كما هو معلوم من كلامه ﷺ.



(١) أخرجه مسلم (٥٢٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

١٤٢ وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«إذا رأيتم العبد يُعطى زهداً في الدنيا وقلةَ منطق؛ فاقتربوا منه، فإنه يُلقّى الحكمة»** رواه البيهقي في «شعب الإيمان»[١].

١٤٣ وعن بريدة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إن من البيان سحراً، وإن من العلم جهلاً، وإن من الشِّعر حُكْماً، وإن من القول عيالاً»**[٢].

الشرح

قوله: «إذا رأيتم العبد يُعطى زهداً في الدنيا، وقلةَ منطق»؛ يعني: يكون كثير الصمت وليس عنده ثرثرة أو كثرة كلام.

يقول: «فاقتربوا منه، فإنه يُلقى الحكمة» وهذا في الغالب؛ يعني: يوفق للحكمة، وهي الكلام في الحق الذي يكون موافقاً للشرع أو داعياً إليه.

قوله: «إن من البيان لسحراً» اختلف الناس في هذا الحديث بين المحدثين والأدباء:

فالمحدثون يقولون: إن هذا جاء على سبيل الذم، وهذا الذي يدل عليه هذا الحديث.

وأما والأدباء فيقولون: إنه على سبيل المدح.

والسحر ليس فيه حلال، فكله شر لا خير فيه، ولكن معنى **قوله: «إن من البيان لسحراً»**؛ أي: أن الذي يُعطى البيان قد يُغطي على السامع فيذكر له الباطل حتى يتصور أنه حق، وبالعكس فقد يذكر له الحق فيذمه حتى يصور له أنه باطل، فهذا نوعٌ من السحر، وهذا الذي قصده الرسول ﷺ ـ والله أعلم ـ **بقوله هنا: «إن من البيان لسحراً»**.

وقوله: «إن من العلم جهلاً»؛ يعني: إذا كان يدعو إلى باطل أو أنه يتكلم

---

(١) (٤٩٨٥).

(٢) أخرجه أبو داود (٥٠١٤).

به، أو إذا دعاه العلم إلى أمور على خلاف الشرع، فجهله هذا أحسن من علمه، أو كان علمه مراداً به غرض معين، فكونه يجهل أولى.

وقوله: «**إن من الشعر لَحُكْماً**»؛ لأن الشاعر كثيراً ما يُعطى الحِكم، وهذا يدخل فيه شعر الجاهلية وغيره، ولكن غالبه كذب كما قال الله ـ جل وعلا ـ: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾ [الشعراء]، فالقول مع عدم الفعل من الكذب.

وقوله: «**وإن من القول عيالاً**»؛ يعني: أنه يعود على صاحبه بالإثم وباللوم، وبالفقر في الحسنات.

وجاء في رواية: «**عِيّاً**» بدل «**عيالاً**»، ومعناه ظاهر كما سبق.



﴿١٤٤﴾ وعن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه قال يوماً وقام رجل فأكثر القول، فقال عمرو: لو قصد في قوله لكان خيراً له، سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«لقد رأيت أو أمرت أن أتجوز في القول، فإن الجواز هو خير»** رواهما أبو داود[١].

آخره، والحمد لله رب العالمين حمداً كثيراً.



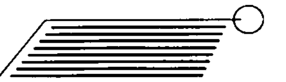
قوله: «لقد رأيت أو أمرت أن أتجوز في القول»؛ يعني: أُمرت بالاختصار والاقتصار على الشيء النافع الذي يكفي، وأما الكثرة فقد تُنسي أو تُلهي أو قد تُمل، فلا تنبغي، ولهذا جاء في الحديث الصحيح: **«إن طول صلاة الرجل وقِصَرَ خُطبته مَئِنَّةٌ من فقهه»**[٢]، فنحن مأمورون بالاكتفاء بالقول بما ينفع ويكفي.

وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد.



(١) «سنن أبي داود» (٥٠١٠).

(٢) أخرجه مسلم (٨٦٩)، من حديث عمار رضي الله عنه.



الفهرس

